الافتتاحية

القرى الأثرية لم تعد منسية

د. نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة

في الفلسفة يرتبط مفهوما الزمان والمكان بشكل نظري مطلق، وفي علم التاريخ تأخذ هذه العلاقة بعداً حقيقياً، بحيث تحمل معالم المكان دلالات على مسيرة الزمن.

في سورية التاريخ والحضارة شواهد شامخة على امتداد مساحة الوطن تشهد فيها المواقع الأثرية على تاريخ الزمن العريق الذي شهد بزوغ الحضارات في العالم.

هي معالم في طريق حركة الحياة التي انبثقت وارتقت وسابقت الزمن في مسيرته اللامتناهية، لتكون سجلاً تاريخياً، لم تستطع عوامل الاجتياح الطبيعي أن تجعله يمحى أو يندثر؛ لأن الإنسان المبدع استطاع أن يعطي الحجر قدرة التعبير، ولغة الفن التي تخاطب العالم أجمع، لغة البناء والعمارة، والكتابة التي بُنيت على أسس جمالية إبداعية خلاقة انسكبت فيها روح متميزة تجمع أنفاس الشرق وأساطيره ومثله وقيمه مع تجليات الجمال والإبداع لحضارات الشعوب المحيطة في تعايش وتكامل تشهد عليه انسيابية خطوط الفن والنحت والعمارة، وانسجامه في نسقٍ تنسجم فيها القدرات الخلاقة، وتنسكب فيها روح توحد ذلك الانسجام والتواصل .

منذ مئات السنين، يسطع نور الشمس كل صباح لينير آلاف المواقع الأثرية التي تشهد على عراقة تاريخ سورية، وارتقاء هذا الشعب في سلم الحضارة ، والحلم الأكبر الذي نعيشه الآن هو سطوع نور المعرفة التي تنير مسالك الوصول إلى حقيقة هذه الشواهد الأثرية، والتعريف بها، وفك رموز اللغة والدلالات التي اختزنتها عبر الزمن من أجل إعادة قراءتها برؤى جديدة، ومنطق عصري متفتح يؤكد ضرورة لقاء الحضارات وتعزيز الروابط بين الثقافات، وإبراز المشترك بين شعوب العالم.

المدن الأثرية، أو القرى المنسية، كما دعيت، لن تكون منسية بعد الآن، لأن ذاكرة الأرض أو الحجر الذي عايش حركة الإنسان، وانحفر النقش في خطوطه وثناياه، يحفظ هذه الطاقة الروحية والفكرية المعطاءة ويعيد صياغتها للبشر؛ لتكون دليلاً صادقاً يجدّد المعارف وينقلها من ذاكرة الأرض إلى ذاكرة الإنسان،

ومن صفحات التاريخ إلى صفحات الانتماء والاعتزاز بهذا الوطن، موطن الحضارات ومهدها .

هذه القراءة الجديدة، وهذا الاهتمام المتزايد بالآثار والمواقع الأثرية لم يكن ليتنامى في سورية لو لم تشهد الاستقرار والنهوض الاقتصادي، والاجتماعي، والفكري العام، لأن ارتقاء العلوم والثقافة والفن والإبداع، لايمكن أن يتحقق في مجتمع يعاني من الاضطراب، أو التخلف الاجتماعي ، وبات بديهياً أن تقدم العلوم والبحوث لايمكن أن يأخذ أبعاده كظاهرة وسمة عامة إلا في مجتمع تتحقق فيه الطمأنينة والكفاية والعدل، وقد كان العلامة ابن خلدون قد أكد هذه الحقيقة في مقدمته المشهورة حين قال: «إن العلوم تكثر عندما يكثر العمران وتعظم الحضارة» حيث أن العلوم في رأيه تكثر في الأمصار على نسبة عمرانها في الكثرة والحضارة والانصراف إلى ما وراء المعاش، من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع.

جهود علميةً فائقة بذلها فريق العمل من المهندسين والمهندسات، والمختصين الذين أخذواعلى عاتقهم إعداد الدراسات اللازمة في تجهيز المعرض، والندوة العلميّة على مدى شهور طويلة بهدف التحضير لمشروع حماية القرى الأثرية الموجودة في منطقة تمتد على مساحة جغرافية واسعة تبدأ من المنطقة الواقعة بين النبي هوري شمالاً، وأفاميا جنوباً، وبين سهل إدلب شرقاً، وجسر الشغور غرباً، والتي تضم مواقع من ٧٠٠ قرية أثرية تعود إلى المرحلة التاريخية الممتدّة بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين، وتقع على أرض طولها ١٥٠كم، وعرضها ٧٠ كيلو متراً، ويتميز هذا المشروع الذي حظي باهتمام القيادة السياسية

بأهدافه المتمثلة بالتوجه إلى حماية تلك الآثار والحفاظ عليها، وإظهار عراقتها وتصنيفها ضمن فئات صالحة لأن تكون محميّات ومجمعات أثرية وطبيعيّة، والعمل على تحقيق مستوى أرفع من التنمية والرّعاية المستدامة للمناطق المحيطة، وتوفير ما يلزم لتحقيق أهداف مثل هذا المشروع الحضاري والتّاريخي المميّز.

وإنني إذ أشكر الجهود المبذولة في إعداد الدّراسات وإعداد هذا المعرض، أتوجه بالشكر والتقدير للحضور المتخصص والمميز الذي يجسد بحضوره الاهتمام بالتراث والمعالم التاريخية والقيم المعرفيّة والحضاريّة، كما يجسد الرغبة في توحيد الجهود الوطنية والعالمية لحفظ المخزون الحضاري لشعوب العالم، وإبراز عراقة وتميز الهوية الحضاريّة لسورية ومواقفها المستنيرة المتفتحة على آفاق ثقافات العالم في ماضيها العريق، وحاضرها المتألق تقدماً وبعداً إنسانياً شاملاً.

❖ ❖ ❖

كلمة المعرفة

9

بالسلم وحده يحيا الإنسان

رئيس التحرير *

عالمنا الجميل هذا لماذا يشوهه الإنسان؟ كوكبنا الرائع لماذا يخربه؟ جنتنا هذه لماذا يحيلها إلى جهنم؟ تساؤلات تخطر في كل بال والمرء ينظر إلى ما حوله فلا يرى إلا القبح والدمار، الفظائع والأهوال: طائرات تقصف البشر، تدمر البيوت، تقتل الأطفال الأبرياء، شعوب تحاصر حتى الموت جوعاً، بلدان تهدد حتى الموت خوفاً والوحش الفاتك يجوس العالم باطشاً هنا، مروعاً هناك وليس هنالك من أوديب قادر على قتل الوحش.

لقد تقدم الإنسان، ارتقى مدارج الحضارة، صنع تكنولوجيا، ازداد

علماً ومعرفة، رغم ذلك مازال للشر فيه نصيب كبير، جذوره تضرب عميقاً في تربته، لكأنه ورث عن إنسان الغابة نزوعه لأن يشابه وحوش الغابة شراسة وضراوة، لكأنه ورث عن تلك الوحوش التي هزمها نهمها الذي لايشبع، غرائزها التي لاترتوي، حبها للافتراس والفتك، للسيطرة والبطش لكن بدلاً من أن يحارب وحش الغابة تحول إلى أخيه الإنسان يحاربه ويبطش به، يفترسه ويفرض سيطرته عليه. وكيف؟ بالقسوة والعنف، بل بأشد أشكال القسوة تدميراً وأفظع ألوان العنف وحشية.

وإذا كانت البشرية قد عرفت في تاريخها الطويل قيام إمبراطوريات وصراع ممالك، حروباً وغزوات، لهذا السبب أو ذاك فإن العصر الحديث وحده ينفرد بظاهرة خطيرة، ظاهرة منظمة مبرمجة، لها وسائل محددة، وغايات محددة هي: الاستعمار. عصرنا الحديث وحده هو الذي شهد تركز هذه الظاهرة في أوربا واستفحالها لدى الغرب بعد أن ظل هذا الغرب قروناً من الزمن يقتتل ويتصارع إلى أن اتفق على التصالح الذاتي من أجل السيطرة على الآخر منهياً بذلك مرحلة الصراع مع الذات ليدخل في صراع مع الآخر يسيطر عليه ويقتسم النفوذ والهيمنة على أراضيه.

هكذا فعلت الدولتان الاستعماريتان الأساسيتان في أوروبا وهما تدخلان القرن التاسع عشر لتباشرا بسط نفوذهما في شرقي الأرض وغربيها، متفقتين على ألا تختلفا، متعاهدتين على ألا تتصارعا، فالعدو هناك في آسيا، أفريقيا، أوقيانوسيا... استخدمتا شتى الوسائل، مارستا كل أشكال العنف: القتل، التهجير، النفي، التجويع، الذبح، الأرض المحروقة، الأرض المسروقة... كل شيء فعلته الامبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس وتوأمهما الامبراطورية التي لايغيب عنها القمر كي ترسخا جذورهما الاستعمارية في الأرض، حتى بدت الأرض كلها، ذات يوم. ملكاً لهما تفعلان بهما ماتشاءان.

لكن ما إن جاء القرن العشرون حتى ظهرت قوى جديدة تنافس قوى

الاستعمار تلك وتريد حصتها من الأرض. هي من الغرب ذاته، مركز النهضة ومنطلق التقدم التكنولوجي والعلمي المتفوق على الجنوب والشرق، والقادر أن يمارس عليه شتى أشكال العنف. لكن هل يرضخ الآخر الاستعماري؟ هل يسلم بشبر من الأرض التي يسيطر عليها؟ واندلع الصراع من جديد: صراع المصالح والاستعمار، وكان القرن العشرون أكثر القرون دموية وتدميراً، وحشية وتخريباً.

إن نظرة واحدة نلقيها على نتائج تلك الحروب والصراعات الاستعمارية تبين لنا فداحة ما لحق بالبشرية جراء الاستعمار، إذ تقول الإحصائيات:

في الحرب العالمية الأولى بلغ عدد الشعوب التي أعلنت الحرب على بعضها بعضاً /١,٥/ مليار من البشر ينتمون إلى ثلاث وثلاثين دولة قامت بتعبئة سبعة ملايين مقاتل وبلغت خسائرها البشرية عشرة ملايين قتيل وعشرين مليون جريح، كما بلغ حجم الخسائر المادية مئتين وثمانية مليارات من الدولارات.

في الحرب العالمية الثانية بلغت الخسائر سبعة عشر مليون قتيل من الجنود وثمانية عشر مليوناً من المدنيين، إضافة إلى أضعاف هذه الأرقام من الجرحى والمشوهين، اليتامى والمشردين... الخ، فيما بلغت النفقات العسكرية للحرب ألفاً ومئة مليار دولار وإجمالي خسائر الحرب في العمران والصناعة وبين المدنيين ألفين ومئة مليار دولار علاوة على المواشي التي قتلت، المناجم التي دمرت، المصانع التي احترقت، المدن التي هدمت. الطيار الأميركي بول جيردوم بعد أن ضرب هيروشيما بقنبلته الذرية أرسل البرقية التالية: «رأيت المدينة وهدمتها» فأية وحشية أشد من وحشية الإنسان هذه: بقنبلة واحدة يدمر مدينة بكل ما فيها من بشر وحيوان، نبات وعمران... وتكون نتائج الحربين العالميتين الأشد وحشية في تاريخ البشرية: أكثر من مئة مليون من البشر بين قتيل وجريح والخسائر

المادية أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة مليار دولار!! إنه لشيء أشبه بالجنون، الأمر الذي دفع بالكثيرين لأن يبحثوا عن مخرج... أن يجدوا وسيلة لإنهاء التنافس، لاجتثاث الاستعمار... فكانت في البداية عصبة الأمم، تلك التي تآمر عليها الاستعماريون أنفسهم إلى أن حولوها إلى مطية ثم كسيحة عاجزة، لكن خوف الإنسان من شرور الإنسان، خشيته من وحشية أخيه الإنسان دفعته للبحث عن وسيلة جديدة فكانت هيئة الأمم المتحدة التي عقدت عليها الآمال ـ كما نرى في أحد أبحاث هذا العدد ـ لإنقاذ البشرية من براثن الاستعمار وتصفية الاستعمار... لكن هل تحقق هذا الحلم؟ هل بلغ الإنسان هذا الأمل؟ الإحصائيات أيضًا تقول إنه مابين إنشاء هذه الهيئة وتسعينيات القرن العشرين نشبت مئة وتسع وأربعون حربًا قتل فيها أكثر من ثلاثة وعشرين مليون إنسان وتركت من الدمار والخسائر مالا يعد ولايحصى... لماذا؟ لأن الشر نفسه مازال متمكنًا من الإنسان ولأن غريزة التملك والسيطرة ماتزال هي المهيمنة على الإنسان. صحيح أن الصورة تبدلت، وقوى الاستعمار تغيرت فحلت قوة محل أخرى، وهيمنت دولة على العالم محل أخرى إلا أن جوهر الأمر مايزال هو نفسه: الشر، العدوان، البغي ماتزال هي وحدها صاحبة القوة، تريد الاستئثار بكل شيء والسيطرة على كل شيء حتى على هيئة الأمم المتحدة نفسها لتصبح أداة ووسيلة بدلاً من أن تكون المرجع والحكم، وتتكرر المأساة نفسها دون أن تتعلم قوى الشر والاستعمار تلك من دروس التاريخ ودون أن تتعظ من عبر السلف... فالدم لايجر إلا الدم والعنف لايجر إلا العنف والاستعمار والهيمنة لايجران إلا الرفض والتمرد لتنشب حروب من جديد ويحدث دمار من جديد، بينما تتسع الأرض للناس جميعًا إن عاشوا أخوة متعاونين متآزرين، يسودهم الأمن والسلام، ذلك أن عِبَر التاريخ كلها تقول: بالأمن وحده يكون النماء والازدهار وبالسلم وحده يحيا العالم بل يصبح الأجمل والأروع.

النظرية العامة للنظم (تحليل النظم)

د. شمس الدين شمس الدين ❖

إن مبدأ تحليل النظم، قديم، قدم البشرية. فمنذ أن شرع الإنسان البدائي في مواجهة المشكلات الحياتية، دخل مدخلاً نظمياً، ذا طابع شمولي وحلل، من حيث المبدأ، المشاكل التي كانت تواجهه، تحليلاً شبه نظمي بالاعتماد على الحدس والخبرة الشخصية. فعندما كان يود البحث عن مكان يؤويه، كان يفكر بكهف منيع على الناس، بعيد المنال على الوحوش الضارية، قريب من الماء ومصادر الغذاء، أمين من السيول وحمم البراكين، متين، منور، ظليل...

(❖) - د. شمس الدين عبد الله شمس الدين: باحث ومحاضر من سورية، دكتوراه في الاقتصاد (أساليب رياضية). له عدة أبحاث منشورة في مجلة المعرفة.

ومع تطور معارف الناس وخبراتهم، تطورت إمكاناتهم على التحليل الشمولي، دون أن يرقى هذا التحليل إلى مستوى اسلوب له مفاهيمه وأسسه وتقنياته. ومن الأمثلة المبكرة على استخدام المدخل الشمولي - النظمي في تحليل الظواهر والمشكلات، بناءً على المعطيات الواقعية والمعارف العلمية المتاحة آنذاك، تحليل ابن خلدون (القرن الرابع عشر ميلادي) للوقائع التاريخية، وتأسيسه لعلم الاجتماع في كتابه الموسوم بالمقدمة، ودراسة داروين Darwin (القرن التاسع عشر) لعالم الأحياء، التي تمخضت عنها نظرية النشوء والتطور، وتحليل كارل ماركس Marks (القرن التاسع عشر) للنظام الرأسمالي في كتابه رأس المال، وغيرهم من علماء الطبيعة والاجتماع والاقتصاد.

وجاء النصف الثاني من القرن العشرين بمواضيعه ومشكلاته الكبيرة: دراسة الجملة العصبية، غزو الفضاء، تلوث البيئة، بناء المنشآت التقنية المعقدة: الحواسيب والروبوتات ونظم التوجيه الآلي المؤتمتة، المجمعات الصناعية الضخمة، العلاقات الدولية: السياسية والاقتصادية والثقافية، النظم الدفاعية، وما أفرزته ظروف الحرب الباردة وسباق التسلح من مشكلات وقضايا، وما ترتب على ذلك من نفقات مادية وتوظيفات بشرية باهظة، تطلبت ترشيدها على مختلف أوجه الاستخدام، وغيرها من المشكلات والقضايا، التي عجزت عن حلها أساليب التحليل العلمي المتاحة آنذاك، حتى بات من الصعب التقدم في الكثير من مجالات المعرفة البشرية، دون مفاهيم جديدة تعطي الإمكانية على تكوين رؤية عميقة وشمولية عن الأشياء، ودون قواعد ومنطلقات وأدوات وأساليب منهجية أكثر كفاءة وقدرة على الاستجابة لمتطلبات البحث العلمي الحديث وقضايا التنمية والدفاع والإدارة وغيرها.

في الوقت نفسه، كان لظهور النظرية العامة لتحليل النظم، في منتصف الأربعينات وأوائل الخمسينات من القرن العشرين، وتوفر رصيد علمي كبير في مجالات الفيزياء ما دون النووية (فيزياء الجسميات الدقيقة - Theory Quant) وعلم الأحياء (علم الوراثة، هندسة الجينات- Genetics) وعلم التحكم (Cybernetics) والمعلوماتية -Informat (ics)، وظهور فروع جديدة وتحديث فروع قديمة في الرياضيات، وتطور تقنيات الحساب والاتصالات، وغيرها من العلوم، أثره الإيجابي البالغ في وضع اللبنات الأولى، لأسلوب تحليل النظم.

شواهد وأمثلة من التجربة

في أوائل الخمسينات من القرن العشرين وفي الوقت الذي شرع فيه علماء الأحياء باستكشاف الشيفرة الوراثية، بدأ مبتكرو نظريات الاتصالات والمهندسون في مختبرات بيل، وخبراء الكمبيوتر في شركة (I.B.M) وفيزيائيون في مختبرات بوست أوفيس البريطانية، بالإضافة إلى مختصين في المركز القومي للبحث العلمي في فرنسا، بفترة عمل مكثف، اعتمد على البحث العملياتي (بحوث العمليات - Operations Research)، أفرزت ثورة جديدة في عالم التحكم، الأتوماتيكية (Outomation) وفروع جديدة في التكنولوجيا، وأنواع جديدة من التقنيات، التي جاء معها منهج جديد في التفكير، يقوم على ما يعرف اليوم بالمدخل النظمي (Systems Approach)[1]، الذي يشكل المنطلق الأساسي لتحليل النظم.

ومع حلول العقد السادس من القرن العشرين ازداد تأكيد المفكرين على النظرة الكلانية، لا التجزيئية نحو المشكلات[2]. وقد كان للتأكيد على علاقات التغذية الاسترجاعية (Feedback Relations) بين النظم الفرعية (Subsystems) ضمن النظام الواحد، وبين النظام (System) وبيئته (Environment) وظهور السببية الجديدة (New Causality) ومبدأ الارتياب[3] (Uncertainty Principle)، أثر ثقافي وعلمي واسع. وقد تم توظيف لغة هذا التفكير ومفاهيمه من قبل علماء الأحياء والاجتماع والاقتصاد والنفس والفلسفة ومحللي السياسات الخارجية والمناطقة واللغويين والمهندسين والمدراء[4].

وفي السبعينات من القرن العشرين لاقت هذه الأفكار مدًا متزايدًا من حملات البيئة، عندما اكتشف علماء البيئة (Ecology)، بشكل متزايد، الشبكة

(1) - ألفن توفلر: حضارة الموجة الثانية، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية الليبية، مصراته - 1990، ص (330).

(2) - عن نشوء وتطور النظرة الكلانية في الأوساط العلمية، انظر: فريتجوف كابرا: انبثاق التفكير المنظوماتي، ترجمة د. معن رومية، مجلة المعرفة، العدد (456)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق 2001.

(3) - حول السببية الجديدة والارتياب، انظر: د. شمس الدين عبد الله شمس الدين: السببية والارتياب (الأسس العلمية والفلسفية)، مجلة المعرفة، العدد (457)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق 2001.

(4) - ألفن توفلر: حضارة الموجة الثانية، مرجع سابق، ص (330 -331).

الطبيعية والعلاقات المتبادلة بين الأنواع، وكلانية النظم البيئية (Ecosystems)[5] (Wholism)، وتشابه وتشارك المنهج البيئي والمنهج النظمي[6]، في الاندفاعة نحو تركيب المعرفة ودمجها، وتعالت، في هذه الأثناء في الجامعات، دعوات متزايدة للأخذ بالمنهج عبر المعارفي[7] (Interdiseiplinary Approach).

كل هذا أدى إلى تبلور مبدئي لأسلوب تحليل النظم، الذي لم يكتسب أهمية بالغة في تحليل المشكلات المعاصرة فقط، بل كأداة تفكير ضرورية إن كان في المجالات النظرية أو العملية. فمنذ أوائل الستينات من القرن العشرين أخذت العديد من المؤسسات الحكومية والخاصة في البلدان المتقدمة بتطبيق هذا الأسلوب.

وحسب معطيات عام (1969)م، استخدم أسلوب تحليل النظم في وضع (50) نوعًا من المشاريع والبرامج التي غطت أكثر من (60%) من النشاط المدني للحكومة الأمريكية، منها برامج: استثمار المصادر المائية، إدارة الثروة الغابية، تصميم وإنتاج الصواريخ الفضائية من نوع ساتورن - 5، الصناعة النفطية، برامج الصحة (مكافحة الأمراض، تخفيض عدد وفيات الأطفال). أما على مستوى القطاع الخاص فقد كانت شركة لوكهيد من الشركات العملاقة السباقة إلى استخدام أسلوب تحليل النظم[8].

ومن التطبيقات المبكرة والشهيرة لأسلوب تحليل النظم في الولايات المتحدة الأمريكية، استخدام هذا الأسلوب في وضع النظام (خطة - برنامج - موازنة) لوزارة الدفاع الأمريكية (1964-1968)، التي حملت من وزيرها روبيرت مكنمارا أحد أشهر الإداريين العسكريين في تاريخ الوزارة المذكورة. والنتائج التي تحققت باستخدام هذا الأسلوب كانت باهرة، دعت رئيس الولايات المتحدة آنذاك ليندن جونسون لوصف أسلوب تحليل النظم

(5) - المصدر السابق، ص (331).

(6) - تختلف النظرة الكلانية عن النظرة البيئية العميقة (Ecology Deep) اختلافًا طفيفًا لكنها جوهرية: (انظر: فريتجوف، مرجع سابق ص (63). وقد استغرقت مضامين كلا المصطلحين في النظرة النظمية أو المدخل النظمي.

(7) - ألفن توفلر: مرجع سابق، ص (331).

(8) - غلوبكوف، ي.ب: تحليل النظم في إدارة الاقتصاد الوطني: إصدار (مينخ) موسكو - 1975، ص (11 -15). (ل.روسية).

بالأسلوب الشوري، والطلب إلى جميع الوزارات والمؤسسات الحكومية استخدامه. حيث بلغ عدد الوزارات التي استخدمت هذا الأسلوب في عام 1970 (26) وزارة[9].

وفي العقدين السابع والثامن من القرن العشرين، انتشر استخدام أسلوب تحليل النظم في البلدان المتقدمة في مختلف مجالات البحث العلمي والتطبيق العملي:السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الثقافي، الصناعي، الزراعي، البيئي، الإداري، العسكري، وأصبح من أهم أساليب دراسة الظواهر المعقدة وتحليل المشكلات واتخاذ القرارات في مختلف النشاطات الحياتية للأفراد والمؤسسات والحكومات.

ومع القفزة النوعية التي أحدثتها تكنولوجيا الاتصالات والمعلوماتية، في العقد الأخير من القرن العشرين، (الانترنيت ومنظومة الأقمار الصناعية، تعقد التقنيات الحديثة - الحواسيب، الروبوتات، أجهزة التوجيه الآلي، المحطات الفضائية وغيرها) وسقوط الاتحاد السوفييتي ومنظومة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية، وما تمخض عنه من أحداث: العولمة والخصخصة والانفتاح الاقتصادي والإعلامي والانفجار المعلوماتي واشتداد المنافسة الدولية على الصعيد الاقتصادي وظهور الشركات متعددة الجنسيات وغيرها، وطفو مشكلات: النمو السكاني والتنمية الاقتصادية والاجتماعية وتلوث البيئة والتصحر والمياه والبطالة وغيرها، على سطح التغيرات المتسارعة، تعمقت النظرة الكلانية - البيئية (الشمولية)، وازداد الوعي بأهمية ودور المعلومات[10] والإدارة والتكنولوجيا الرقمية، وازدادت معه. الحاجة إلى أسلوب تحليل النظم وتعاظمت أهميته.

المدخل النظمي

يستخدم تحليل النظم كمدخل ومنهج في التفكير وأسلوب شمولي في البحث العلمي، إلا أنه لا يدعي الحلول محل الأساليب العلمية التجزيئية المعروفة ولا يلغيها، بل يغنيها ويفتح أمامها آفاقاً جديدة للتطور على المستويين النظري والتطبيقي، إلى جانب ما يمكن أن يقدمه

---

(9) - المصدر السابق، ص (11-15).

(10) - للتعرف على مفهوم المعلومات ودورها وأهميتها: انظر: د. شمس الدين عبدالله شمس الدين: نظرية المعلومات (مفاهيم ومقولات وقضايا أساسية)، مجلة المعرفة، العدد (450) وزارة الثقافة في ج.ع.س. دمشق - 2001.

من إمكانات واسعة لدراسة الكثير من المواضيع التي لا يمكن للأساليب التجزيئية إنجازها. فالبحث العلمي بحاجة للأساليب التجزيئية، كما هو بحاجة للأساليب الشمولية (الكلانية)، حيث يدعو العديد من العلماء إلى إقامة توازن بين الخبرات التحليلية (Analitical)، أو التجزيئية (Partical)، التي كان لها الفضل الكبير في الإنجازات العلمية السابقة، والخبرات التركيبية (Synthetic) الجديدة. وقد عبر عن هذه الفكرة بصورة جلية العالم البيئي إيوجين، ب. آدوم (odom) حين قال: «بما أن العناصر الأولية.. تنضم لتنتج كليات وظائفية أعظم، فإن خواصاً جديدة تظهر لم تكن معروفة أو واضحة في المستويات المتتالية.. وهذا لا يعني أننا نهجر العلوم الإنقاصية (Reductionism). فلهذا المنهج فضل كبير على البشرية وصالحها، إلا أن الوقت قد حان لمساندة الدراسات، ذات النظم الدمجية على نطاق واسع[11]. بل أن التأكيد على المنهج الكلاني (الهوليستيكي) أو الشمولي، الذي يقوم على المدخل النظمي، مثله، مثل مفاهيمنا المتغيرة في الزمان والمكان، هو جزء من تغيير ثقافي - معرفي شامل للمقدمات الفكرية لمرحلة جديدة في التفكير، الذي وصل ذروته مع المفاهيم والنظريات الجديدة حول العلم والفلسفة والحكمة، التقانة والإدارة، النظم والمعلومات، الطبيعية والمجتمع وغيرها.

يفيد تعبير مدخل (Approach) في البحث العلمي، كيفية النظر إلى موضوع بحث ما، وتناوله والولوج فيه، ومجموعة المنطلقات (Starting Points) والافتراضات (Premises) ،التي سينطلق منها الباحث في بحثه ويبني عليها دراسته للموضوع.

ينطلق المدخل النظمي (Systems Approach) من نظرة شمولية (Global, overal) تتجلى من الناحية العملية في عدّ أي موضوع بحث نظامًا (System)[12]. منظومة أو نسقًا. فلذلك، عُرف المدخل النظمي بالمدخل الشمولي (Global Approach).

يقوم المدخل النظمي (الشمولي) على الافتراضات التالية:

(11) - ألفن توفلر: حضارة الموجة الثانية، مرجع سابق، ص (333).

(12) - للتعرف على المفاهيم الأساسية لنظرية النظم، راجع بحثنا: النظرية العامة للنظم (مفاهيم ومقولات وقضايا أساسية)، مجلة المعرفة، العدد (434) وزارة الثقافة في ج.ع.س. دمشق - 1999.

1 - وجود حدود تفصل مكونات النظام بعضها عن بعض، والنظام عن بيئته (Environment).

2 - وجود ترابط وتفاعل (Interacting)، مستمر بين عناصر النظام، والنظام وبيئته (إذا كان النظام مفتوحًا- Open System).

3 - وجود رغبة أو ميل تكويني (طبيعي أو صنعي) عند كل عنصر من عناصر النظام للحفاظ على حالة الهوميوستاز (Home-ostasis: التوازن والمثالية[13]).

4 - قابلية النظام للتفكيك (عمليًا أو ذهنيًا) إلى نظم جزئية (Subsys-tems)، على مستويات مختلفة من التدرجية (Hierarchy).

يرتبط المدخل النظمي، ارتباطًا وثيقًا بالمدخل المعلوماتي (Informa-tion : Approach)[14]. ويشكل معه المنطلق المبدئي والأساسي لتحليل النظم.

جوهر تحليل النظم

تحليل النظم (Systems Analysis) عبارة عن عملية بحث علمي، يقوم على منطلقات وافتراضات المدخل النظمي، المنوه عنها أعلاه، وتتلخص في العمليات التالية:

1 - تحديد حدود النظام، أنظمته الجزئية (Subsystems) وعناصره (Elements). وإذا كان النظام مفتوحًا، فهذا يشمل مدخلاته (Input) ومخرجاته (Output).

2 - تحديد علاقات (Relations) النظام وخصائصها (Attributs).

3 - حصر وتحديد وظائف (Functions) النظام وأهدافه (Ojectives).

4 - تحديد بنية (Construction) النظام والوقوف على خصائصه وآليات عمله.

5 - تحديد النظام الكلي الذي ينتمي إليه النظام قيد البحث، والذي يتكون من النظام الكلي (Supersystem): نظام-بيئة.

يعدُّ أي نظام كلي، نظامًا مغلقًا (Closed system) بالضرورة. وهذا يعني، عمليًا تحديد مجموعة النظم البيئية ذات العلاقة الجوهرية والمباشرة بالنظام قيد البحث فقط، والوقوف على هذه العلاقات وتحليل خصائصها.

يمكننا من حيث المبدأ التمييز بين عدة أنواع من تحليل النظم تتناول جوانب

(13) - للاستزادة حول مفهوم (Homeostasis) راجع بحثنا السابق.

(14) - للاستزادة حول المدخل المعلوماتي، راجع بحثنا: نظرية المعلومات، مرجع سابق.

مختلفة من النظام وتكمل بعضها البعض: التحليل الهيكلي (Structural Analy-sis) - التحليل البنيوي (Conctructive Analysis)، التحليل الوظيفي - الهدفي - (Functional Objectivity Analysis) تحليل نظم المعلومات (Informations Systems Analysis). وفي كل الأحوال نحن لا نستطيع تحليل النظام إلا من خلال تمييز وتوصيف عناصره وتحديد وظائفه وأهدافه والوقوف على خصائصه وآليات عمله في سياق علاقاته الداخلية والخارجية، وعلى الخصوص علاقاته السببية (Causality Relations). وبذلك يتحول تحليل النظم، مبدئياً، إلى تحليل سببي (Causality Analysis) مطرد، ذو طابع تدرجي. إلا أن العلاقات السببية، ليست العلاقات الوحيدة التي تحكم النظام. فإلى جانب هذه العلاقات هناك علاقات غير سببية، وجودية [15] (Ontological) طبيعية أو اجتماعية تحكم النظام، هي أم العلاقات السببية ومولدتها وحاضنتها. والتحليل السببي الذي يفسر لنا لماذا تحدث الأشياء. ويمكن أن يجيب على الأسئلة. لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ لا يمكنه أن يجيب على حيثيات كل الأسئلة ويوصف لنا كافة جوانب النظام وعلى الخصوص جوانبه الأنطولوجية[16]. لذلك كان من الضروري عند تحليل النظام دمج التحليل السببي والتحليل الأنطولوجي في تحليل واحد، متسق، لمجموعة من العلاقات السببية والأنطولوجية. وبناءً عليه يمكننا تلخيص تحليل النظم في عملية تفكيك النظام (أو النسق)، على مستويات مختلفة من التدرجية. بالكشف عن العلاقات التي تربط عناصر النظام أو نظمه الجزئية، وتتبع سلسلة أو شجرة أو شبكة من العلاقات السببية والوجودية، التي تحكم النظام.

منطلقات تحليل النظم

- تتم عملية تحليل النظم، استجابة لهدف معرفي أو تطبيقي معين.
- أي هدف معرفي أو تطبيقي لا بد له من دوافع، لا تأتي من فراغ وإنما من واقع موضوعي وجد له انعكاساً ما في وعينا.
- يتحدد الهدف بناءً على حاجة

(15) - ماريو بونغ، السببية والتفسير العلمي، مجلة المعرفة، العدد (448) وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق - 2001، ص (36).

(16) - المرجع السابق، ص (37).

معرفية أو تطبيقية معينة. لا بد أن يكون لها، بدورها، نقطة استناد.

– نقطة الاستناد هذه، يمكن أن تكون ملاحظاتنا الأولية عن وجود نظام ما، وجوداً موضوعياً، أو الوقوف على علاقة ما بين مجموعة من العناصر، أو ملاحظة ظاهرة أو أثر لظاهرة، يدل على وجود وظيفة، وبالتالي وجود نظام، وعلى الغالب، وجود مشكلة أو مسألة يراد حلها. أو توفر معطيات علمية أو خبرات سابقة بالنسبة للنظم المراد استحداثها (النظم الصنعية الجديدة).

تتشكل الملاحظات الأولية من خلال المشاهدة والملاحظة، نتائج الأبحاث، وغيرها من مولدات الوعي، القائمة، بشكل أساسي، على التجربة. يقول ماريو بونغ: «من أين تأتي مواد العقل والمعرفة..؟ على ذلك أجيب بكلمة واحدة: من التجربة، التي تتأسس عليها كامل معرفتنا ويشتق العقل نفسه منها»[17].

كما يمكن أن تكون نقطة الاستناد هذه وكما يؤكد فيلسوف العلم كارل ريموند بوبر، افتراضاً علمياً (Scientific Premis)، يفرضه الباحث بناء على حدسه الشخصي (Conjectur)[18]. رغم أن منطلقات (محركات أو دوافع) تحليل نظام ما، تأخذ اتجاهاً عاماً، تتسلسل فيه ابتداء من ملاحظات أولية أو فروض حدسية، مروراً بالحاجات والأهداف، وصولاً إلى تحليل النظام، إلا أن عملية التحليل نفسها، يمكن أن تعطينا، في مرحلة ما من مراحلها، ملاحظات جديدة تستدعي تغيير أو تعديل في الفروض أو وضع فروض جديدة، كما يمكن أن تعدل أو تغير بالأهداف وأن تخلق حاجات معرفية أو تطبيقية معينة، تستدعي بدورها إلى تغيير في الفروض.

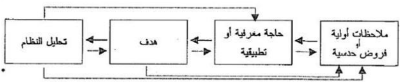
وهكذا نرى أن منطلقات تحليل النظام ترتبط، إلى جانب علاقاتها المنطقية – الاتجاهية، بعلاقات تغذية استرجاعية عديدة، كما هو موضح في الشكل أدناه.

موضوع تحليل النظم

أي موضوع (Subject) بحث علمي، يمكن أن يكون، من حيث المبدأ، موضوعاً لتحليل النظم. حيث ينطبق مفهوم نظام، منظومة، نسق على أي جملة أو كيان

(17) – المرجع السابق، ص (26).

(18) – د. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول– الحصاد – الآفاق المستقبلية)، عالم المعرفة (264)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت – 2000، ص(346، 347، 354).



طبيعي أو صنعي، تقني أو اجتماعي، أو أي فعل أو عملية أو وظيفة أو هدف أو ظاهرة أو حالة أو مشكلة.

إلا أن تحليل النظم، وكما نوهنا أعلاه، لا يستخدم إلا في دراسة المواضيع التي لا يمكن للأساليب التجزيئية إنجازها. أي تلك المواضيع التي تحتاج إلى خبرات تركيبية - دمجية، وعلى وجه التحديد النظم الكبيرة والمعقدة، كالأجسام الحية ونظم البيئة الطبيعية والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأنساق العرقية والثقافية والمجمعات الصناعية والزراعية ونظم الإدارة والمنظومات التقنية المؤتمتة وخطط وبرامج وموازنات واستراتيجيات البحث العلمي والتنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومكافحة الأمراض الوبائية وتلوث البيئة والتصحر... ومن المستحيل حصر وعدّ مواضيع تحليل النظم، إلا أنه بالإمكان تحديدها بالنظم أو المنظومات أو الأنساق المعقدة، التي تتجلى على شكل بنى وعمليات وظواهر وحالات ووظائف وأهداف، تسودها علاقات التغذية الاسترجاعية وتتصف بالتنوع السلوكي.

مادة تحليل النظم والمدخل المعلوماتي

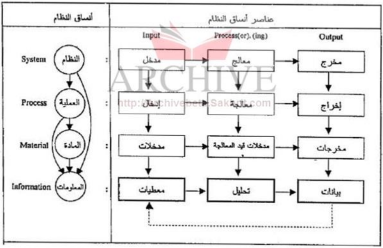
لو أمعنا الفكر مليًا في كل أنواع تحليل النظم، لوجدناها تؤول جميعها إلى تحليل نظم معلومات، ينصب على نسق من العناصر والعمليات والعلاقات السببية والوجودية وخصائصها. وقد أشرنا في فقرة سابقة إلى أن المدخل النظمي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمدخل المعلوماتي. وحسب هذا المدخل، وفي كل الأحوال والحالات، نحن لا نتعامل إلا مع معلومات «معطيات أو بيانات». وهذا يعني أن تحليل النظم يرتبط ارتباطًا عضويًا، بتحليل نظم المعلومات ويؤول، عمليًا، إليه، لأن تحليل النظم عملية ذات طابع معرفي (Epistimic). ومادة المعرفة هي المعلومات. وبناءً عليه نصل إلى نتيجة

(٭) - أينما وردت فإن: ← علاقة اتجاه عام، ⇠ علاقة استرجاعية.

مفادها أن «المعلومات» هي المادة (Material) الوحيدة لتحليل النظم. والرسم البياني أدناه، يوضح كيف تؤول عملية تحليل النظم وتتحول في شكلها الشيئي، مهما كانت طبيعة النظام أو كان نوعه أو موضوعه أو الأهداف المراد تحقيقها من تحليله، إلى عملية تحليل نظم معلومات[19]، وذلك من خلال تتبع علاقات التحول المنطقية بين مختلف عناصر النظام أو أنظمته وأنساقه الجزئية.

أهداف تحليل النظم

يهدف تحليل النظم، كأي نشاط



(19) – المقصود هنا بتحليل نظم المعلومات، ليس نظم المعلومات الحاسوبية فقط، بل أي نظام معلوماتي.

ذهني إنساني، إلى تحصيل معرفة عميقة وشاملة بموضوع ما أو أحد جوانبه، وتجيب على الأسئلة: ماذا؟ (ماذا نريد؟) ولماذا؟ وكيف؟ (لماذا تحدث الأشياء وكيف؟) وأين؟ ومتى؟. وتتصرف بشكل مبدئي وأساسي إلى تحقيق أربعة أهداف رئيسة ومباشرة:

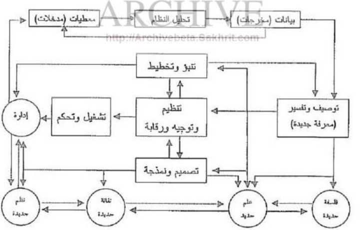
- توصيف النظم (الظواهر والأشياء) وتفسير أسباب حدوثها.

- التنبؤ العلمي بسلوكيات النظم خلال مدة زمنية مستقبلية معينة والتخطيط لما يجب عمله.

- تصميم ونمذجة نظم المحاكاة الشكلية - الرمزية والنظم الصنعية التقنية والاجتماعية.

- تشغيل و/أو التحكم بالنظم الحقيقية: الطبيعية والاجتماعية والتقنية (تنظيم، توجيه، رقابة).

وبشكل عام، يهدف تحليل النظم إلى تحصيل معرفة جديدة عن الظواهر والأشياء وإدارتها، إبداع فلسفة جديدة وتكنولوجيا ونظم جديدة. والشكل أدناه



يوضح لنا مختلف مخرجات (أهداف) عملية تحليل النظم، في سياق علاقاتها المنطقية: الاتجاهية والاسترجاعية.

تعريف تحليل النظم

بناء على ما تقدم، يمكننا تعريف تحليل النظم على أنه أسلوب تحليل عام وشمولي للظواهر والأشياء والمواضيع المعقدة، يقوم على فكرة النظام والمدخل النظمي – المعلوماتي. يتلخص في عملية تفكيك النظام على مستويات مختلفة من التدرجية: تحديد حدوده، عناصره وأنظمته أو أنساقه، وظائفه وأهدافه، بنيته وآليات عمله، نظمه البيئية، مدخلاته ومخرجاته، علاقاته الداخلية والخارجية، والوقوف على خصائص هذه العلاقات. وذلك بالكشف عن، وتتبع سلسلة أو شجرة أو شبكة من العلاقات السببية والوجودية، التي تربط عناصر النظام ونظمه الجزئية وأنساقه المختلفة بعضها ببعض وتربط النظام مع البيئة، بهدف إدارة النظام أو تحصيل معرفة جديدة.

الأسس الفلسفية والمبادئ العلمية لتحليل النظم

تحليل النظم، كأسلوب بحث علمي، شمولي وعام، وكعملية ذهنية مركبة ومعقدة، يتطلب من الباحث (محلل النظم) توفر جملة من الشروط:

– الإيمان بأن السبيل إلى معرفة الحقيقة هو العلم.

– الدراية والخبرة التخصصية في موضوع البحث.

– الإلمام الجيد بأساليب وتقنيات البحث العلمي.

– القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة فلسفية شمولية.

– الحكمة في التحليل والتركيب واتخاذ القرار.

– القدرة على التنبؤ واستشراف المستقبل.

– سعة الخيال، الإبداع والاختراع.

– الانطلاق والالتزام بجملة من الأسس والمفاهيم والمبادئ الفلسفية والعلمية، نورد فيما يلي أهمها:

1 – **العلمية** (Scientism): وتعني انطلاق الباحث من، والتزامه بالمنجزات العلمية والعلمو – فلسفية، ذات الطابع العام، التالية:

– التحديد الضمني – الموضوعي (Objective Determena-tion أو الاحتمالات الموضوعية

(Objective Probabitity)، ظواهر كونية وجودية، لايمكن استنفاذ عواملها ومتغيراتها والإحاطة بها «لأن هذا الكون مليء وغني بالمتغيرات التي لا حصر لها»[20].

- النظام في مفهومه الشيئي (System)، والنظام كانتظام وترتيب (Order)، يعم الكون والمجتمع، ولا مكان فيهما للفوضى (Anarchy).

- التوازن (Equiliberium) قانون وجودي شمولي وهدف عام لأي نظام، والاستقرار (Stability)، والقلق (Unquietness) شكلان مختلفان من أشكال التوازن.

- العشوائية (Random) ليست فوضى وإنما هي مزيج من التحديد الذاتي (Determination) الذي يخضع للضرورة (Necessity) . والشواش (Entropy) الذي يخضع للصدفة (Haphazard).

- إن كل ما في الكون والمجتمع والتقنيات من أشياء وظواهر نتيجة - محصلة لفعل وتوازن قوى السببية (Causality) ، التي تتجلى في تأثير بعضها على البعض، من خلال العلاقات السببية (Cousality Relations)، الناجمة، بدورها، عن علاقات وجودية (Antologice Relations) طبيعية أو اجتماعية، تعكس خصائص (Attributes) هذه الأشياء والظواهر.

- إن مبدأ السببية (Causality Princeple) ومبدأ الارتياب (Uncertain-ty Princeple) مبدآن عامان، يجب الأخذ بهما، وعلى الخصوص عند دراسة وتحليل النظم الديناميكية والمعقدة كالنظم الحية والنظم الاجتماعية والنظم التقنية الكبيرة. وإن مبدأ الحتمية (Determenism) يمكن الأخذ به في حالات خاصة فقط (بساطة النظام واستقراره، انخفاض الانتروبيا إلى أدنى درجاتها، بحيث تكون المخاطرة ضئيلة يمكن إهمالها).

- إن القوانين وحدها غير كافية لتفسير أو توصيف سلوكيات النظم (الأشياء والظواهر، العمليات..)، لأن القوانين ليست وحدها التي تحكم هذه السلوكيات، بل هناك أشياء أخرى غير

(20) - بول ديفيس: العوالم الأخرى (صورة الكون والوجود والعقل والمادة والزمن في الفيزياء الحديثة) الطبعة الثانية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - 1994، ص (28).

القوانين تحكم هذه السلوكيات: الحالة البدئية للنظام والاحتمالات الموضوعية، وشواش المراقب[21].

2 - **الموضوعية** (Objectivity): يتطلب هذا المبدأ، من الباحث، الانطلاق من واقع الظاهرة والتجرد عن الذات بما تمثله من تصورات شخصية، لا يكون الواقع الموضوعي مصدرها، بل التصورات والرغبات والأماني الذاتية. وبتعبير آخر، على الباحث أن يحاول رؤية الواقع الموضوعي، كما هو، لا كما يرغب أن يراه، وخاصة فيما يتعلق بالنظم الديناميكية الطبيعية والاجتماعية وسلوكياتها المستقبلية، أما فيما يتعلق بالنظم المستحدثة (الصنعية: التقنية والاحتمالية)، فعلى الباحث أن يقوم بعملية مقارنة ومقاطعة بين الإمكانات التنفيذية المتاحة والأهداف المراد تحقيقها.

وتتلخص الموضوعية في أمور كثيرة أهمها: العلمية والمنطقية والرؤية الواضحة للظروف البدئية للنظام والحيادية، وإمكانية التنبؤ ومدى مصداقية التنبؤات بالحالة المستقبلية للنظام.

3 - **الشمولية** (Overall, Global): يقضي هذا المبدأ الأخذ بعين الاعتبار جميع جوانب النظام وأبعادها من حيث المكونات: العناصر، العلاقات، الخصائص، الوظائف، الغايات والأهداف وعلى الخصوص العوامل الداخلية، المنفرزة (Exogenous) منها والمنبثقة[22] (Endogenous)، والخارجية البيئية والحالة البدئية والاحتمالات الموضوعية، التي تحدد سلوك النظام والوقوف على علاقاته السببية وكيفية وأشكال تأثيرها على بعضها البعض، وحصر جميع البدائل السلوكية الممكنة للنظام، **تحقيقاً للنظرة الكلانية الشمولية**.

4 - **التاريخية** (Historical): تتصف النظم، وعلى الخصوص، النظم الديناميكية المعقدة (نظم إدارية، اقتصادية، سياسية،

(21) - حول القانون، الحالة البدئية، الاحتمالات الموضوعية، علاقات التغذية الاسترجاعية، الضرورة والصدفة، التحديد والشواش، النظام والفوضى، العشوائية، راجع **بحثنا: السببية والارتياب**، مرجع سابق.

(22) - منفرز ومنبثق: مصطلحان يستخدمان في مختلف فروع المعرفة لتوصيف العوامل الداخلية للنظام، من حيث مكان نشوئها واتجاه حركتها.

Exogenous - المنفرز: جاء هذا التعبير من البيولوجيا ومن ثم عمم للتعبير عن العوامل التي تنشأ أو تتولد على سطح النظام وتتجه بفعلها أو تأثيرها نحو الداخل (نحو أعماق النظام).

Endogenous - المنبثق: تعبير فيزيولوجي، لقي استخداماً واسعاً في الجيولوجيا ومن ثم عمم للتعبير عن العوامل التي تتولد في أعماق النظام وتتجه بفعلها وتأثيرها نحو سطحه.

اجتماعية، ثقافية، علمية...)، بالصفة التاريخية. ولا يمكن فهم هذه النظم وكيفية تكونها والتنبؤ بسلوكيتها إلا في سياق تطورها التاريخي، تحت تأثير قوانينها الداخلية وظروفها البيئية. لذلك كان من الضروري الأخذ، أحيانًا، بالمدخل التاريخي - النظمي في دراسة النظام وتحليله لأن الوعي التاريخي بالظاهرة، كما يؤكد ستيفن كولمان وميشيل بولاني، قوة فاعلة وناجزة، لا بد من أخذها بعين الاعتبار[23]. وهذا يعني دراسة سلوك النظام خلال مدة تاريخية منصرمة من عمره.

5 - **التجريد** (Obstruction): تتداخل النظم بعضها مع بعض في المكان والزمان، كما تتداخل عناصرها وعلاقاتها وتتشابك. ولدراسة أي نظام (أو عنصر) لابد من عزله. يقول غاليلو غاليلي: «كلما كان بالإمكان عزل جزء من العالم الفيزيائي عن التأثيرات المحيطة به، كان ذلك الجزء حر التصرف بأسلوب بسيط للغاية»[24] وهذا ينطبق على مختلف مواضيع المعرفة البشرية. ويستحيل، في الحياة العملية أحيانًا، عزل النظم (أو العناصر) فيزيائيًا عن بعضها البعض، لذا كان لا بد من تجريدها وعزلها ذهنيًا. ويتم تجريد النظم أو العناصر وعزلها بالتصور الذهني ونماذج المحاكاة وذلك تبعًا لهدف البحث وخصائص النظام والإمكانات التقنية المتاحة.

6 - **التبسيط** (Simplification): مبدأ أساسي من مبادئ تحليل النظم، بل من مبادئ البحث العلمي على العموم، بدونه يصعب الوقوف على خصائص وسلوكيات النظام وآليات عمله. ولولا التبسيط لعجز الناس عن معرفة أي شيء، وخاصة ما يتعلق بالظواهر المعقدة. يقول بول ديفيس: «إن الاعتقاد بوجود البساطة في صميم التعقيد، كان الحافز القوي وراء الفضول العلمي الذي استمر طويلاً وما يزال قائمًا حتى الآن»[25] ويتلخص التبسيط في عمليات الكشف عن الجوهري، الأساسي والضروري من بين عناصر النظام وعلاقاته وخصائصه وأهدافه.

7 - **التدرجية** (Hierarchy): خاصية عامة من خصائص النظم، كلما كبر النظام وتعقد اتضحت هذه الخاصية وارتفعت درجة تدرجيتها. وتحليل النظام الذي

(23) - د. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص (442-443).

(24) -بول ديفيس: مرجع سابق، ص (25).

(25) - المرجع السابق، ص (25).

ينصرف أساساً إلى تحليل النظم الكبيرة والمعقدة(big and complex systems)، ويتلخص، كما أشرنا أعلاه، في عملية تفكيك النظام إلى نظم جزئية وعناصر، وتتبع سلسلة أو شجرة أو شبكة من العلاقات السببية والوجودية، لا بد أن يخضع، أيضاً، لتدرجية معينة. بمعنى أن عملية تحليل نظام ما، لا بد أن تنجز على مراحل، تحددها تدرجية النظام وبنيته الهيكلية وأهداف البحث.

طرق وتقنيات تحليل النظم

يفيد تعبير طريقة (Method) مجموعة الخطوات المترابطة والمتسلسلة وراء بعضها البعض الواجب اتباعها في تحليل النظام قيد البحث. تقوم بشكل أساسي على النظريات العلمية التي تم اختبارها والتأكد من صحتها أو فاعليتها في الحياة العملية. وتتكون الطريقة من مجموعة من القواعد والتقنيات (tech-niques) الفنية والمنطقية والرياضية. وتحليل النظم كأسلوب عام ذو طابع شمولي، يستخدم كافة الأساليب والطرق والتقنيات العلمية المعروفة في البحث العلمي، والتي يمكن إجمالها في التجربة والاختبار، التحليل الكيفي (اللاكمي) - المنطقي، والتحليل الكمي: الرياضي والإحصائي، وطرق البحث الاستكشافية - الإبداعية.

طرق وأساليب التحليل الكيفي (اللاكمي Nonquantitative Methods-): وهي مجموعة من الطرق أو الأساليب التي تتناول دراسة الظاهرة من جوانبها الكيفية، غير القابلة للقياس الكمي، أو التي لا تحتاج إلى قياس كمي ومن أهم هذه الطرق: طريقة الحدس الشخصي - Instinct Method، الطريقة البيانية Graphic Method- (الرسوم، المنحنيات، الخرائط، **الأشجار البيانية**) أسلوب علامة الخبير - Expert Mark Method، ويضم هذا الأسلوب عدداً من الطرق (طريقة: المقابلة الشخصية - Interview Method، طريقة البطاقة- Application Method، طريقة دلفي - Delphy Method، العاصفة الذهنية- Brain Storming، المناقشة الجماعية- Mutual Discussion)، الأسلوب الوصفي - Describtional Method، ومنه طريقة القائمة (قائمة المراجعة، قائمة الأفضليات، وصف الحالة، التصنيف، أساليب النمذجة والمحاكاة - Modeling and Simulation Methods، غير الكمية، ومنها نماذج المحاكاة

الفيزيائية، أسلوب الصندوق الأسود (Black Box Method).

طرق وأساليب التحليل الكمي

(Quantitative Methods): وهي مجموعة من الطرق والأساليب التي تتناول دراسة الظاهرة من جوانبها الكمية، أي تلك الجوانب التي يمكن التعبير عنها بعلاقات قابلة لإجراء الحساب الكمي عليها والتعبير عنها برقم. تضم الأساليب الكمية كافة الأساليب والطرق الرياضية والإحصائية - Mathematical and statistical methods، الخاصة والعامة، وعلى الخصوص التحليل الرياضي - Mathematical Analysis، أساليب بحوث العمليات - Operations Research، أساليب القياس الإحصائي - ومنها القياس الحيوي - Biometrics، القياس الاقتصادي - Econometrics.

وبصدد الحديث عن طرق وتقنيات تحليل النظم نرى من الضرورة الإشارة إلى ما يلي:

- يحتاج تحليل نظام ما، على الغالب، إلى استخدام أكثر من أسلوب واحد أو طريقة واحدة (منظومة طرق وأساليب). في نفس الوقت يمكن استخدام أكثر من أسلوب واحد أو طريقة واحدة في تحليل ودراسة هذا الجانب أو ذاك من موضوع البحث. ولكل حالة، وحسب طبيعة الموضوع وخصوصياته وإمكانيات إنجاز البحث وخاصة من الناحية العملية أو المعلوماتية، لا بد من المفاضلة بين مختلف أساليب وطرق البحث واعتماد الأسلوب أو الطريقة المناسبة لكل جانب من جوانب الموضوع وفي كل مرحلة من مراحل البحث.

- صنفنا طرق تحليل النظم بموجب عدد من المؤشرات إلى عامة وخاصة، كمّية وكيفية، وهذا التصنيف فيه الكثير من التبسيط لأنه في الواقع العملي، تتداخل الطرق الخاصة مع الطرق العامة، كما تتداخل الطرق والأساليب والتقنيات الكمية مع الكيفية، حيث يحتاج الأمر هنا إلى استخدام الطرق الخاصة أحيانًا والعامة أحيانًا أخرى في تناسق منهجي مناسب، كما لا يمكننا الفصل التام خلال عملية البحث وتحليل النظام بين الطرق والأساليب والتقنيات الكمية والكيفية، فالكثير من الطرق الكيفية، تستخدم بعض الطرق الكمية أو القياسات الكمية، في حين لا يمكن للأساليب الكمية التعبير عن الجوانب الكمية للظاهرة إلا إذا عرفت بكيف، ولا يمكن للدراسات الكمية ان تقوم على الأرقام والمتغيرات والعلاقات الكمية

فقط إلا بعد التحليل الكيفي لها. وخلاصة القول سنضطر عند تحليل نظام ما، وخاصة النظم المعقدة موضوع تحليل النظم الأساسي، إلى استخدام مزيج من الطرق والأساليب والتقنيات الخاصة والعامة، الكمية والكيفية.

- تتوقف عملية اختيار منظومة الأساليب والطرق والتقنيات في كل حالة، وتوليفها مع بعضها البعض خدمة لأغراض البحث على عدة عوامل منها: اجتهاد الباحث، طبيعة الظاهرة ونوعيتها، الظروف البيئية المحيطة بالظاهرة، كمية ونوعية المعلومات المتوفرة، الإمكانيات العملية المتاحة لإنجاز البحث (توفر الكادر، وسائط جمع المعلومات ومعالجتها...).

- في غالب الأحيان يحتاج تحليل نظام ما، إلى مجموعة خبرات، يمكن تأمينها من خلال تشكيل فرق عمل تضم خبراء باختصاصات معينة ومختلفة تغطي كافة جوانب البحث ومتطلباته، منها مايتعلق بموضوع البحث ومنها ما يتعلق بطرق البحث وتقنيات إنجازه.

ان التحليل الكيفي للنظام واستخدام الطرق الكيفية ضرورة لا بد منها، ولكنها غير كافية، إذ يحتاج تحليل النظام، على الغالب، إلى قياس متغيراته كمياً، بل إن الوقوف على خصائص النظام بشكل واف لا يمكن، إلا من خلال التحليل الكمي، أي باستخدام النماذج والطرق الكمية: الرياضية أو الإحصائية «لأن الرياضيات هي أداة إدراكنا... وهي، من بين الطرق التي نعرفها، الطريقة الأكثر فعالية ومصداقية لفهم ما نراه حولنا»[26]. «والصيغة الرياضية للقانون لا تقتصر على البساطة والشمولية فحسب، بل هي، وسيلة للتنبؤ»[27]. إلا أن الرياضيات التي قامت على التحديد التقليدي للفيزياء الرياضية، الذي كان له بالغ الأثر في المجتمع الإنساني، تقف عاجزة عن الإجابة على الكثير من الأسئلة وخاصة فيما يتعلق بالظواهر العشوائية. حيث يتطلب الأمر في مثل هذه الحالات استخدام الطرق الإحصائية. فللكشف عن انتظام سلوك الظواهر العشوائية، لا بد من الأخذ بمبدأ الارتياب والدخول مدخلاً إحصائياً. «إن أي انتظام في سلوك تجمع كبير من الجسيمات أو الناس، يجب أن يكون

(26) -ايان ستيوارت: من يلعب النرد (الرياضيات الجديدة للظواهر العشوائية) الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - 1994 ص (15).

(27) - بول ديفيس: مرجع سابق، ص (26).

إحصائيًا وله طعم فلسفي مختلف تمامًا[28].

- إن عملية تحليل النظم عملية معقدة بحد ذاتها، يحتاج إنجازها، إلى جانب ما أشرنا إليه أعلاه، إلى معالجة كمية كبيرة من المعلومات، يصعب أحيانًا، ويستحيل أحيانًا أخرى، إنجازها يدويًا. أو إن إنجازها يدويًا يستغرق وقتًا طويلاً وجهدًا بشريًا كبيرًا، يفقد نتائج البحث مضمونه أو معقوليته الاستراتيجية، نتيجة للتغيرات الحاصلة في النظام، إبان إنجاز البحث. أو يفقد البحث معقوليته الاقتصادية، نتيجة للنفقات الكبيرة المترتبة على البحث. فعملية البحث العلمي على العموم، وهنا، تحليل النظم على الخصوص، يجب أن تخضع للمعايير الاقتصادية المالية والزمنية والاستراتيجية لذلك كان من الضرورة الاقتصادية والاستراتيجية، أتمتة عملية تحليل النظم، باستخدام أفضل التقنيات المتاحة (حواسيب وبرمجيات اقتصادية، ذات كفاءة مناسبة).

- يواجه الباحثون الكثير من المشكلات والمسائل، التي يصعب أو يستحيل حلها بالطرق الكمية أو الكيفية المعتادة، التي تعتمد على منهجيات وخوارزميات محددة ومعروفة. لذا يلجأ الباحثون إلى وضع وإتباع طرق إبداعية خاصة بكل مسألة من المسائل المراد حلها، عن طريق استكشاف خصائص المسألة المطروحة. عرفت هذه الطرق بالطرق الاستكشافية.

الطرق الاستكشافية

(Heuristical Metnods)

عبارة عن مجموعة غير محددة من الطرق الإبداعية الفردية الخاصة، توضع لحل مسألة مابعينها، **تعتمد على الحدس الشخصي**: الفردي أو **الجماعي**.

يعتمد الحدس الفردي على رصيد الباحث المعرفي وإمكاناته الإبداعية الذاتية، في حين يعتمد الحدس الجماعي على تلاقح أفكار مجموعات العلماء والخبراء وفرق البحث، وتفاعلها مع بعضها البعض، من خلال أطر تنظيمية ملائمة لطرح الأفكار ومناقشتها. ومن أهم الأشكال التنظيمية لإدارة عمليات الحدس الجماعي، طرق استقصاء الخبراء وعلى الخصوص: طريقة البطاقة، العاصفة الذهنية، المناقشة الجماعية المنوه عنها أعلاه[29].

(28) -إيان ستيوارت: مرجع سابق، ص (43).

(29) - حول علم الاستكشاف (Heuristics) والبحث الاستكشافي (Heuristic)، انظر: القاموس الموسوعي الفلسفي، إصدار «الموسوعة السوفيتية»، موسكو - 1983ص (786-787) (لغة روسية) ود. معن النقري: البحث والاكتشاف علمًا وتعلمًا وطريقة ونشاطًا، ملحق جريدة تشرين «مدارات تشرين» العدد (33) دمشق - 2001/6/2، ص (7).

المراجع والمصادر

1 - ألفن توفلر: حضارة الموجة الثانية، الطبعة الثانية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية الليبية، مصراته - 1990.

2 - إيان ستيوارت: من يلعب النرد (الرياضيات الجديدة للظواهر العشوائية)، الطبعة الأولى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - 1994.

3- بول ديفيس: العوالم الأخرى (صورة الكون والوجود والعقل والمادة والزمن في الفيزياء الحديثة)، الطبعة الثانية، دار طلاس للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق - 1994.

4 - د. شمس الدين عبد الله شمس الدين: النظرية العامة للنظم (مفاهيم ومقولات وقضايا أساسية)، مجلة المعرفة، العدد (434)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق - 1999.

5 - د. شمس الدين عبد الله شمس الدين: نظرية المعلومات (مفاهيم ومقولات وقضايا أساسية)، مجلة المعرفة، العدد (450)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق - 2001.

6 - د. شمس الدين عبد الله شمس الدين: السببية والارتياب (الأسس العلمية والفلسفية)، مجلة المعرفة، العدد (457)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق، 2001.

7 - غلوبكوف، ي.ب.: تحليل النظم في إدارة الاقتصاد الوطني، إصدار «مينخ»، موسكو- 1975، (ل.روسية).

8 - فريتجوف كابرا: انبثاق التفكير المنظوماتي، ترجمة د. معين رومية، مجلة المعرفة، العدد (456)، وزارة الثقافة في ج.ع.س. دمشق 2001.

9 - القاموس الموسوعي الفلسفي، إصدار الموسوعة السوفيتية، موسكو - 1983 (ل.روسية).

10 - ماريو بونغ: السببية والتفسير العلمي، مجلة المعرفة، العدد (448)، وزارة الثقافة في ج.ع.س، دمشق - 2001.

11 - د. معن النقري: البحث والاكتشاف علماً وتعلماً وطريقة ونشاطاً، جريدة تشرين، ملحق «مدارات تشرين» العدد (33) دمشق - 2001/6/2 (7).

12 - منير بعلبكي: المورد (قاموس مزدوج، إنكليزي - عربي، عربي- إنكليزي) دار العلم للملايين، بيروت - 1998.

13 - د. يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين (الأصول - الحصاد- الآفاق المستقبلية)، عالم المعرفة (264)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت - 2000.

14 - New English - Russian Dictionary, Russian Languag, Moscow- 1979.

تجسيد المجتمع الدولي

موسى الزعبي *

عصبة الأمم، المنظمة الدولية الأولى، ذات البعد العام، وذات النزعة الشاملة[1]:

تنطوي فكرة هذه المنظمة، على مشاريع مخصصة لترسيخ سلام دائم «الفصل الأول». ويعود الفضل لوضع أسس عصبة الأمم، إلى رجلين سياسيين، اللذين كوفئا بمنحهما جائزة نوبل للسلام، في العامين (1919) و (1920)، وهو الفرنسي، ليون بورجوا LÉON BORGEOIS، من أنصار التضامن الدولي، عندما تخيل مشروع عصبة الأمم، في كتاب نشر عام (1910)، تحت عنوان: «من أجل مجتمع للأمم». والثاني، هو الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون WODROW WILSON، في نقاطه الأربع عشرة المقترحة بتاريخ (9) كانون الثاني، عام (1918)، حيث أدرك تجسيد هذه الفكرة، بقوله: «يجب أن تشكل جمعية عامة، بمقتضى مواثيق قطعية، يكون هدفها، تقديم ضمانات مشتركة

(*) موسى الزعبي: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية الدراسات والبحوث. من مؤلفاته: «كي لاننسى التاريخ».

بالاستــقــلال الســيــاســي، ومن أجــل السلامة الإقليمية، سواء للدول الصغيرة، كما الكبيرة».

ثم جـرى التـفـاوض بشـأن مـيـثـاق عصبة الأمم في مؤتمر السلام الذي انعقد في باريس عــام (1919). وقــد أدمج في العديد من مواثيق السلام التي عقدت مع الدول المهـزومـة. وأصـبـح الميـثـاق سـاري المفعول بتاريخ الـ (10) من كانون الثاني، عام (1920). في الوقت نفسه، معاهداته الأولى، مــعــاهـدة فـرسـاي، التي حـددت شـروط الســلام بين ألمانيــا والحكومــات «الحليـفـة والمشـاركـة»[2]. وَوُسِمَت هذه الرابطة أو الجـمـعـيـة التي سُمِّيت عصبة الأمم "LA SOCIÉTÉ DES NATIONS" مع النظام الذي فُـــرِضَ على الدول المهزومة، بِعَيْبٍ وراثي، في الحال.

إذن، عصبة الأمم (SDC)، منظمة دولية، وأصبح لها مقرها في جنيف، حيث تمركـزت في البـدء، في الفندق الوطني، الذي أُعـيـد تـعـمـيـده، تحت اسم، قـصـر ويلسـون، ثم في عــام (1937)، في البناء الجديد كـقـصـر الأمم. وكان عـدد الدول الأعـضـاء (60) في عــام (1934)، ممثلة جميعها في الجمعية (ASSEMBLÉE) التي انطلقت لتـفـحـص المشـاكل الدوليـة ضمن ست لجان، هي: «سياسية، قانونية، تقنيـة، خـفض الأسلحـة، مـيـزانيـة المشاكل الاجتماعية والانسانية». كانت بداية الدورة السنوية للجـمـعـيـة في شـهـر أيلول، لوضع خطة كبرى في الحياة الدولية، خصوصًا من أجل النصف الثـاني من عـشـرينيـات القــرن العــشــرين (1920)؛ وقـام رؤســاء الدول أو الحكومـات، بنقلة نوعـيـة، فـقـد تبنت الجمعية، وبالاجماع، توصيات وحلول، لكن لم يكن لها صفة الإجبار، حيث كانت الكفاءة، فيها تعني أن لها بعداً عاماً.

وتم تشكيل مـجلس، من خـمـسـة أعـضـاء دائمين، في البـداية وأربعـة غـيـر دائمين[3]، وأصبح هذا المجلس، الوحـيـد، ذو الكفاءة، بالنسبة للقضايا الأكثر أهمية، التي ترتبط بالأمن الدولي «التـوفـيـق في حـالـة الخـلاف، طرد الدول التي تخـتـرق الميثاق، مـراقـبـة الانتداب، ونزع السـلاح»، وتتـخـذ قـرارات المجلس، لكن في حــال الخلاف، عندما تكون دول المجلس أطرافاً فيه لايحسب التصويت في هذه الدول.

وزودت عصبة الأمم، بأمانة دائمة، ووصل عـدد العـاملين فـيـهـا (670)، أمـا الميــزانيــة، فكانت أدنى من (10) مــلايين دولار. وكانت الأمانة العامة موضوعة تحت سلطة الأمين العام، الذي يعين من المجلس مع موافقة أغلبية أعضاء الجمعية.

عـصـبــة الأمم، كـانت المحـاولة الأولى التي استهدفت إنشاء نظام أمن جماعي:

يعني الأمن الجماعي، بأن الأمن لم يعـد يواجـه بطريقـة وحـيـدة، هـي الدفـاع،

الفردي أو الجماعي، بل عن طريق نظام شامل. وإن السلامة الإقليمية، والاستقلال السياسي للدول، هي المبادىء التي يجب أن يقوم عليها أمن الدول «المادة 10» من الميثاق، كما أن العلاقات بين الدول» محددة بالقانون. بعبارة أخرى، حسب قواعد، قُبِلَتْ من قبل الجميع، إذن، استهدف الأمن الجماعي، السلام عن طريق القانون» ونتيجته الطبيعية، تضامن الجميع، ضد المعتدي، وهذا ما يمكن تلخيصه بالصيغة «الواحد للجميع، والجميع ضد الواحد».

ويطرح ميثاق عصبة الأمم، أسس نظام أمن جماعي فعال، دون أن يمنع الحروب. كما أنه يحاول توقعها، وذلك بالاعتماد على طرق تسوية سلمية للاختلافات. وتتوقع المادة (16) ردا جماعيًا ضد الدولة المعتدية، تحت شكل عقوبات اقتصادية وسياسية، وحتى عسكرية. وجرى العمل على تشجيع الحد من التسلح، في حين كان يجب إقامة شفافية في هذا المجال. كما يجب أن تكون منشورة في سبيل أن تتوقف الدبلوماسية السرية، كما كان يتمنى ويلسون، حسب أولى وجهات نظره في نقاطه الـ (14). وأُعِدَّ نظام وصاية، من أجل إدارة مستعمرات البلدان المنهزمة، وعلى البلدان المنتدبة «واجبات مخصصة للعمليات الحضارية»، بهذا الخصوص.

شكلت عصبة الأمم، قطب النظام الشامل لمنظمات دولية، آنذاك:

إذ تصبح جميع المكاتب الدولية المقامة سابقًا، أو تُنشأ لاحقًا، كمعاهدات جماعية، مربوطة بعصبة الأمم، وتوضع تحت تصرف «سلطة الجمعية»، وذلك طبقًا لتعبيرات المادة (24) من الميثاق. يضاف إلى ذلك، جرى إقامة مؤسستين جديدتين:

- منظمة العمل الدولية: أسست كما هي حال عصبة الأمم، عن طريق معاهدة فرساي «الفصل الثامن»، واستهدفت إقامة «نظام عمل إنساني حقًا»، في سبيل «السلام والإنسجام الشامل»، وتشتمل على مؤتمر عام، ومجلس إداري، و«مكتب دولي للعمل»، تحت إشراف مدير عام. وأصبحت منظمة العمل الدولية، مكلفة بإعداد «معايير دولية للعمل» والتي يجب على الدول العمل على تطبيقها، عندما تصبح مقبولة من طرفها. وكان التمثيل للدول، ثلاثي الأطراف: عن طريق ممثلين حكوميين، وممثل عن العمال، وممثل عن المستخدمين.

- نظام محكمة العدل الدولية:

تم تبنيه من قبل جمعية عصبة الأمم بتاريخ (20) كانون الأول عام (1920)، وجرى تدشينها في شباط (1922). واستقرت في قصر السلام في لاهاي، وهي ذات صلاحيات قضائية دولية، من الدرجة الأولى، وذات نزعة شاملة، وكلفت بالتعرف

على الخلافات الدولية، عندما تخضعها الأطراف في هذه الخلافات للنظر فيها، وإعطاء الرأي الاستشاري، بناء على طلب المجلس أو الجمعية. وقد أجرت تفسيرًا دوليًا، لبعض القوانين، حيث أُنشئت من أجلها، ضمّ (37) قرارًا قضائيًا و(28) رأيًا استشاريًا، خلال الفترة، مابين الحربين العالميتين.

- لكن لم تصمد عصبة الأمم أمام صعود التوترات الدولية، في ثلاثينات القرن العشرين، على الرغم من النجاحات التي حققتها في عشرينياته (1920): فلقد دمّر مجلس الشيوخ الأمريكي عصبة الأمم بالضربة القاضية، منذ عشرينيات القرن العشرين (1920)، وذلك برفضه التصديق على معاهدة فرساي، على الرغم من الجهود التي بذلها الرئيس ويلسون. وستصبح الولايات المتحدة هي الرابعة خلال فترة مابين الحربين العالميتين، وذلك باتباع النزعة الإنعزالية المتزايدة، هذه العزلة، هي التي منعتها من قطع الطريق على ألمانيا واليابان بشكل مبكر، على نحو كاف.

لقد نظمت عصبة الأمم، العودة للسلام في السنوات المضطربة، التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الأولى، فقامت بتسوية النزاعات الحدودية بين ألمانيا وبولونيا، في «سيليسيا العليا وبروسيا الشرقية»، ومابين السويد وفنلندا، «بشأن جزر آالاند (AALAND)»، ومابين اليونان وبلغاريا عام (1925) ومابين كولومبيا والبيرو عام (1934). وحقق الأمن الجماعي عندئذ تقدمًا كبيرًا، وذلك بتحقيق، معاهدة لوكارنو- المعقودة بين ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وإيطاليا والمملكة المتحدة- ضمنت الحدود الغربية لألمانيا عام (1924). ودخلت ألمانيا عصبة الأمم عام (1926) ومنعت الحرب عن طريق ميثاق بريان- كيلوغ -BRIAND KELLOGG، وجرت عملية تحكيم، التي أصبحت إجبارية عام (1928).

ونجحت عصبة الأمم في تنظيم العلاقات الدولية، في الوقت نفسه، بإدارة الانتدابات، وذلك بوضعها تحت نشاطها «الفصل الثالث» وتبويب القانون الدولي، حيث خطا خطواته الأولى في مؤتمر لاهاي عام (1930)، وحتى ولو لم تتوصل عصبة الأمم إلى تشكيل اتحاد للمنظمات الدولية المنوعة حيث أنها أنشأت لجانًا تقنية في العديد من المجالات، مثل: الاتصالات، الصحة، مراقبة المخدرات... الخ. كما جرى تعيين مفوض عام، من أجل الاهتمام بمشاكل اللاجئين، منذ عام (1921)، وبمساعدة لجنة من بين الحكومات، ولجنة استشارية من المنظمات الخاصة، ودعت الجمعية إلى مؤتمرات اقتصادية في

الأعـــوام (1920)، (1927)، (1933). وكانت خطوة دعت إلى ضرورة الاهتمام الدولي بالمشاكل الإقتصادية والإجتماعية. وضمنت عصبة الأمم، الإستقرار النقدي في عـدة بلدان أوربيـة من بلدان أوربا الوسطى «النمسا عام (1922) المجر عام (1924)، بلغاريا عام 1926. كما جرى إنشاء «لجنة مركزية» عام (1939) لتنسيق نشاط اللجان المتنوعة في المجالات الإقتصادية والإجتماعية.

وخضعت عصبة الأمم لامتحان صعب، بسبب الأزمة الاقتصادية الدولية، وتسنم الدول المطالبة بمراجعة معاهدة السلام، زمام الأمور. ثم اجتاحت اليابان منشوريا باستخدام القوة عام (1931)، وأدينت من قبل عصبة الأمم بسبب ذلك. ثم تنسحب من المنظمة عام (1933)، ثم تنسحب ألمانيا الهتلرية في العام نفسه، بعد أن عرقلت أعمال مؤتمر نزع السلاح. وتجدُ إيطاليا نفسها، أنها كانت البلد الأول الذي تطبق عليه عقوبات اقتصادية، حيث انطلقت بهجوم على أثيوبيا في نهاية عام (1935)، لكن افتقرت تلك العقوبات إلى الفعالية. «حيث كانت اختيارية، ولم يكن التزود بالنفط مدرجًا في لائحة العقوبات». وقد رُفعت بسرعة، بعد الإنتصار الإيطالي. ولم يكن لها من تأثير آخر، سوى دفع موسوليني للتقارب من هتلر.

وعلى الرغم من دخول الإتحاد السوفياتي عصبة الأمم عام (1934)، فلم تحدث معارضة أو مقاومة جدية لمواجهة المشروع الألماني في تدمير نظام فرساي: وذلك بالعودة إلى نظام خدمة العلم في آذار عام (1935)، وإعادة عسكرة ريناني في آذار (1936)، تم ضم النمسا عام (1938)، وضم السويد في أيلول (1938) «بعد اتفاقيات ميونيخ، التي عقدت قسرًا»، تم غزو بوهيميا- مورافيا في آذار (1939). وانسحبت إيطاليا من جانبها من عصبة الأمم عام (1937)، وضمت ألبانيا في نيسان (1939). ثم تخلى الاتحاد السوفياتي وتحالف مع ألمانيا الغازية، من أجل تقطيع بولونيا «الميثاق الألماني- السوفياتي في آب (1939)، في الوقت الذي خضعت فيه الدول الغربية للتشدد في آخر الأمر. وتبدأ الحرب العالمية الثانية، منذ عام (1937) في آسيا، بالهجوم الياباني ضد الصين. وفي عام (1939) في أوربا، بغزو بولونيا من قبل ألمانيا.

وخُذلت عصبة الأمم، نتيجة ضعف الدول في مواجهة تلك الظواهر. ولم يعد أحد يعتمد على عصبة الأمم، وكان من الأسباب الهامة لذلك، عدم التوازن بين الأعضاء الدائمين، والأعضاء غير الدائمين، من واقع غياب الولايات المتحدة،

والانسحاب اللاحق للعديد من الدول الكبرى، وجعل مُتَطلَّب الإجماع في اتخاذ القرارات، مما جعل كل ذلك، المنظمة، عاجزة عن التحرك بحرية، وبدلاً من استغلال الآلية الخاصة بـ «العقوبات الاقتصادية». فضلت الدول، الإلحاح على احترام عصبة الأمم «لصلاحياتها المطلقة»، التي تحددها «المادة (8515) من الميثاق، ولم تنجح عصبة الأمم بإقامة نظام أمن جماعي فعال، بسبب عدم كفاية آليات عملها دون شك، بل أيضًا لأن الأمن لم يُحدَّد إلا فيما يتعلق بالسياسة، وبأن الاقتصاد كان مهملاً تمامًا.

وكان العمل السياسي الأخير لعصبة الأمم، هو طرد الإتحاد السوفياتي من المنظمة في كانون الأول (1939)، كرد فعل على العدوان السوفياتي ضد فنلندا. واجتمع بشهر نيسان (1924)، (34) عضوًا، من مجموع (56) عضوًا، الأعضاء في عصبة الأمم، في جنيف، رسموا الموقف القانوني للمنظمة وقرروا تحويل موجوداتها وأموالها، لمنظمة الأمم المتحدة (ONU).

2- يُحدِّد منظمة الأمم المتحدة، أسس الأمن الجماعي: لقد استخلص مؤسسو منظمة الأمم المتحدة، العبر والدروس، من فشل عصبة الأمم، وجددوا أسس الأمن الجماعي، وبحثوا عن أسباب عدم فعالية آليات عصبة الأمم، وفشلها.

- لقد صممت منظمة الأمم المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية: فبعد أن حققت ألمانيا نجاحات صاعقة في حربها في أوربا «غزو البلدان السكاندينافية» وفرنسا، وبلدان البنلولوكس (هولاندا، بلجيكا، كوكسمبورغ) ثم البلقان، وجزءًا من الاتحاد السوفياتي، عندها أخذت الولايات المتحدة تخرج من عزلتها وحيادها، شيئًا فشيئًا، وتدعم الكفاح الذي كانت تديره المملكة المتحدة والإتحاد السوفياتي. وقد حدد الرئيس الأمريكي، فرانكلين روزفلت، في الخطاب الذي ألقاه في مطلع عام (1941) أمام الكونجرس «مبادئ الحرية الأربعة»، وهي «حرية الكلام، حرية العبادة، التحرر من الخوف، التحرر من الفاقة»، ثم حرية التعبير والاعتقاد.

ميثاق حلف الأطلسي: جرى تنبيه، على أثر اللقاء بين روزفلت وتشرشل في آب (1941)، وتم ذكر أسس السلام في المستقبل بصورة خاصة، وكذلك، حق تقرير المصير، وحرية التجارة، والانعتاق من الخوف، ومن الفاقة، وحرية البحار، والتخلي عن العنف، ونزع السلاح، وجرى بحث فكرة إنشاء منظمة دولية جديدة، بصورة تلميحية جدًا، على الرغم من إلحاح تشرشل على ذلك.

ثم تبنت (26) دولة، بتاريخ الأول من كانون الثاني عام (1942) في واشنطن «بيان الأمم المتحدة»، «بما في ذلك عدد من البلدان المحتلة من قبل ألمانيا النازية»، وذلك على أثر الهجوم الياباني على بيرل هاربور. ووقعت على أهداف ميثاق حلف الأطلسي، «مقتنعة أن النصر التام آت حتمًا، وإنه ضروري من أجل الدفاع عن الحرية والحياة، وعن الاستقلال والحرية الدينية، وفي المحافظة على حقوق الإنسان والعدل»، والتي هي ملتزمة الآن بالكفاح المشترك ضد القوى البربرية والشراسة بحثًا عن قهر العالم». وتؤكد بأنها ستقود الصراع حتى النهاية دون هدنة، ودون سلام منفصل، وتضمن التعاون بين الحلفاء، أثناء جميع الأعمال الميدانية، مع دبلوماسية مؤتمرات، خصوصًا بين القوى الرئيسة، والحق يقال، إن أبرز الاجتماعات الرئيسة كانت بمشاركة رؤساء الدول والحكومات، على شكل لقاءات ثلاثية الأطراف، كما حدث في طهران في نهاية عام (1943)، وبالطا وبتسدام عام (1945).

وصممت منظمة الأمم المتحدة (ONU) مابين الأعوام (1943-1945)، مع «ضرورة إقامة منظمة دولية، بهدف المحافظة على السلام والأمن الدوليين، وبالسرعة الممكنة، مع تحقيق مبدأ المساواة التامة لجميع الدول المسالمة، وهي مفتوحة لجميع الدول». وقد جرى التأكيد على ذلك في المؤتمر (5) الذي انعقد بحضور أربعة وزراء خارجية في موسكو في تشرين الأول (1943). وتأكد ذلك في قمة طهران في تشرين الثاني من العام نفسه. وسمح مؤتمر «دومبارتون واكس DUMBARTON OAKS»، في أيلول - تشرين الأول (1944)، في الدول الثلاث، مع الصين، في إعداد مشروع منظمة. ويقرر مؤتمر يالطا، إعطاء ثلاثة مقاعد للإتحاد السوفياتي في الجمعية «واحد للإتحاد، وآخر لبيلاروسيا، وثالث لأكرانيا، ويتبنى حق النقض بالنسبة للأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن».

وافتتح مؤتمر سان فرانسيسكو في نيسان (1945)، وهو المؤتمر التأسيسي لمنظمة الأمم المتحدة، وانتهى بالتوقيع على الميثاق بتاريخ (26) حزيران (1945)، من قبل (47) دولة، وقعت جميعها، على تصريح الأمم المتحدة لعام (1942)، ويدخل الميثاق محل التنفيذ في (24) تشرين الأول. وقد تألف من (111) مادة. وكذلك من ملحق «كجزء مكمل للميثاق، الذي يقضي بتشكيل محكمة العدل الدولية، وتقرر الجمعية العامة، بأن تكون نيويورك مقرًا للمنظمة، وذلك في شباط (1946).

- ايديولوجية الأمم المتحدة، مستوحاة من صراع الحرية ضد البربرية: وتعبر عن ذلك، الديباجة، في الفقرتين الأوليتين للميثاق. وتؤكد الديباجة على أن شعوب الأمم المتحدة، مصممة على «صيانة أجيال المستقبل من مصيبة الحروب». وتعلن عن اعتقادها في «المساواة في الحقوق رجالاً ونساءً، وكذلك الشعوب، الكبيرة والصغيرة، وتنتظر التشجيع على التقدم الإجتماعي والحرية».

- وتذكر المادة الأولى من الميثاق، أهداف الأمم المتحدة بالتالي: الأمن الجماعي، «بعبارة أخرى، رد الفعل الجماعي ضد الدولة التي تهدد السلام والأمن الدولي» ومساواة الشعوب، والتعاون الدولي، بهدف التقدم الاقتصادي والإجتماعي واحترام حقوق الإنسان، والحريات الأساسية.

- وتذكر المادة الثانية: مبادئ المساواة التامة بين الدول الأعضاء واحترام التزامات الميثاق، والتسوية السلمية في الخلافات الدولية، والتخلي عن العدوان، ولجوء الدول الأعضاء لمؤسسات المنظمة، واحترام السلام، والأمن الدولي من قبل الدول غير الأعضاء، وعدم التدخل، ومن الطبيعي، أن تكون هذه التصريحات مرتبطة بعلاقة مع سياسات الدول الموقعة في تلك الحقبة.

- وجرت إعادة صياغة أسس الأمن الجماعي بالنسبة لنظام عصبة الأمم: فإذا كان ميثاق الأمم المتحدة، قد استوحيَ من ميثاق الأطلسي بشكل كبير، فإنه تراجع عنه في ثلاث نقاط: فهو لم يتحدث عن ضرورة نزع السلاح بشكل أكثر، كما أنه لم يأت على ذكر مبادئ حرية التجارة، وحرية البحار. وهو يؤكد مبدأ عدم التدخل. في حين أن الدول، كونها وقعت على تصريح الأمم المتحدة، فإنه من المنتظر المحافظة على حقوق الإنسان والعدل في «بلادهم الخاصة، وكذلك في البلدان الأخرى».

مع ذلك، جرى الاحتفاظ بدروس عدم فعالية عصبة الأمم. وهذا مما أدى إلى إعادة بناء نظام أمن جماعي حقيقي، واستسلام أصحاب الرأي للمبادئ المجردة للميثاق.

- القانون هو شرط لازم للنظام: الميثاق هو نظام قضائي، كما أنه عمل بناء بالنسبة للمنظمة الدولية، حيث يستند الأمن الجماعي على مبدأ «السلام»، و«القانون»، بحيث أن قانون الأمن الدولي، هو اليوم، قانون الأمم المتحدة بالكامل. فالعدوان ممنوع في العلاقات الدولية، وإن اللجوء للقوة مؤطر في «الفصل السادس» بدقة. وإن تطوير قاعدة القانون في العلاقات الدولية، هو نتيجة عمل محكمة

العدل الدولية، وفي نشاطها سواء من الناحية القضائية أم الاستشارية. وإن لجنة القانون الدولي، هي منظمة مساعدة للجمعية العامة، وهي مكلفة بتدوين القوانين، وتطوير القانون الدولي «الفصل الثاني»، وإن حق الشعوب، في أن تحمي نفسها بنفسها، مؤكد من قبل الميثاق، وقائم قضائيًا في مجال نزع الاستعمار «الفصل الثالث». ويرجع موضوع الشمولية لحقوق الإنسان من واقع منظمة الأمم المتحدة.

- جرى إهمال البعد الإقتصادي والإجتماعي والأمن الجماعي، في ميثاق عصبة الأمم، وأصبح يشغل مكانًا هامًا بالنسبة للأمم المتحدة. تعتقد منظمة الأمم المتحدة، أن «السلام عن طريق الرخاء»، كما أن «السلام عن طريق القانون»، وأن التعاون الاقتصادي والإجتماعي، جميعها، هي الأهداف الخالصة لمنظمة الأمم المتحدة، «المقدمة ATT (1) و (2) المادة (55)، والتي تدعوا إلى طموحات أكثر دقة أيضًا: رفع مستوى المعيشة، والاستخدام الكامل، هي شروط التقدم والتنمية في النظام الاقتصادي والإجتماعي.

هذه الكفاءات واسعة جدًا، ومقسمة بين الجمعية العامة والمجلس الاقتصادي والإجتماعي والمؤسسات المتخصصة. كما تؤكد مقدمة الوثيقة الأساسية لليونسكو «المنظمة الدولية للتربية والعلوم والثقافة»، فهي في «ذهن الناس بأن عليها أن تصبح الوسيلة لسيرو دفاعات السلام». في الوقت نفسه، يؤكد بيان فيلادفيا، الذي يجدد في أيار (1944) للمنظمة الدولية للعمل، القول «إن الفقر، وحيثما وجد- يشكل خطرًا على رفاه الجميع».

ويلاحظ، أن الإيديولوجيا الليبرالية، وكذلك الإيحاءات الأنجلو سكسونية، كأنها تتمة لاتنفصل عن النظام الاقتصادي الجديد الذي الأمر في نصابه عام (1945)، ودون أن تجد مكانها في الميثاق حقًا. بالتأكيد لقد جرت معارضة مؤسسات بروتون- وودز- من قبل البلدان الاشتراكية، من ثم من قبل بلدان العالم الثالث، وهو الأمر الذي شكل العمود الثاني للأمن الاقتصادي «الفصل التاسع» إذا صح القول..

- ولدت منظمة الأمم المتحدة من الحرب، وأنشئت من أجل مكافحة الحرب، حيث أصبحت المحافظة على السلام والأمن الدولي، في قلب اختصاصاتها. مجلس الأمن، هو «المسؤول الرئيس» باسم المادة (24) من الميثاق. فالقوى من الأعضاء الدائمين في المجلس، لها الدور الرئيس في اللعبة، فهي المستفيدة. من جانب آخر، من حق النقض

في المجلس. وكان ذلك، على النقيض، مما كان عليه الأمر في مجلس عصبة الأمم، حيث كانت تؤخذ قراراته بالإجماع. إذن أصبح ذلك، كتعاون بين القوى، التي ينتظر الميثاق منها ضمان السلام الدولي.

بالنسبة إلى دور مجلس الأمن في حل النزاعات، فقد حُدِّد في الفصل السادس تحت عنوان «التسوية السلمية للخلافات» وهي محددة تمامًا. فللمجلس سلطة التحقيق «المادة (34)، بدعوة الأطراف، لتسوية خلافاتها «المادة 33» ويمكن أن يقدم توصيات بمبادرة منه «المواد 36 و 37» بناء على طلب الأطراف «المادة 38».

آليات القهر: محددة في الفصل السابع من الميثاق، تحت عنوان: «العمل في حال تهديد السلم، وفي تصدع الأمن، والقيام بأعمال عدوانية». حيث تعطى للمجلس سلطة هامة، فهو الذي يؤكد على وجود تهديد ضد السلم، أو على تصدع الأمن، أو عمل عدواني «المادة 39» ويطلب من أطراف المجلس اتخاذ إجراءات احتياطية «المادة (40) ويقرر أو يوصي بعقوبات (41) عقوبات اقتصادية، قطع جميع الاتصالات والعلاقات الدبلوماسية. وهنا تجد الدولة الخاضعة لمثل هذه العقوبات، نفسها، معزولة تمامًا على المسرح الدولي. أخيرًا، يمكن لمجلس الأمن اللجوء إلى استخدام القوة، وذلك بالمباشرة باستخدام القوة الجوية والبحرية أو البرية، وكل أعمال يعتقد أنها ضرورية من أجل المحافظة على السلم، أو من أجل إعادة إقامة السلام والأمن الدوليين «المادة 42». ويتوقع الميثاق إيجاد قوة تدخل دائمة: يجب على أعضاء المجلس أن تضع تحت تصرف المجلس، قوات مسلحة، طبقًا لاتفاقيات خاصة «المادة 43»، والمحافظة على قوات وطنية جوية في الحال، قابلة للاستخدام «المادة 45» وتشكل لجنة الأركان العامة من رؤساء أركان الدول الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن «يصبحون مسؤولين، تحت سلطة مجلس الأمن عن الإدارة الاستراتيجية لجميع القوى المسلحة الموضوعة تحت تصرف مجلس الأمن «المادة 47». وتتوقع المادة (106) في الميثاق، بأنه بانتظار دخول الاتفاقيات الخاصة المتوقعة في «المادة 43» موقع التنفيذ، وبتداول الأعضاء الدائمون الخمسة في مجلس الأمن «بهدف المباشرة بصورة مشتركة، باسم الأمم المتحدة بكل عمل، يمكن أن يصبح ضروريًا، من أجل المحافظة على السلم والأمن الدوليين».

لمجلس الأمن مسؤوليات رئيسة للمحافظة على السلم والأمن الدوليين المادة (24)، ولا تلعب الجمعية العامة

سوى دور هامشي؛ فليس للجمعية سوى سلطة البحث المادة (11)، لكن لايمكنها القيام بأية توصية حول خلاف ما «طالما أن المجلس يقوم بها (...) والوظائف المنوطة به هي الممنوحة، عن طريق الميثاق الحالي، «المادة 12».

وكذلك الأمر، باسم الأمن الجماعي، المكلفة به منظمة الأمم المتحدة، والخاص بنزع السلاح، عن طريق منظمة نزع السلاح، وهي منظمة مساعدة للجمعية العامة «الفصل العاشر».

3- منظمة الأمم المتحدة، هي منظمة عالمية (6): منظمة الأمم المتحدة، منظمة دولية، مثل المنظمات الأخرى، من وجهة نظر شكلية، مع ذلك، فلها نزعة شمولية. وبأن اختصاصاتها ليست محدودة، إلا في مجال الشؤون الداخلية للدول، حيث تجد نفسها في وسط «مَجَرَّة» من المنظمات المنضوية، التي تدور في فلكها.

- المنظمة الأمم المتحدة نزعة شمولية: الأعضاء الأصليون في المنظمة هم أولئك الذين وقعوا وصدقوا الميثاق «المادة الثالثة». في كانون أول، عام (1942)، أو شاركوا في مؤتمر سان فرانسيسكو. فالمنظمة مفتوحة «لجميع الدول المسالمة» التي تقبل ويمكنها أن تلبي التزامات الميثاق (المادة 44). وتسمح الجمعية العامة للدول الجديدة، بالانتساب إليها بتوجيه إلى مجلس الأمن.

في البداية، قادت الحرب الباردة، إلى وقف السماح بانتساب أعضاء جدد، بعد أن تجاوز عدد الأعضاء، من (51) عام (1946) إلى (60) عام (1951). ولم ينضم للمنظمة أحد حتى عام (1955)، التاريخ الذي سمح فيه بانتساب (16) دولة جديدة، منها «النمسا واسبانيا». وضاعف نزع الاستعمار عدد الدول الأعضاء، حيث أصبح (82) في نهاية عام (1958)، ثم (105) في نهاية عام (1961)، و (135) في نهاية عام (1973)، و (159)، في نهاية عام (1985). وسمح تفجير الكتلة الشرقية، بتجاوز المنظمة إلى (185) عضو بعد السماح لبالو (PALAU) عام (1994).

واصبحت جميع دول الكرة الأرضية ممثلة في منظمة الأمم المتحدة، باستثناء سويسرا «حيث رفض سكانها، الانتساب- بواسطة الاستفتاء في عام (1986)، بسبب وضع الحياد في هذا البلد. وتايوان «التي لم يعترف بها سوى من قبل عدد صغير من الدول». والكرسي الرسولي «الذي هو مع ذلك، عضو في منظمات أخرى». وفلسطين «حيث لم تأخذ وضع الدولة إلى الآن». وكذلك بعض الدول الجزيرية في المحيط الهندي، مثل

كيريباتي KIRIBATI ونوري NAURU وتونغا TONGA وتوفالو TUVALO. مع ذلك فإن لكل من سويسرا والكرسي الرسولي، وفلسطين، عضوًا مراقبًا في الجمعية العامة.

عمليًا، لجميع الدول الأعضاء، ممثل دائم لكل دولة في منظمة الأمم المتحدة، في حين، أن هذا المتطلب، لم يكن مفروضًا في البداية، إلا للدول الأعضاء في مجلس الأمن (المادة 58) من الميثاق. كما أصبحت منظمة الأمم المتحدة أيضًا «مؤتمرًا دبلوماسيًا دائمًا»، طبقًا للكلمات الخاصة للأمين العام القديم داغ هامرشولد. ويذكر الميثاق، إمكانية تعليق عضوية أحد الأعضاء أو طرده من المنظمة تحت اسم عقوبات «المادة (5) و (6)». لكن، وعلى العكس، مما كان عليه الأمر بالنسبة لعصبة الأمم. فلم يأت على ذكر إمكانية الإنسحاب من المنظمة- وبأن اندونيسيا استخدمت ذلك فقط، بصورة مؤقتة في الفترة (1964 -1966).

- المنظمات الست الرئيسة- هي منظمات متخصصة في منظمة الأمم المتحدة، مذكورة في المادة (7)، من الميثاق، وهي: الجمعية العامة، مجلس الأمن، المجلس الإقتصادي والإجتماعي، مجلس الوصاية، محكمة العدل الدولية، الأمانة العامة.

- تتكون الجمعية العامة من جميع الأعضاء في الأمم المتحدة، وتجتمع كل عام في دورة تنعقد اعتبارًا من أول ثلاثاء من شهر أيلول، حتى نهاية العام. ويحدث أن تجتمع أيضًا، بدورات استثنائية، بناء على طلب أغلبية الأعضاء، أو بطلب من مجلس الأمن. وهناك (18) دورة استثنائية، خصصت لمواضيع مختلفة «نزع الاستعمار، نزع السلاح، اقتصادية وتنمية»، و (10) دورات استثنائية عاجلة، كانت الأخيرة عام (1997)، خصصت لدراسة الوضع في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وتعمل الجمعية، سواء بدورة غير محدودة، أم سواء بدورة مهمات. ويوجد في الوقت الحاضر، ست لجان كبيرة: الأولى، مكلفة بموضوع السياسة والأمن، والثانية في المواضيع الاقتصادية والمالية، والثالثة في المواضيع الإجتماعية والإنسانية والثقافية، والرابعة في المواضيع السياسية الخاصة بنزع الاستعمار، والخامسة في المواضيع الإدارية والمالية، والسادسة في المواضيع الثانوية.

وتصوت الجمعية طبقًا لمبدأ الأغلبية البسيطة، «ماعدا الحالات في المواضيع الهامة» حيث يجب عليها أن تعلن عن موافقتها بأكثرية ثلثي أعضائها. «المواضيع الهامة» مذكورة في المادة (18)

من الميثاق، وهي: «المحافظة على السلم والأمن الدوليين، انتخاب أعضاء المنظمات الرئيسة، سير عمل نظام الوصاية، الميزانية». ويمكن للجمعية أن تقرر بالأغلبية البسيطة - بأن موضوعًا ما، يجب معالجته كـ «موضوع هام أم لا». فعلى سبيل المثال، عملت الولايات المتحدة، على اعتبار موضوع تمثيل الصين الشعبية كـ«موضوع هام» واستطاعت بذلك تأجيل قبول الصين الشعبية في الأمم المتحدة، حيث يجب الحصول على أغلبية كافية «الثلثين» للحكومة الصينية لتكون مؤهلة لتصبح الممثلة الوحيدة للصين بدلاً من تايوان.

والجمعية العامة هي التي تعطي أحيانًا وصفًا لـ «ديموقراطية الدول» وكذلك الدول التي تهتم كثيرًا بهذا الأمر، خاصة فيما يتعلق بالبلدان الصغيرة. وإذا كان دورها في شؤون المحافظة على السلم الدولي محدودًا، فإنه «يمكنها مناقشة جميع المسائل في جميع المواضيع التي تدخل في نطاق الميثاق الحاضر، أو تستند على سلطات وسير عمل إحدى المنظمات في الميثاق «الفقرة 10»، وتصوت كل عام على أكثر من (300) قرار.

- يتكون مجلس الأمن من خمسة أعضاء دائمين، محددين بالميثاق «الصين، فرنسا، الاتحاد السوفياتي السابق - روسيا حاليًا- المملكة المتحدة، الولايات المتحدة»؛ وعشرة أعضاء غير دائمين: «كانوا ستة، حتى عام (1965)، ينتخبون كل عامين، من قبل الجمعية العامة، وذلك، «مع الأخذ بالاعتبار مساهمتهم بالمحافظة على السلم، وإلى توزعهم الجغرافي العادل»، ويتعاقب أعضاء مجلس الأمن على رئاسة المجلس دوريًا كل شهر.

لمجلس الأمن «مسؤولية رئيسة، هي المحافظة على السلم والأمن الدوليين» «المادة 24» وعليه أن يتمكن من الإجتماع بشكل دائم. وهذا ما يبرر الالتزام بالنسبة للدول الأعضاء في المجلس، أن يكون لها وفد دائم في نيويورك «المادة 28»، ويمكن أن يكون أيضًا وفد دولة أخرى، عضو في الجمعية العامة للأمم المتحدة «المادة 35-1»، ولمنظمة التحرير الفلسطينية، وضع المراقب.

يتخذ مجلس الأمن قراراته بأغلبية تسعة أصوات، من خمسة عشر، ويجب أن يتضمن الأعضاء التسعة، أولئك الأعضاء الدائمين، باستثناء «المواضيع المتعلقة بالإجراءات» «المادة 27». وهناك حق النقض المعترف به، بالنسبة للخمسة أعضاء الدائمين، والذي ينطبق أيضًا على كل تعديل يتم على الميثاق «المادة (108)». مع ذلك، لا يعتبر الامتناع عن التصويت من قبل

أحد الأعضاء الدائمين، عقبة أمام تبني قرار ما. وكان هذا العرف مخصصًا لمحكمة العدل الدولية، في الرأي الاستشاري بشأن فيتنام عام (1971).

- كان المجلس الاقتصادي والاجتماعي (ECOSOC)، في البداية (18) عضواً في عام (1945)، ثم (27)، عضواً في عام (1965)، ثم (54) عضواً في عام (1973) وَ ينتخب هؤلاء من قبل الجمعية العامة، حسب التقسيم الجغرافي. ويتم انتخاب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، في المجلس الاقتصادي والاجتماعي بمنهجية، من الناحية العملية. ويعد هذا المجلس التقارير والتوصيات «في المواضيع الدولية، في المجال الاقتصادي والإجتماعي والثقافي والتربية والصحة العامة، ومجالات أخرى ملحقة «المادة – 62»» ويتبنى المجلس الاقتصادي والإجتماعي، التوصيات والقرارات بالأغلبية، ثم أصبحت الموافقة عادية منذ عام (1968).

– ولم يعد لمجلس الوصاية، نشاط كبير: وذلك منذ وصول ناميبيا وبالو PALAU للاستقلال، الأولى عام (1990) والثانية عام (1994). وكان هذا المجلس، مشكلاً من الدول المكلفة بإدارة المناطق الموضوعة تحت الوصاية، ومن الدول الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، ومن الدول المنتخبة من قبل الجمعية العامة لمدة ثلاث سنوات، بحيث أن لايتجاوز العدد الإجمالي للأعضاء ولإدارة المناطق، عدد الأعضاء المكلفين بالإدارة. وأصبح مجلس الوصاية، مكلفًا بالإشراف الدولي على إدارة المناطق الموضوعة تحت الوصاية، تحت سلطة الجمعية العامة، وذلك للقيام بفحص التقدم السياسي والاقتصادي والإجتماعي للسكان، وبإرسال بعثات للزيارة.

- محكمة العدل الدولية: إذ تحدد المادة (92) من الميثاق ، أن وضع المحكمة- بوصفها «منظمة قضائية رئيسة للأمم المتحدة، بأنها «ملحقة أو مرتبطة بالميثاق الحاضر، حيث تشكل جزءًا مكملاً» وبهذا يكون الرابط بين منظمة الأمم المتحدة والقانون الدولي، عندئذ، أكثر من كونه وظيفيًا. فهو مؤسسي. فهو يوضح المثال بالنسبة إلى «السلام عن طريق القانون» والجمعية العامة ومجلس الأمن، وكل المنظمات الأخرى التابعة للمنظمة، والمؤسسات المتخصصة، تستطيع الطلب إلى المحكمة رأيًا استشاريًا حول موضوع قضائي «المادة 96» ويرفض مجلس الأمن، هو أيضًا، ولكونه طرف، تنفيذ حكم صادر عن المحكمة (المادة 94).

تضمن الأمانة العامة، الإدارة الإدارية للنظام: فهي تسجل وتنشر

المعاهدات الدولية، التي تمر عبر أعضاء الأمم المتحدة. فهي تنظم الخدمات الخارجية، خصوصًا مراكز المعلومات في العديد من البلدان أو المدن «جنيف، باريس، كوبنهاجن...الخ». وتوجه من قبل أمين عام، يسمى عن طريق توكيل لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، من قبل الجمعية العامة، بناء على توصية من مجلس الأمن «المادة 97» وعلى خلاف من عصبة الأمم، وظيفة الأمين العام، ليست إدارية وحسب، بل سياسية أيضًا: يمكن للأمين العام أن يعرض على مجلس الأمن، موضوعًا قابلاً لأن يضع المحافظة على السلم والأمن الدوليين في خطر «المادة 99» ويمكنه التدخل شخصيًا في الشؤون الدولية.

- المنظمات المساعدة، ذات اعتماد على المنظمات الرئيسة: تتوقع المادة (257) «يمكن أن تُنشأ منظمات مساعدة، التي يتبين أنها ضرورية، طبقًا للميثاق الحاضر» ويمكن للجمعية العامة «الفقرة 22» ومجلس الأمن «الفقرة 29» والمجلس الإقتصادي والإجتماعي، ضمنيًا، «الفقرة 68»، انشاء منظمات مساعدة. أو أن الفائدة أو الميزة الرئيس من هذا الإجراء، هو لتجنب المنظمة الدولية التعقيدات، من أجل أن تضمن «تفاوضًا من أجل اتفاق سياسي أساسي، إجراءات تصديق ...الخ».

وتشكل المنظمات المساعدة طرفًا هامًا جدًا في نظام الأمم المتحدة، ولبعضها ميزانية خاصة. فعمليات المحافظة على السلام، هي منظمات مساعدة لمجلس الأمن، وحتى للجمعية العامة. مثلاً لجنة العقوبات المكلفة بمراقبة تطبيق الإجراءات المتخذة ضد العراق وهي منظمة مساعدة لمجلس الأمن، كما أن المفوضية العليا للاجئين، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية (PNUD) وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (PNUE)، وصندوق الأمم المتحدة للسكان (FNUP)، جميعها منظمات مساعدة للجمعية العامة، أما برنامج الغذاء العالمي واليونيسيف، واللجان الخمس الاقتصادية الإقليمية و «اللجان التقنية» الاستشارية كذلك الحال «لجنة المخدرات، ولجنة حقوق الإنسان، ولجنة الاحصاء» فهي منظمات مساعدة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي.

- المؤسسات المتخصصة، مستقلة تمامًا عمليًا: لقد أنشئت حسب اتفاقيات بين حكومات، ومعدة حسب قدرات طبقًا لأوضاعها. القدرة على التحكيم في الاختصاصات الدولية المؤسسة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربية، والصحة العامة، ومجالات أخرى ذات الصلة» «المادة 57». ومن المفروض، أن يقوم المجلس الإقتصادي والاجتماعي بعمليات الربط، عن طريق إبرام اتفاقيات

مع المؤسسات المتخصصة والتي توضح الشروط التي تكون فيها مرتبطة من جديد مع منظمة الأمم المتحدة «المادة 63»، ويصادق على هذه الاتفاقيات من قبل الجمعية العامة.

من الناحية العملية، لاتقوم منظمة الأمم بعمليات التنسيق التي يتوجب تأمينها، لأمن كل واحدة، من المؤسسات المتخصصة، هي منظمة دولية، ذات استقلال ذاتي، وتعمل بطريقة مستقلة ذاتيًا. وقد تعودت المؤسسات المتخصصة على إنشاء منظمات خاصة بها مساعدة.

وتوجد ثماني عشرة مؤسسة متخصصة، بعضها قديمة: الاتحاد الدولي للإتصالات البعيدة، والتي أعقبت اتحاد التلغراف الدولي في عام (1932)، والذي أسس عام (1865). والإتحاد البرقي اللاسلكي الدولي، المؤسس عام (1906)، ثم اتحاد البريد الدولي، المؤسس عام (1878)، ومنظمة العمل الدولية عام (1919)، وأخرى أنشئت في نهاية الحرب العالمية الثانية حتى قبل إنشاء منظمة الأمم المتحدة. وهذه أيضًا حال منظمة الطيران المدني، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي لإعادة البناء والتمية ومنظمة الأمم المتحدة للفقراء والزراعة (FAO).

2- متاعب منظمة الأمم المتحدة: فعلى الرغم من حقل عملها الواسع ومهماتها الشاملة، التي عهد به ميثاق سان فرانسيسكو لها، فإن منظمة الأمم المتحدة، محل اعتراض، من حيث فعالياتها، وعدد من المهمات انتقلت منها لصالح منظمات أخرى، لدرجة أن البعض لم يتردد بالطلب إلى إلغاء منظمة الأمم المتحدة.

أ- لم تكن آليات الأمن الجماعي مطبقة كما كان متوقعًا في الميثاق:

- فقد أخفق الرهان على التواطؤ جزئيًا، بين القوى.

- من وجهة نظر القرار: فقد شل حق النقض، الذي يتمتع به الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن، شل، ولمدة طويلة، منظمة الأمم المتحدة. فقد استخدم (237) مرة، خلال الفترة (1945-1995)، لكن لم يأخذ هذا الرقم بالحساب، التأثير «الردعي» الذي نتج عنه، إلى أن لايقوم مشروعًا لقرار، والذي هو غير مقبول، من قبل بعض الأعضاء الدائمين حسبما هو معروف. ونادراً ما مورس حق النقض، منذ نهاية الحرب الباردة، لكنه مع ذلك، لم يختف.

إن انعدام الثقة بمجلس الأمن، قد أدى إلى التدخل المتزايد من قبل الجمعية العامة. وهذا ما حدث أثناء الحرب الكورية، عندما أصبح مجلس الأمن مشلولاً باستخدام الاتحاد السوفياتي، حق النقض.

وكذلك الحال، استخدام الولايات المتحدة، حق النقض، عندما يتعلق الأمر، بإدانات الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، أو فيما يتعلق برفع العقوبات عن الشعب العراقي. وهنا لابد من الإشارة، أن صلاحيات الجمعية العامة، لا تتعدى القيام بالتوصيات فقط.

- من وجهة نظر التطبيق: فإن عدم وجود قوات دائمة - على الرغم من المواد (43) و (45) في الميثاق، بهذا الخصوص - يجعل منظمة الأمم المتحدة مجبرة لأن تخضع للقوى أو الدول التي تقبل بوضع قوات تحت تصرف المنظمة أو المشاركة في تمويلها، وإن المادة (106) من الميثاق، التي من المفترض أن تطبق على شكل مرحلة انتقالية، بانتظار دخول «الاتفاقيات الخاصة» موضع التطبيق، من المادة (43)، والتي لم تتوصل مطلقًا للقيام بعملية مشتركة من قبل أعضاء مجلس الأمن الدائمين الخمسة.

الواقع، أن لجنة الأركان العامة - المنصوص عنها في (المادة 47) من الميثاق - لم تمارس مطلقًا دورها. وهذا يعني أن الدول تريد أن تبقى سيدة اللعبة. ففي حرب كوريا، وفي حرب الخليج الثانية، وفي الصومال، وفي أفغانستان ...الخ، كانت قوات الأمم المتحدة، تحت قيادة الولايات المتحدة، وليس الأمم المتحدة، تتخذ القرارات وتنفذها حسب مصالحها، مع أن مجرد استخدام القوة، يجب أن يخضع «التفويض» من مجلس الأمن لأنه لم يعد له قدرة على ضمان السيطرة المكلف بها ليمارسها على سير عمل العمليات.

- لم تقم منظمة الأمم المتحدة بعملية عسكرية في نطاق المادة (42) من الميثاق بسبب انعدام وجود قوة مسلحة دائمة، تابعة للمنظمة، إذ يكتفي مجلس الأمن، بأن (يعهد) «كما في حرب كوريا»، وكما أجاز في عام (1990)، باللجوء للقوة، وتشكيل قوات تدخل لتدمير العراق، حسب القرار رقم (678)، إلا أنه لم يشر مطلقًا للمادة (42) «في حين أنه قد حدد وأن أشار إلى مواد أخرى.

- العقوبات المتوقعة في الفصل السابع، فعالية متنوعة: لقد صوت مجلس الأمن على عقوبات ضد روسيا عام (1966) وافريقيا الجنوبية عام (1977) والعراق عام (1990)، ويوغوسلافيا السابقة عام (1991) وليبيا عام (1992)، والصومال عام (1992)، وهاييتي عام (1993) والأونيتا في أنغولا عام (1993) ورواندا عام (1993) وليبيريا عام (1995)..الخ. وكانت فعالية هذه العقوبات متنوعة، طبقًا للظروف، ومصالح القوى المهيمنة فيها «إمكانية الاحاطة بالحصار، تصميم حكومة الدولة المفروض عليها الحصار، مصالح قوى الهيمنة ...الخ».

عمليات المحافظة على السلام (OMP)، تبدو (المُسكّن) بالنسبة للأمن الجماعي، يوجد أساسها القانوني، بين الفصلين السادس والسابع، ومن هنا التسمية المستخدمة في بعض الأحيان «الفصل السادس والنصف» ولم يشر إلى «الفصل السابع» مطلقًا في قرارات مجلس الأمن. وتأخذ عمليات المحافظة على السلم خاصيتها، ليس بالإكراه والإجبار، للحصول على قبول الأطراف. مع ذلك يمكن أن يكون الفصل السابع مستخدمًا، من أجل تبرير الاجراءات القهرية، دون قبول الأطراف، وأن تكون ضرورية. إذ نشرت الأمم المتحدة في الكونغو قوات فعلاً في عام (1960)، باستخدام القوة، دون أي أساس قانوني من أجل الكفاح ضد انفصال كاتانجا. وإن اللجوء للقوة، على أساس الفصل السابع، قد أصبح مبتذلاً في عمليات التدخل الإنساني «حسب الفصل الثالث».

وتتبع عمليات المحافظة على السلام، التي تستهدف تجميد الأزمات، بنشر قوات تدخل أو للمراقبة- المنظمات المساعدة لمجلس الأمن، أو الجمعية العامة. فالجمعية العامة، لم تشكل سوى اثنتان من عملية المحافظة على السلام: قوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة (FUNU) التي انتشرت في صحراء سيناء- للفصل بين القوات (الصهيونية) و (المصرية)، طبقًا للقرار (1000) لعام (1956)، وقوات الأمم المتحدة في إيريان الغربية (1962-1963).

وكان هناك (42) عملية محافظة على السلام في الفترة (1948-1996) منها «قوات المراقبة الدولية التابعة لمنظمة الأمم المتحدة في فلسطين، وهي قوات عملياتية». كما انطلقت (13) عملية محافظة على السلام أيضًا (OMP) في الفترة (1948-1978). وأعيدت من جديد، الحياة لعمليات المحافظة على السلام عام (1988)، السنة التي حصلت فيها قوات «القبعات الزرق» على جائزة نوبل للسلام. ولم تستهدف القوات السابقة، قبل ذلك التاريخ، سوى التوسط بين المتقاتلين: وهذه هي مهمات المراقبة (ONUST) في فلسطين منذ عام (1948). وكذلك قوات الفصل على الحدود بين الهند والباكستان (GOMNUIP) منذ عام (1949).

ووسعت عمليات المحافظة على السلام من دورها، منذ مطلع تسعينيات القرن العشرين (1990) (الجيل الثاني) لتعزيز السلام: فقد قامت بأعمال لضمان الانتقال الديموقراطي، وذلك بالإشراف على تنظيم انتخابات حرة، وكذلك نزع سلاح الزمر المتخاصمة، كما تقوم بحماية اللاجئين، وتقديم المساعدات الإنسانية،

كانت مثل تلك العمليات، قد جرى تنظيمها، في انجولا، اعتبارًا من عام (1989)، وفي ناميبيا (1989-1990)، وفي السلفادور في الفترة (1991-1995)، وفي كامبودجيا في الفترة (1992-1993).

تعرف عمليات المحافظة على السلام اليوم بعضًا من خيبات الأمل:
ولقد عرفت ذروتها عام (1994)، عندما انتشر حوالي (80000) رجل في البوسنة، بمساهمة الباكستان بـ (10000) رجل، ثم فرنسا بـ (6000)، ثم تبخرت تلك القوات في نهاية انتدابها في البوسنة، ولم يعد عددها يتجاوز الـ (25000) رجل للقيام بحوالي خمس عشر عملية، جرت حتى عام (1996).

وتعرضت الثقة بعمليات المحافظة على السلام للشك، نتيجة المعاناة المنطلقة من الطموحات المعلنة للدول، والوسائل التي استخدمتها تلك الدول. فقد أظهرت الدول التي فقدت استقرارها السياسي، قلقها، عندما أظهرت عمليات المحافظة على السلام، عجزها، ولم تعد تستطيع إخفاء أو ستر غياب عمليات حقيقية كشرطة دولية «أفغانستان، أنجولا، يوغوسلافيا، فلسطين... الخ» إذ انتهى تدخلها في أغلب الأحيان إلى الفشل، بسبب نقص الوسائل، أو بسبب أن المحاربين لايرغبون بوضع حد لنزاعاتهم «كما هو الحال في الصومال، أم في أفغانستان... الخ». أو أن قوى الهيمنة، ليس لها مصلحة في تلك المناطق. وجرى توجيه النقد إلى انحراف عمليات المحافظة على السلام باتجاه الفصل السابع في معالجتها «غياب موافقة الأطراف»، وذلك من قبل الدول التي تشك باحترام سيادتها الدولية. وقد أصبحت منظمة الأمم المتحدة كـ «الخادمة التي تقوم بكل شيء في مجال الأمن الدولي»، من أجل القيام بعمليات المحافظة على السلام. لكن يلاحظ نجاح عمليات المحافظة على السلام، حيثما توجد مصلحة للقوى العظمى، وباسم منظمة الأمم المتحدة.

تعطي منظمة الأمم المتحدة، الانطباع بأنها عاجزة عن تنفيذ مهماتها في مجال الأمن الجماعي: إذ تتألق منظمة الأمم المتحدة عن طريق غيابها في معالجة بعض الأزمات، في أغلب الأحيان: «ارمينيا- طاجكستان، بنغلادش، برمانيا، سري لانكا، السودان، كولومبيا، البيرو، ايرلاندا الشمالية، عملية التسوية في الشرق الأوسط... الخ».

وهناك، اقترحات طموحة تطالب أن يكون هناك تمييز واضح بين المعدات المجهزة المختلفة للمحافظة على السلام، والأمن الجماعي:

- حيث يجب على الدبلوماسية «الوقائية» تسوية الخلافات التي يمكن أن

تتحول إلى نزاعات «كإصلاح اجراءات الثقة بين الأطراف ذات العلاقة، القيام بتحذيرات سريعة، أو انتشار وقائي للقوات أو إنشاء مناطق منزوعة السلاح... الخ».

- عمليات المحافظة على السلم، تعني حضور الأمم المتحدة على الأرض- وهذه تعني، المحافظة على السلم بنشر قوات بشكل مباشر، مع موافقة الأطراف ذات العلاقة.

- ويجب أن تتضمن «عمليات إعادة السلام» التسوية السلمية للخلافات «الفصل السادس من الميثاق»، وكذلك باستخدام العقوبات، وكذلك القوة. كما يجب أخذ «المصاعب الاقتصادية» بالحساب، وتضمينها في القرارات الخاصة بالعقوبات الاقتصادية. وبأن تكون وحدات فرض السلام مشكلة من أجل القيام بإجراءات احتياطية، وبأن تكون الاتفاقيات المتوقعة، طبقًا للمادة (43) من الميثاق، معقودة، في نهاية الأمر مع الأطراف المعنية، وذلك بهدف أن تستطيع الأمانة العامة للأمم المتحدة، أن تميز، وعلى نحو أفضل، العمليات الخاصة بـ «تحديد عمليات استقرار السلام» و«عمليات فرض السلام» على الأطراف. وعند اللجوء إلى استخدام القوة، هنا، يجب على منظمة الأمم المتحدة «إنشاء قوة رد فعل سريع» تحت إشرافها.

- أما تعزيز السلام، تتسبب إطالة العمليات، بنجاح المحافظة على السلام، وكذلك المساهمة في إزالة الألغام، وبإجراء انتخابات والمساعدة على تحقيقها. وكل العمليات الممكنة، القابلة لأن ترسخ السلام.

وكانت إدارة عمليات المحافظة على السلام (DOMP) أنشئت في عام (1992) في نطاق الأمانة العامة، لكن التخطيط للتنفيذ العملياتي قد عهد به إلى مسؤولين مختلفين، مما جعل التعاون بين إدارة الشؤون السياسية (DAF)، وإدارة عمليات المحافظة على السلام (DOMP)، وإدارة الشؤون الإنسانية (DAH)، غير مرض، لأن لكل منها نظامها الخاص من حيث التحليل والتنفيذ. وغالبًا ماوقعت أمور التعاون بين الأمانة العامة والمنظمات المساعدة، والمؤسسات المتخصصة، في الخطأ.

إن معايرة «قوى بحالة انتظار»، يجري تحديدها عن طريق مساهمات البلدان المتنوعة، لكن مداها يمكن أن يكون محدودًا. إذ ستكون البلدان، اختيارية، في كثير من الحالات، أو قد تصبح هذه القوات غير كافية لفرض السلام، أو أن يحدث نقص في المجالات المتخصصة، كالوحدات الطبية، أو غياب الاختصاصات لتصحيح التشوهات. كما يجب تحقيق فكرة القيادة المتحركة... الخ».

- لم تنفذ المنظمات الإقليمية الدور الذي منحها إياها الميثاق: لقد سمح الفصل الثامن في الميثاق، بإقامة «منظمات إقليمية متخصصة لتسوية الأمور التي تمس المحافظة على السلام والأمن الدوليين، وعلى استعداد للقيام بأعمال ذات طبيعة إقليمية، المادة (52)». وليس لهذا التفويض الكفاءة اللازمة: ويمكن أن يصبح مجلس الأمن مسؤولاً أيضًا، يعالج أمورًا إقليمية، بشكل مواز، كما يجب أن يبقى على اطلاع ومعرفة بكل عمل يتم الشروع به، أو مواجهته «المادة (53)». بعبارات أخرى، تراقب منظمة الأمم المتحدة أهلية كل انطلاقة للأمن الجماعي.

وجرت إقامة العديد من الأنظمة الإقليمية: فهناك منظمة الأمن والتعاون الأوربي (OSCE)، والتي تقوم بنشاط دبلوماسي داخلي وقائي في أوربا. كما تناقش جمعية الأمم الجنوبية - الشرقية الآسيوية مشاكل الأمن الإقليمي، على الساحة الإقليمية. وهناك الجماعة الاقتصادية للدول الافريقية الغربية (CEDEAF) التي أرسلت «قوات من القبعات الزرق» إلى ليبريا عام (1990)، وقادت جماعة الدول المستقلة، عملياتها الخاصة للمحافظة على السلام، تحت وصاية روسيا. وتلتزم منظمة الدول الافريقية، بالقيام بعمليات تتعلق بحقوق الإنسان في هاييتي، وفي اتصال مع منظمة الأمم المتحدة.

ويجب الاعتراف، أن هذه المنظمات، لم تكن أكثر فعالية، مطلقًا، من منظمة الأمم المتحدة، في مجال المحافظة على السلام. لكن ماهو أكثر فعالية من منظمة الأمم المتحدة، هي الشبكة الأمريكية للأمن، التي تلعب دورًا جوهريًا في أمن العالم «حلف الأطلسي، الحضور الأمريكي في اليابان وفي كوريا الجنوبية، وفي إمارات الخليج العربي/، والجزيرة العربية» وفي الوقت نفسه تستخدمها الولايات المتحدة، لخدمة مصالحها الاستراتيجية. وذلك تحت ذريعة كون منظمة الأمم المتحدة محرومة من الوسائل التي يمكن استخدامها لتنفيذ المهام التي توكل إليها باستخدام القوة، مع العلم أن ميثاق الأمم المتحدة، قد خولها تشكيل مثل تلك القوة.

2- ليس لمنظمة الأمم المتحدة الوسائل لتلبي طموحاتها الاقتصادية والاجتماعية: فعلى الرغم من كلمة «التنمية» لم تستخدم إلا مرة واحدة في ميثاق الأمم المتحدة «المادة 55»، إلا أنها أضحت الموضوع الرئيس لعمل الأمم المتحدة في المجال الإقتصادي والإجتماعي. ولقد شكل التقدم الاقتصادي والإجتماعي مع احترام حقوق الإنسان،

أحد جوانب «ثلاثة جوانب سحرية» في الميثاق، مع ذلك، فإن الموازنة الخاصة بهذا المجال، متواضعة.

- تؤدي منظمة الأمم المتحدة خدمة أساسية كمنبر للمطالب: إذ تُعبر بلدان العالم الثالث، عن مطالب اقتصادية، تجاه البلدان المتطورة، عند تحديد نتائج نزع الإستعمار، وذلك، تحت شعار «التعويض» عن فترة الاستعمار، من ثم تحت شعار المساواة الإجتماعية. ويؤكد القرار رقم (1522)، (XV) لعام (1960) هدف مساعدة البلدان المُصنَّعة للبلدان النامية، بما يساوي 1% من دخلها القومي الخام. وأطلق شعار «عقد من التنمية» في عام (1961)، لكن دون نتائج ملموسة. وجرى التأكيد أيضًا، على السيادة الدائمة على المصادر الطبيعية، من الجمعية العامة في عام (1962)، وذلك بالقرار رقم (1803).

فقد تَجَمَّع في نطاق منظمة الأمم المتحدة، تحت اسم مجموعة الـ (77)، ومنذ عام (1963) مع وعي العالم الثالث لمصالحه حيث تشكلت تلك المجموعة في البداية وفي تلك الحقبة، من (77) دولة، وتتضمن اليوم (130) دولة، وهناك أيضًا اللجنة الاقتصادية لبلدان امريكا اللاتينية (CEPAL). حيث يؤكد عالم الاقتصاد راؤول بريبيش RAOUL PREBISCH، وهو عالم اقتصاد أرجنتيني، على عكس المفهوم التقليدي للتجارة الدولية، وذلك بإظهاره، أن التبادل الحر، يشجع البلدان الصناعية، ويُهَمِّش بلدان العالم الثالث المصدرة للمواد الأولية. وهذا «التبادل غير المتكافئ» عبارة عن تبادل (7) بين منتجات أساس، ومنتجات مصنعة. ولهذا، فإن هذا التبادل، سيصاب بالعطب على المدى البعيد، حيث سترى البلدان النامية، وقد نضبت مواردها، في حين لم يعد بالإمكان الحصول على المنتجات المصنعة لتنميتها، بصورة أكثر فأكثر.

وقد نجم إنشاء مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (CNUCED)، من قبل الجمعية العامة عام (1964)، عن هذا التحليل. وقد حدد ذلك المؤتمر أهدافًا طموحة لمساعدة التنمية. بأن تقدم البلدان المصنعة 1% من دخلها القومي الخام سنويًا كمساعدات للبلدان النامية. كما جرى تنظيم صندوق مشترك، لضبط أسعار المواد الأولية، لكن بقي كل ذلك حبرًا على ورق، حيث لم يزود بمصادر كافية حتى عام (1989).

ثم صدرت القرارات (3201) و (3202)، في الأول من أيار عام (1974)، المتضمنان بتصريح وبرنامج عمل، يتعلقان بمؤسسة، سميت بمؤسسة النظام الاقتصادي الدولي الجديد، وحدد هذان

القرارات، النظام الجديد كونه «قد أقيم على العدل والمساواة والترابط، وعلى المصالح والتعاون بين جميع الدول، دون النظر إلى نظامها الإقتصادي والإجتماعي، من أجل إصلاح عدم المساواة، كما سيُقَوِّم التصرفات الجائرة الحالية التي ستسمح بإزالة الهوة المتزايدة بين البلدان الغنية وتلك النامية». وهناك أيضًا القرار رقم (3281)، الذي جاء تحت عنوان: «ميثاق الحقوق والواجبات الاقتصادية للدول» الصادر بتاريخ الأول من كانون الأول (1974)، والذي يؤكد، ويكمل هذه المطالب الخاصة لبلدان العالم الثالث، والتي تطالب بتحقيق الأهداف التالية: «السيادة المطلقة على المصادر الطبيعية، معاملة تفضيلية في مجال التجارة الدولية، مساعدات اضافية للبلدان النامية، مراقبة نشاطات الشركات متعددة الجنسية، استقرار أسعار المواد الأولية». كما حددت اليونسكو، من جهة أخرى، نظامًا عالميًا للمعلومات والاتصالات عام (1980)، مع ذلك، بقيت جميع هذه القرارات، دون نتائج ملموسة في مجال الاقتصاد الدولي والتنفيذ.

كما أن تعريف التنمية، ليس إلا انطلاقة لدور الكلام المنمق، الذي يصدر عن منظمة الأمم المتحدة، لأن التنمية، مفهوم تطوري: إذ يجري الحديث، وعلى مدى السنين الماضية، عن المساعدات التقنية، وعن التنمية الاقتصادية والتنمية الصناعية والتنمية الإجتماعية والتنمية الثقافية، إلى أن انتهت الجمعية العامة إلى اعتبار حق التنمية هو حق من حقوق الإنسان، وذلك في عام (1979)، وحدد تقرير برونتولاند (BRUNDTLAND) عام(1987)، «بأن التنمية الملائمة، هي بوضع النقاط على الحروف في مجال الاعتبارات الخاصة بالبيئة». وأطلق برنامج الأمم المتحدة للتنمية (PUND) عام (1990) مفهوم «التنمية الإنسانية» كـ «عملية تسمح بسلسلة اختيارات مقدمة للأفراد وللشعب بالكامل، في وجوده»، و«إن مؤشر التنمية الإنسانية، وإقامته، يجب أن يكون انطلاقًا من معيار يتعلق بمتوسط العمر والمستوى التعليمي، الدخل... الخ». وتترجم القدرة الشرائية، من أجل السماح بالمقارنة. كما اخترع برنامج الأمم المتحدة للتنمية، مفهوم «الأمن الإنساني» عام (1994). وأكد ذلك على أن التنمية، تتضمن خمسة أبعاد مترابطة دون انفساخ، وهي: السلام، البيئة، والإقتصاد، والعدل الإجتماعي، والديموقراطية.

- عمل منظمة الأمم المتحدة في مجال التنمية مبعثر جداً: ترجع المساعدة التقنية تحت رعاية المجلس الاقتصادي والإجتماعي، إلى عام (1949). إذ أكمل بقاعدة خاصة عام (1958)، التي

أصبحت، برنامج الأمم المتحدة للتنمية عام (1965)، ويُحَوَّل ذلك البرنامج بمساهمات إرادية، من قبل البلدان الغنية «بلغت (1,5) مليار دولار عام (1995)، وتنفذ مشاريع تنمية في بلدان العالم الثالث، موزعة الأموال التي تملكها بين المؤسسات المتخصصة.

ومن أجل تنسيق الكفاح ضد الجوع في العالم، أقام المؤتمر العالمي حول الغذاء الذي انعقد في روما عام (1974)، منظمة مساعدة للمجلس الاقتصادي والإجتماعي: المجلس العالمي للغذاء (CMA)، وحدد التوجهات الكبرى، كما أنشأ الصندوق الدولي للتنمية الزراعية (FIDA) عام (1976)، يُحوَّل من قبل البلدان المتطورة، ومن قبل البلدان المصدرة للنفط، لتقديم المساعدات للبلدان الفقيرة. لكن الصندوق الدولي للتنمية، هو اليوم في أزمة، بسبب عدم توفر التمويل. وتؤدي منظمة الأمم المتحدة للزراعة والغذاء (FAO)، خدمات، خصوصًا، بتقديم دراسات وإحصاءات ومساعدات للبلدان النامية، وهي مؤسسة متخصصة. وتشكل احتياطات للعمل لمواجهة الأوضاع الأزماتية. ويمر الأساس في مجال المساعدة الغذائية، عبر البرنامج العالمي الذي أنشئ عام (1963)، وبدا مشاركة من قبل منظمة الأمم المتحدة والفاو. وهو مزود بميزانية هامة (1,6) مليار دولار. وقد أغاث البرنامج العالمي (PAM) حوالي (50) مليون شخص، عام (1993) خصوصًا في بلدان افريقيا شبه الصحراوية.

مع ذلك، ينقص، وكالات الأمم المتحدة، الوسائل المساعدة للبلدان الفقيرة، على الرغم من كثرة الحركات المالية. فهي تعتمد في الواقع، على المساهمات الإرادية كما أن التنسيق بين الوكالات المختلفة، لاوجود له في نظام الأمم المتحدة، وتضاعف منظمة الأمم المتحدة من الأعمال المبعثرة، وهناك عدم كفاية في نوعيات الأشخاص المؤهلين في الأمم المتحدة.

- **وتلعب منظمة الأمم المتحدة، دورًا هامًا في المساعدة الإنسانية**؛ فقد تأسست عام (1992) إدارة شؤون إنسانية مكلفة بالتنسيق في مجال المساعدات الإنسانية في نظام الأمم المتحدة، بتكليف من الأمانة العامة للمنظمة. فهناك اللجنة العليا للاجئين، المنشأ منذ عام (1951) في جنيف. فهي تقدم مساعدات مادية للاجئين. وهناك مكتب المعونات التابع للأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين، وبرنامج الغذاء العالمي، واليونيسيف.

- **تؤدي منظمة الأمم المتحدة خدمة ميدانية لبحث المشاكل الكبرى في الكرة الأرضية**؛ فقد جرى التأكيد

على ممارسة مؤتمرات دولية كبرى منتظمة لمعالجة المشاكل ذات الأبعاد العالمية، منذ سبعينيات القرن العشرين (1970). وأكثر هذه المؤتمرات أهمية، هي المتعلقة بالبيئة «مؤتمر ستوكهولم عام (1972)، وريودي جانيرو عام (1992). ثم المؤتمر حول السكان «مؤتمر بوخارست عام (1974) ومكسيكو عام (1984)، والقاهرة (1994). وحول المدن «السكن عام (1976) في هانكوفر»... الخ.

3- منظمة الأمم المتحدة، هي اليوم في أزمة: لقد سمحت نهاية الخصومة شرق-غرب، لمجلس الأمن، أن يصبح أكثر نشاطًا، ففي حين أنه لم يصوت إلا على قرار واحد في الشهر خلال الأربعين عامًا الأولى من وجوده تضاعفت هذه الوتيرة أربع مرات في الفترة (1984-1995) باستخدام حق النقض الذي كان شائعًا سابقًا، ثم أصبح استثنائيًا من قبل الولايات المتحدة، خاصة فيما يتعلق بإدانات الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وضاعفت الأمم المتحدة من تدخلاتها من أجل المحافظة على السلام لدرجة أن حصلت القبعات الزرق على جائزة نوبل للسلام عام (1988).

- وتجتاز منظمة الأمم المتحدة اليوم، أزمة الشرعية: فلا يمكن للمنظمة أن تقوم بأي شيء، إلا ماتقوم به الدول، وذلك حسب بنيتها، وحتى توازن القوى التي تهيمن عليها في اتخاذ القرارات. وكذلك استغلال المنظمة تجاه المساهمات المالية والعسكرية للدول. وتريد دول عدم الانحياز منها أن تؤدي خدمة كصندوق صدى من أجل القضاء على عدم المساواة والعمل على تلبية مطالبها الإقتصادية. وهذا مايدعم اليوم ذلك، على شكل خطابات بلاغية مكررة في كل دورة سنوية للجمعية العامة. وقد استغلت بعض الدول هذه الموجة.

ولاتؤدي قوى الهيمنة خدمة لمنظمة الأمم المتحدة. على **نحو خاطئ** إلا من أجل مايعود عليها من **مكاسب استراتيجية** أو غير ذلك. ويخدم المحافظة على أمن المنظمة كساتر قانوني لأمن هذه القوى ومصالحها. كما حدث في حرب الخليج الثانية، حيث استخدمت الولايات المتحدة حجة الأمن في منطقة الخليج من أجل وضع قوات لها في قواعد عسكرية في دول المنطقة لخدمة استرتيجيتها. كما تلبي قوى الهيمنة النداء باسم عمليات المحافظة على السلام، شريطة أن لايكون الثمن الواجب دفعه مرتفعًا «كما حدث في الصومال». وأكثر مايعيق نشاط منظمة الأمم المتحدة، استخدام حق النقض، كما تفعل الولايات المتحدة، التي تجمد القرارات غير الملائمة للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة. وهناك أزمات تنتج عن منافسة

مؤسسات فاعلة على المستوى الدولي، لتظهر نفسها على أنها أكثر فعالية من المنظمة، ونفوذاً، مثل مجموعة الـ (7)، وصندوق النقد الدولي، منظمة حلف شمالي الأطلسي... الخ.

- المصاعب المالية تضعف المنظمة: تتكون ميزانية منظمة الأمم المتحدة السنوية من حوالي (2,6) مليار دولار، منها (1,3) مليار دولار، مساهمات إجبارية و (1,3) مليار مساهمات إرادية. وهناك ميزانيات المؤسسات المتخصصة مثل برنامج الأمم المتحدة للتنمية، يعتمد في نفقاتها على المساهمات الإرادية للدول.

يضاف إلى ذلك، عمليات المحافظة على السلام، حيث فيها الميزانية معبرة، إذ وصلت إلى (3,6) مليار دولار عام (1994)، وانخفضت إلى (1,5) مليار دولار عام (1996). أما مايتعلق بمحكمة العدل الدولية، فتكاليفها مقسمة على أعضاء منظمة الأمم المتحدة، كتوزيع نوعي، جرى تبنيه من قبل الجمعية العامة.

وهناك العديد من الدول، التي تعبث أمام دفع مساهماتها، كما تفعل الولايات المتحدة، فالأمريكيون، خصوصاً في الكونجرس، يتهمون المنظمة بالتبذير، كما يتهمونها بأنها لاتدافع عن المصالح الأمريكية بما يكفي. فقرروا من جانب واحد وضع سقف لمساهمتهم من (31,7%) إلى (25%)، كما كان عليه الحال من قبل. كما تتشكى الميزانية العامة من متأخر وصل إلى (600) مليون دولار عام (1996)، والولايات المتحدة مسؤولة عن التأخير بنسبة (60%). وهكذا تغوص المنظمات الملحقة بالمصاعب المالية.

والكلمة الأخيرة، لايمكن لمنظمة الأمم المتحدة أن تفي بما ليس باستطاعتها: حكومة دولية، مكلفة بالعمل على احترام القانون الدولي، وفي تنظيم تنمية الكون. لكن هذه المنظمة هي بين أيدي الدول، خاصة المهيمنة، وهذا يعني يمكن أن تصبح أداة بيد هذه الأخيرة. لكن، هل يعني هذا، أنه، يجب إلغاء منظمة الأمم المتحدة؟ منظمة الأمم المتحدة، لاوجود لها دون الدول، لكن لايمكن للدول القيام بأعمال دون تلك المنظمة. ودورها ذو قيمة في التنمية، رغم كل الصعاب. ومساهماتها لها قيمة في زيادة التعاون الدولي. وكذلك في تسوية العديد من الأزمات، وتطبيق القانون الدولي، رغم كل الصعوبات والتشوهات.

فوق ذلك، إن سر عملها كمُحكِّمة للحوار بين الدول، يجعل من الأمم المتحدة، أداة ولايمكن أن يحل المجتمع الدولي محلها دون وجودها.

الهوامش

1- L' ADJECTIF "GENERAL" RENVOIE à LA PORTÉE DES COMPÉTENCES, L' ADJECTIF UNIVERSEL SIGNIFIE QUE TOUS LES ETATS SONT CONCÉRNES.

2- LES ETATS - UNIS ONT TENUE à N'ETRE QU' "ASSOCIES".

3- LES PERMANENTS ETAIENT LES ETATS- UNIES "QUI SE MAINTINRENT FINALEMENT EN DEHOR DE LA (SDN), LA FRANCE, LA GRANDE- BRETAGNE, L'ITALIE ET LE JAPON, L'ALLEMAGNE, DEVINT MEMBRES PERMANENTS LORS DE SON ENTRÉE DANS LA (SDN) EN (1926), L'URSS EN (1934), LES NON PERMANENT ELUS PAR L'ASSAMBLÉE, PASSERENT DE (4) à (6) EN (1936).

4- LA FRANCE N'Y ADHERERA QU'EN DECEMBRE (1944).

5- LES TROIS PLUS LA CHINE.

6- MICHEL VIRALLY, CF. BIBLIOGRAPHIE.

7- LES TERMES DE L' ECHANGE, POUR UN PAYS DONNÉ, RESULTENT DU RAPPORT ENTRE LES PRIX DE SES EXPORTATIONS ET LES PRIX DE SES IMPORTATIONS.

الاغتراب في منظور علم الاجتماع

د. طلال عبد المعطي مصطفى ❖

مدخل

يُعد مفهوم الاغتراب من المفاهيم الفكرية البارزة في علم الاجتماع والفلسفة منذ أواخر القرن الثامن عشر، ومايزال حتى الآن.

ورغم أن تاريخ المفهوم يعود في بداياته الأولى إلى اللاهوت البروتستانتي (لوثر إلى كالفن)، فإن استخداماته تشعبت وتنوعت على مدى قرنين من تطور الفكر الفلسفي والاجتماعي الأوربي ابتداء من هوبز وجون لوك، مروراً بجان جاك روسو وفيخته وشيلنغ وصولاً إلى هيغل وفيورباخ.

(❖) د. طلال عبد المعطي مصطفى: باحث من سورية، دكتوراه في علم الاجتماع، له عدة أبحاث منشورة في مجلة المعرفة.

و أخذ هذا المفهوم محتوًى جديدًا في أعمال فيورباخ (اغتراب الجوهر الإنساني في الدين) وفي أعمال ماركس المبكرة والمتأخرة على حد سواء.

واستمرت الرحلة الفكرية لهذا المفهوم في القرن العشرين لدى كل من إريك فروم وماركوزة وروبرت تاكر، وهيدجر، وسارتر، إضافة إلى عدد من المشتغلين في الفلسفة وعلم الاجتماع.

ولعل آخر بحث هام في الاغتراب في الإطار الماركسي هو الجزء الخاص الذي وضعه (جورج لوكاش) في «انطولوجيا الوجود الاجتماعي» في أواسط الستينات، وعالج فيه تاريخ الاغتراب بتجلياته المادية والفكرية على صعيد الدين والفلسفة.

واستخدامات مفهوم الاغتراب متعددة في الماضي كما في الحاضر، من توصيف أشد الظاهرات تباينًا وتنوعًا، في ميدان الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس إلى جانب الفلسفة واللاهوت ابتداءً من الحرمان من الملكية إلى العمل القسري، ومن عبادة المال إلى الأمراض النفسية، ومن القلق إلى السلبية السياسية، ومن التمرد إلى ضعف الإيمان، ومن الغربة عن الله في اللاهوت إلى غربة الفردي عن الاجتماعي في الفلسفة (دينكش، ١٩٨٦) ص١٨ - ٢٠).

وفي التراث العربي الإسلامي ألصق الاغتراب بالفقر، (من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، حيث قال الإمام علي بن أبي طالب «الغنى في الغربة وطن والفقر في الوطن غربة» (الخطيب، ١٩٩٨، ص١٨).

وفي هذا النطاق يكون الاغتراب عبارة عن حالة نفسية فردية يفقد فيها الفرد حدود ذاته.

وهناك من يتحدث عن (الاغتراب السياسي) وهو يتكون من تسلط قوى غاشمة على الفرد أو الشعب تسلبه عن عمد حريته وكرامته، دون أن يتمكن من أي وسيلة للتخلص من هذه القوى الغاشمة، وهنا تظهر ظاهرة الاغتراب السياسي. (فيشر، ١٩٨٠، ص٥٤).

أولاً: في التعريف

يمكن تعريف الاغتراب من حيث أنه حالة نفسية تتضمن مشاعر، بعضها إيجابي من قبيل الإحساس بالتفرد والتميز، ومعظمها سلبي من قبيل الإحساس بالغربة والعزلة والحصار من قوى بعضها ظاهر، وبعضها مجهول والانسحاب من الواقع وتبني أطر مرجعية سلوكية مفارقة ومباينة للجماعة مع ميول تفوقية وانتحارية أحيانًا.

وفي تتبع (محمود رجب: ١٩٩٣،

ص٤٥) لسيرة مصطلح الاغتراب يقرر أنه منذ أواخر العصور الوسطى وحتى يومنا هذا والكلمة الانكليزية ALi enation ونظيرتها الفرنسية مازالت كل منهما تحتفظ بالمعنى النفسي للكلمة اللاتينية Ali enatio (ومن معانيها الاضطراب النفسي) فالمجنون أو من يعاني من اضطرابات عقلية بوجه عام يسمى في الفرنسية ALiene، أما في الانكليزية فقد كانت كلمة ALienist تطلق حتى وقت قريب على الطبيب الاختصاصي في تشخيص الأمراض العقلية وعلاجها. وهناك معان متعددة للاغتراب، منها ماهو ذو أسبقية نفسية. ومنها مايربط بين الاغتراب والتفاعل الاجتماعي، ومنها ماله علاقة بالظروف الاقتصادية، ومنها مايربط بين الاغتراب والمرض النفسي، ولكن بشكل عام يمكن القول إنه ظاهرة متعددة الأبعاد، ومعظم الأدباء والفنانين من المغتربين سيكولوجيًا من حيث تمردهم ورفضهم للواقع العاجز وسعيهم إلى تغييره، والعالم يغترب عندما يتقدم بجرأة ليجرب إمكاناته في التغيير والإصلاح الذي ربما لايقبله الآخرون لسبب أو لآخر، والمريض النفسي مغترب أيضًا، والاغتراب قد يكون نتيجة لمرضه، وربما يكون سببًا لمرضه، ولكنه على أي حال إنسان متفرد يعاني من العزلة وفقدان الهوية وتضارب المعايير واللامعنى.

وعمومًا فإن العامل المشترك بين كل سلوكيات الاغتراب هو مايمكن عدّه حالة الغربة في التوحد وتداعياتها السلبية، وخصوصًا إذا كان رد الفعل الاجتماعي سلبيًا وتتداعى عنه سلسلة متبادلة ومتلاحقة من الثنائي بين الفرد والآخرين، وهو ماقد يعمق في نفس الفرد الإحساس بالعزلة والعجز والإحباط واللامعنى واللاهدف... الخ، وهو ماتترتب عليه أنماط من التصرفات قد تأخذ منحًى إيجابيًا لصالح الفرد والجماعة، أو منحًى سلبيًا يدمر به نفسه ويؤذي به غيره، أو مجرد توقف عن الفعل بسبب العجز المتنامي في سلوكه والمتبلور في واقع وعيه، ومن ثم تبدأ ثلاثية الوعي والإرادة والاتجاه نحو المستقبل في التفكك والتدهور والانهيار، وهو مايؤدي في النهاية إلى حاجة الفرد إلى الرعاية النفسية (حنو، ١٩٩٨، ص١-١٢) وقد أشار «ريبر» إلى وجود معان متعددة للاغتراب منها أنه يتضمن مشاعر الغربة أو الانفصال عن الآخرين والإحساس بالبرودة وفقدان حرارة العلاقة بهم ويشير «ريبر» أيضًا إلى أن المصطلح له موقع مركزي لدى الوجوديين في تفسيرهم للوجود الإنساني (٢٤: ١٩٩٥و Reber).

ثانيًا ـ تصور ماركس للاغتراب (١٨١٨ ـ ١٨٨٣):

عندما صاغ ماركس نظريته حول الاغتراب في مؤلفه مخطوطات ١٨٤٤ كانت آراؤه متأثرة إلى حد كبير بالأفكار السائدة عند الاشتراكيين الثوريين في الفكر المتعلق بالاغتراب. فالروح المغتربة في الطبيعة عند هيجل أو إنسان فيورباخ المغترب في الدين صارا عند ماركس الإنسان المغترب في المجتمع، وذلك ماتوضحه القضايا الأساسية التي طرحها ماركس عندما ناقش مفهوم الاغتراب، فقد بدا اغتراب العمال عنده في صورتين: الاغتراب عن ناتج العمل، واغتراب العمال عن العمل نفسه، وبتعبير آخر لاينتمي الإنتاج للعامل، كما أن العمل نفسه لاينتمي لماهيته الإنسانية، ومن ثم فإن ماركس يؤكد على أن الإنسان لم يعد يشعر بحريته في أفعاله المتعلقة بالعمل وعملية الإنتاج (شتا، ١٩٩٣، ص١٢٣) وعليه يذهب ماركس إلى أن نفي الاغتراب في المجتمع يتوقف على تغيير البناء الاجتماعي لهذا المجتمع.

وقد كان استخدام ماركس لمفهوم الاغتراب في مخطوطات ١٨٤٤ وأعماله الفلسفية الأولى التي لم تنشر ذات معنى مزدوج، والمعنيان كما عينهما (دانيل بل) في إعادة تحليله للاغتراب يشير أولهما لجوانب تخرج الذات، فالإنتاج يظل موضوعًا مستقلاً عن ذات المرء، كما يتضمن المعنى الثاني للاغتراب انفصال ذات المرء عن الآخر، وذلك يعني بصورة عامة أن انفصال العامل عن العمل، وناتج العمل يتم خلال خضوعه وفقدان الحرية في ظروف العلاقات الاجتماعية التي تسم الإنتاج في النسق الرأسمالي، وفي كتابات ماركس الأخيرة اختفى المعنى السيكولوجي للاغتراب، وبقي الشكل الذي ظهر فيه الاغتراب في مؤلفه رأس المال، وهو تشيؤ السلع، وهو واضح في فكرة التشيؤ، فالناس يشترون السلع والأشياء دون أن يتحققوا من أن كل سلعة مطمور فيها قوة العمل، ولايدركون التنظيم الاجتماعي لإنتاج وتوزيع المنتجات، إذ يخفي تبادل المنتجات في السوق العلاقات الاجتماعية والتي صارت بسببها الروابط الشخصية غير شخصية، والعمل معًا في إنتاج السلع، وفي بيع قوة عمله الخاص يصيران الآن موضوعًا (كريب، ١٩٩٩، ص٣٠٩) وبالتالي يحدث الاغتراب، بشكل عام، حينما تسيطر على الإنسان البيئة الاجتماعية أو البنى الاجتماعية التي خلقها هو بيده، وقد حدد ماركس بعض جوانب هذه الظاهرة التي تنطبق على المجتمع

الرأسمالي - إذ ينفصل البشر ولايسيطرون على معالمها، وينقطعون عن قدرتهم على العمل واتخاذ القرارات، بل يبدو كما لو أنهم مجبرون على العمل من قبل أناس آخرين، والحق أن هذه الحالة هي الحالة السائدة في الكثير من الأحيان.

الاغتراب إذن، حالة يصبح فيها البشر دُمى للنظم الاجتماعية التي صنعوها هم بأيديهم (المرجع السابق، ص٢٩٨).

وفي ضـــوء هذه الرؤية لنظرية الاغتراب عند ماركس أقام (أوزيبوف) تحليله لنظرية الاغتراب مشيرًا إلى أن الحياة الاجتماعية للفرد أو حياته في العمل تصبح في ظروف الاغتراب منطقة تنعدم فيها الحرية، كما أن العلاقات الاجتماعية لايقيمها الإنسان بمحض إرادته، وذلك لأنها تصبح قوى غريبة عنه شأنها شأن قوى رأس المال التي تسلب حريته وتحرم عليه كل نشاط مستقل، و من ثم، وفي مـــثل تلك الظروف والأحـــوال لايتوفر للإنسان شعوره بحريته أو ذلك ماأوضحه ماركس في مؤلفه مخطوطات ١٨٤٤ (ماركس، ١٩٧٠، ص ١١٣).

ومن ثم ذهب (أوزيبـــــوف) إلى أن القضية هنا ليست قضية وعي الإنسان بذاته، فالأشكال الاجتماعية المغتربه للنشاط البشري تفقد فعلاً الوجود البشري للوعي والنشاط الهادف أو من ثم تتمزق وتنقسم العلاقات الاجتماعية السوية للفرد أو هي العملية التي ينظر إليها علماء الاجتماع الغربيين على أنها شيءٌ طبيعي متضمنٌ بالضرورة الطبيعية الفردية المطلقة بصفتها الأسلوب الذي يحتفظ به الإنسان بفرديته (Osi Pov1969 وp23) ولاريب أن هذا التمزق الذي تتعرض له العلاقات الاجتماعية للأفراد يترتب عليه بالضرورة فقدانهم لفرديتهم الحقيقية والتي لايتمكنون من تحقيقها بصورة كاملة إلا بالعمل الخلاق المفيد اجتماعيًا، والمنظم اجتماعيًا، ولما كانت الملكية الخاصة منتجًا في حد ذاتها، وذلك لأنها النتيجة التي تترتب بالضرورة على العمل المغترب وجوانبه الأساسية لدى ماركس على النحو التالي: (العمر، ٢٠٠٠، ص١٦٧).

١- اغتراب العمال عن إنتاج عملهم عندما ينتج ويصبح ملكًا للآخرين وليس لصناعة أو مبتكرة، أي سيطرة عليه.

٢- اغتراب العمال عن صيرورة الإنتاج، إذ يصبح العمال منفصلين عن عطائهم الإنتاجي الذي يقدم لهم الاكتفاء الذاتي، وهذا يلزم العمال على أن يشاهدوا هذا الموقف على أنه نتيجة حتمية، ويروا عملهم قد أخذ منهم مقابل استلامهم أجراً

محدداً، أي أنهم باعوا إبداعهم وجهدهم للآخرين (أصحاب العمل).

٣ - عزل العمال عن طبيعتهم البشرية بسبب حرمانهم من النشاط الإنتاجي الذي هو في الأساس إنتاجهم وإبداعهم، الذي يختلف عن مساهمة الحيوان في عملية الإنتاج.

٤ - عزل العمال عن باقي الناس طالما تقوم الرأسمالية بتحويل أو نقل العلائق الاجتماعية إلى علاقات السوق، فالناس يتم الحكم عليهم من قبل مواقعهم في السوق أكثر من كونهم أفراداً لهم أحاسيس وأعمال خلاقة.

ثمة حقيقة في هذا الطرح مفادها أن رأسمال المال يُعد بذاته مصدراً للاغتراب أكثر من عدة ضمن تطور الاقتصاد الرأسمالي، وهذا يرجع إلى تراكم رأس المال الذي يعمل من خلال حاجاته التي يقوم بتحويل الناس إلى مجرد سلع بجعل العمال آليات في العملية الرأسمالية، وأن جهدهم مسيطر عليه من قبل متطلبات المنافع أكثر من حاجات الأفراد البشرية ضمن اقتصاد السوق، قوانين تتحكم في تكديس السلع في موقع السوق، وهذه القوانين تتضمن مجموعة آليات سطحية غير شخصية تسيطر على كافة الأنشطة الاقتصادية.

وإذا كان من رأي ماركس أن الشيوعية إنما تدرك نفسها على أنها قائمة من أجل إعادة التكامل الإنساني، وحل الاغتراب، وذلك ماشغل (أوجين كامنكا) في كتابه: الأسس الأخلاقية للماركسية، حيث أشار إلى أن ذلك يرجع لإيمان ماركس بأن الشيوعية كحل إيجابي وتجاوز للملكية الخاصة وللاغتراب الذاتي الإنساني، ولهذا تكون الشيوعية هنا على أنها التملك الحقيقي للماهية الإنسانية للإنسان، ولأجل الإنسان، ومن ثم تكون الشيوعية هنا على أنها العودة الكاملة والواعية من جانب الإنسان بعدّه إنساناً اجتماعياً أي إنسانياً، وأنها الحل الأصيل للصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، وأنها الحل الحقيقي للنزاع بين الوجود الإنساني والكينونة الحقة بين التموضع وتأكيد الذات، بين الحرية والضرورة (كامنكا، ١٩٧١،ص١٢٧) وبالنسبة لماركس يكون لهذه الاستنتاجات أهمية بالغة،وذلك لأن اغتراب العمل هو مرحلة ضرورية في التطور البشري غير أن له أصلاً في التاريخ وإذا كانت الملكية الخاصة نابعة عن اغتراب العمل، فهي أيضاً تاريخية وهذا يعني أن كلاهما يمثل مراحل في تطور البشرية سيتم تجاوزها في المجتمع الشيوعي. وفي ضوء تلك

النظرة يكمن المجتمع العقلاني، ويتعين دور المادية التاريخية الإيجابي في قهر الاغتراب في تلك المرحلة التي تمثل بداية تاريخ الإنسانية (Iıov oKov و 1973 ،p. 8).

ثالثًا: تصور دوركهايم للاغتراب (١٨٥٨ ـ ١٩١٧):

اهتم دوركهايم بقضية العلاقة بين الحرية والضرورة، معلقًا عليها بقوله: إن فهم العلاقة بين الذات والموضوع هو المدخل السليم لفهم العملية الاجتماعية للاغتراب ، وقد ذكر (مايو) أن الهدف الرئيسي الذي شغل دوركهايم حتى عام ١٨٩٧ هو أن يظهر أن الحضارة الصناعية وهي تمضي في تطورها السريع تعاني من مرض يطلق عليه (الأنومي) وقد ترجم (مايو) هذا المصطلح حرفيًا على أنه فقدان المعايير، ويستطرد (مايو) في شرح ذلك بقوله إن الدعوة التي يركز عليها دوركهايم هي: «أن المجتمع البسيط يعيش بنظام معين تخضع فيه مصالح أفراده لمصالح المجموع وهو بذلك يريد أن يفسر العلاقة بين الفرد والمجتمع، غير أنه لايعني بهذا الخضوع أي شيء سياسي أو أخلاقي، ولكنه يشير لحقيقة أخرى تتمثل في أن الفرد الذي يولد كعضو في مجتمع يمكن أن يرى أمامه المهمة التي سوف يضطلع بها ويحققها من أجل المجموع عندما يبلغ سن الرشد وعندما ينتظره هذا التوقع في المستقبل ينظم تفكيره وأعماله في السنوات التي ينمو خلالها. وفي سن النضج يتبلور هذا كله في شعور الفرد بالارتياح عندما يعمل من أجل المجتمع، وعندما يشعر بأهميته بالنسبة له. ومن ثم يشعر طوال حياته بالتضامن والتماسك مع الجماعة، وذلك ماتضمنه مؤلف دوركهايم حول الانتحار (دوركهايم، ١٩٥٠، ص ٩٧) ومن ثم ذهب دوركهايم إلى حد القول بأن التطور الحديث قد قضى على هذه الحياة التي تتسم بالعمل المرضي من أجل الفرد والمجموع.

وقد ذهب (روبرت نزبت) ـ وهو بصدد تفسيره لتصور دوركهايم للاغتراب ـ إلى أن حالات الضجر، والقلق، واليأس كانت غير معروفة نسبيًا في المجتمع البدائي، في حين أنها تتصاعد وتتزايد في المرتبة. ودوركهايم هنا يشير لحالة عدم للسعادة البشرية التي تصاحب التقدم. كما يؤكد على تناقض السعادة بتزايد تطور تقسيم العمل، وأن الأوقات التاريخية تكون بالضرورة مليئة بالقلق والتشاؤم. (Nisbet, 1952, P275).

ومن ثم نجد اهتمام دوركهايم بعزلة الإنسان الحديث عن المجتمع التقليدي يهيمن على كل أعماله. وذلك ماتوضحه

إشاراته المستمرة لهذه القضية في مؤلفه الأول «تقسيم العمل» وبحثه القيم حول الانتحار. فقد أشار للتضامن الاجتماعي، وهو الذي لايرى فيه أي إهدار لقدر الإنسان على نحو ما ذهب (توكفيل) والذي أشار قبل دوركهايم إلى عزلة الإنسان عن روابطه التقليدية بعدّها مصدرًا لاغترابه في المجتمع الحديث

والجدير بالذكر أن (دوركهايم) يرى أن اليأس والوحدة التي لاتحتمل في التاريخ الحديث والتي يصاحبها خوف الذات، واكتئابها، وقلقها الزائد، تعد نتائج مباشرة للنزعة الفردية التي سادت التاريخ الحديث، ومن ثم ترتبط نزعة التحديث عنده بإنهاك القوى لمعنى المجتمع الذي يستطيع وحده بلوغ الفردية. ويعزز (دور كهايم) هذه النتيجة الرئيسية للتصنيع، والديمقراطية الجماهيرية، والنزعة العلمانية، ومن ثم نجده يرى أن من سمات تطورنا الحقيقي الانهيار المتعاقب لكل السياقات الاجتماعية الراسخة، حيث استبعد الواحد منها تلو الآخر. أما بتحللها البطيء على مر الوقت أو بواسطة الثورة المفاجئة، وذلك دون أن يتطور أي طراز آخر ليحل محلها (غيث، ١٩٦٢، ص٤٥).

ورغم أن (دوركهايم) قد اعتمد في تفسيره لظاهرة الاغتراب على ضعف المجتمع، والذي يشير إلى أن الوقائع الاجتماعية ظواهر عامة تميز مجتمعًا بأسره، وتمارس قهرًا خارجيًا على الأفراد، إلا أنه عدل موقفه النظري هذا فيما بعد عندما أشار إلى أن الوقائع الاجتماعية ليست خارجية بالضرورة بالنسبة للفرد، وإنما يمكن أن تكمن داخله في صورة الشعور أو الضمير الجمعي، والذي يعدّه دوركهايم الموجه القيمي العام في المجتمع الحديث (بيومي، ١٩٩٠، ص٧٩) ومن ثم نجد أن إضعاف الضمير الجمعي عند (دوركهايم) يعني عجز المجتمع عن تحقيق الفردية.

وفي كتابه «تقسيم العمل في المجتمع» يميز بين نمطي التضامن الاجتماعي (الآلي والعضوي) من خلال تناوله للتغيرات التي تحدث في المجتمع نتيجة للتغيرات التكنولوجية وكيف يؤدي ذلك بدوره على نسق القيم والتوقعات المشتركة، وطبيعة النظام الأخلاقي، وقد أطلق على هذا المجتمع اسم مجتمع التضامن العضوي في مقابل التضامن الآلي الذي تلعب فيه القيم دورًا أساسيًا في الحفاظ على تماسك المجتمع من خلال خلق مايمكن أن يسمى بالاتفاق القيمي داخل المجتمع، أما في المجتمعات غير الصناعية المتقدمة، فقد رأى أن القيم

بالإضافة إلى العرف والأخلاق هي التي تعبر عن العقل الجمعي الذي يشكل أساس الشرعية لكل تفاعلات الحياة الاجتماعية، أما التضامن العضوي فينتج عن العلاقات المتداخلة لنسق مركب من تقسيم العمل، حيث نجد لكل فرد حريته واستقلاله الخاص به إلا أن هذه الحرية تحكمها قوة أخلاقية تسمو على الأفراد بحيث تضم هذه القوة الأخلاقية مجموعة القيم الأساسية التي رأى أنها تتولى تنظيم الواقع الاجتماعي. (مصطفى، ١٩٩٧، ص٤٠).

وفي معالجة (دوركهايم) لما أسماه بالأشكال الباثولوجية المؤقتة لتقسيم العمل، يتضح لنا تركيزه على تقسيم العمل القسري من ناحية، وتقسيم العمل الأنومي من ناحية أخرى، وذلك نتيجة لاهتمامه بتناول القضايا التي أثارها (ماركس) في هذا الموضوع للرد عليها وتزويدها بالحلول البديلة.

ونظام الطبقة المغلقة يشتمل على تنظيم مغلق لتقسيم العمل، ومن ثم لاتكون الطبقة الدنيا راضية بالدور الذي فرض عليها عن طريق العادات وبهذا قدم (دوركهايم) الشكل الباثولوجي الثاني المتمثل في تقسيم العمل القسري، والذي يفرض على الأفراد دون أي مراعاة للميول الموروثة، وهو بذلك يعزو حالات الألم والمعاناة لهذا النمط القسري من تقسيم العمل. وبالنسبة لهذا الشكل من التقسيم والمشكلات الناجمة عنه يشير(دوركهايم) أن حل هذه المشكلة يكمن أساساً في تغيير النظام القائم والمنتظم، وإحلال نظام آخر جديد محله تراعي فيه ميول الأفراد، وهنا يكمن الجانب الثوري في فهم (دوركهايم) لمشكلة الاغتراب (دوركهايم، ١٩٥٠، ص٧٢ - ٧٣).

رابعاً - تصور ماكس فيبر للاغتراب (١٨٦٤ - ١٩٢٠):

تضمنت أعمال (فيبر) إشارات ضمنية لمفهوم الاغتراب وإن كان لم يستخدم مصطلح الاغتراب نفسه، أو أي من مشتقاته، إلا اننا عندما نتناول بالتحليل أعمال ماكس فيبر المتعلقة بفكرة العقلانية، نجدها تمس مباشرة قضية الاغتراب عامة وبعد فقدان السيطرة خاصة، وقد أدرك (روبرت نزيت) هذا الجانب المتعلق بالاغتراب في فكر (فيبر) الأمر الذي جعله يبدأ تحليله لتصور (فيبر) للاغتراب بالإشارة إلى نغمة العقلانية .(Nisbet- 1971- P.300)

وترد هذه الرابطة بين العقلانية والاغتراب أساساً إلى أن النزعة العقلانية ليست مجرد عمليات سياسية، كما أن

تأثيرها ليس قاصرًا على البيروقراطية السياسية، وإنما يمتد تأثيرها ليشمل الثقافة عامة، والعقل البشري خاصة، وبالمثل نجدها ذات تأثير فعال على بناء الدولة الاقتصادي الحديث، فما دامت العقلانية تلتهم بناء المجتمع التقليدي والثقافة التقليدية، تلك التي تكونت عبر الماضي، والتي كانت تساعد بصورة عامة على عمليات الإبداع والتحرر، ومن ثم ارتبط الانحصار التدريجي لهذا البناء بتزايد عدم الافتتان بقيم هذا البناء ولذا صارت العقلانية بمثابة تهديد للإبداع والتحرر وبالتالي تدوير العقل (المرجع السابق، ص٢٩٤)، و(فيبر) هنا يعد تهديد التحرر والإبداع نتيجة مباشرة للعقلانية التي تسلب الافتتان بقيم الثقافة التقليدية.

ولذا يظهر اغتراب (فيبر) من انحراف النزعة العقلانية، إذ أن العقلانية والقوى التي عملت على تحرير الإنسان من طغيان الماضي، قد أوقعته في حبائل العقلانية التي سلبته الحرية والمعرفة ،والتي تمثل أكبر طاقة واجهها الإنسان نظرًا لأنها تعد أكثر عبئًا من أي قوة سيطرت على الإنسان وسلبته حريته في الماضي.(شتا، ١٩٩٣، ص١٣٥).

وإذا كان ماركس قد اهتم بقضية الانفصال خلال الخضوع مركزًا اهتمامه على ملكية وسائل الإنتاج ومايترتب على ذلك من مغبة انفصال العامل عن هذه الوسائل، فإن ماكس فيبر قد اهتم أيضًا بالانفصال خلال الخضوع مركزًا اهتمامه على تزايد تمركز وسائل الإدارة وانفصال العامل عنها، ومن ثم يتفق ماكس فيبر مع ماركس فيما يتعلق بسلب حرية العامل نتيجة لانفصاله خلال الخضوع، سواء كان هذا الخضوع نتيجة لتركيز وسائل الإنتاج في أيدي السيد أو تركيز الإدارة، والذي يحدث في التنظيمات العامة، ولا يقتصر في نظر (فيبر) على المشروع الرأسمالي ولكنه يشمل التنظيمات العامة، ومن ثم وجه نقد ماكس فيبر للنزعة الرأسمالية التي عدها ظاهرة حديثة، شديدة التعقيد، ومتسمة بالعقلانية العالية، التي عمت جميع مظاهر الحياة في النسق الاقتصادي والاجتماعي الحديث (zeitin- 1963- P124).

وبتحليل مفهوم السلطة والذي يعد مفهومًا محوريًا في نظرية ماكس فيبر حول البيرقراطية وأنماطها الثلاثة المتمثلة في السلطة التقليدية، والسلطة العقلانية، والسلطة الكارزمية – الملهمة –، نجد ماكس فيبر قد كشف عن مظاهر اجتماعية ثلاثة لظاهرة الاغتراب في التنظيمات الحديثة، تمثل المظهر الأول في الاعتماد وسلب

الحرية وفقدان السيطرة المترتبة على طبيعة الانفصال نتيجة الخضوع للنسق القانوني في التنظيمات الحديثة بعد أن كان سلب الحرية يرجع لطبيعة الخضوع بالنسبة للشخصية الكارزمية ولطبيعة السنن الاجتماعية التي تقوم عليه السلطة التقليدية، ورغم أن الخضوع في نمط السلطة التقليدية ونمط السلطة القانونية يشير لخضوع الذات للموضوع، وليس خضوع ذات لذات فإن ثمة اختلافًا قائمًا بين الموضوعين، إذ أن الموضوع في السلطة التقليدية قائم على طبيعة التقاليد والسنن الاجتماعية ومدى سيطرتها على الأعضاء، وذلك ماكان سائدًا في المجتمعات التقليدية والتي تناولها دوركهايم في نمط التضامن الآلي وتناولها تونيز في نمط المجتمع المحلي، والتي يعرض لها فيبر تحت نمط السلطة التقليدية حيث تكون التقاليد موضوعًا للخضوع، وسلب الحرية، وفقدان السيطرة من حيث أن موضوع الخضوع وسلب الحرية وفقدان السيطرة في المجتمعات الحديثة يرجع لطبيعة النسق القانوني السائد حيث تكون الطاعة لمجموعة من القواعد والمبادئ الموضوعية التي تعين الواجبات والالتزامات، والتي بمقتضاها يمارس الرئيس سلطته في الإطار الذي رسمته القواعد القانونية،

وتمثل الاغتراب الثاني في الانفصال الذي عينه فيبر عند تحليله لطبيعة السيطرة على العامل بواسطة الإدارة المنظمة والإجبارية والتي عينها ماركس على هذا النحو وإن كانت تقوم على الملكية الخاصية (Osipov- 1969, P24).

وإذا كان ماكس فيبر ينظر للإدارة البيروقراطية على أنها في الأصل ممارسة الضبط على أساس المعرفة فإن هذه الخصائص المعنية للنموذج المثالي للبيروقراطية عند فيبر تشترك فيما بينها من حيث نسق الضبط القائم على مجموعة من القواعد والمبادئ الرشيدة، وإذا كان فيبر يهتم بالمعرفة والفهم، فلأنه يؤكد أنها (أي المعرفة) تزود الناس بالوضوح الكافي للوقوف على الوسائل والقيم الصادقة، وتحقق الرؤية الواضحة للدوافع والغايات والوسائل ونتائج السلوك، ومن ثم يؤلف فيبر بين الحرية والضرورة على نحو مافعل هيجل وماركس عن طريق المعرفة العلمية التي تزودنا بالرؤية الداخلية لطبيعة القيم الموجهة لأفعالنا ونوع القيم التي نتمسك بها، وهذا النوع من المعرفة والوضوح لأفعالنا وعواقبها يجعل المسؤولية الأخلاقية ممكنة وذات معنى، ومن ثم يسعى فيبر لقهر الاغتراب بالتأليف الجدلي بين المسؤولية والحرية عن طريق

المعرفة العلمية التي تحقق الوضوح بدوافع السلوك الداخلية والخارجية، والقيم الموجهة لأفعالنا وأهدافها والوسائل المجارية لهذه الأهداف وعواقب السلوك وذلك في نظره يحقق درجة عالية من حرية العقل ومسؤوليته (zeitin- 1969-P157).

خامساً، تصور جورج زمل للاغتراب (١٨٥٨ - ١٩١٨):

ركز زمل - في تفسيره للاغتراب على خوفه من أن فردية الإنسان في المجتمع المعاصر سوف تتصدع لأنه يعيش في الظروف التي تلزمه لأن يصير مغترباً عن ذاته الخاصة، وثمة دلائل عديدة تشير إلى أن هذا الفهم يمد واحداً من القوى الحاسمة في تفكير الإنسان الحديث وفي تقدير (فركز بابنهيم) أن هذا هو الركيزة التي تقيم عليها الفلسفة الوجودية حجتها القوية في هذا الشأن (شتا، ١٩٩٣، ص٩٩) ومن ثم جاء اهتمام (نزبت) بقضية طغيان النزعة الموضوعية في فكر زمل وهو بصدد تحليله لقيمة اغتراب الانسان. وفي ذلك يستهل حديثه بقوله: إن المشكلة العويصة للحياة الحديثة على نحو ماكتب جورج زمل في مقالته الشهيرة حول المدينة العاصمة، تتمثل في الحفاظ على الفردية في مواجهة القوى التي تكتنفها وتغمرها في خضم التراث التاريخي والثقافة (Nisbet- 1968- P 305). والتي ترتب عليها في نظر زمل عدم مقدرة الإنسان على الحفاظ على معنى توحد الذات في مواجهة التيارات المختلفة، وهنا يتعرض زمل لقضية العقلانية الفردية، وما حدث في القرن الثامن عشر بالنسبة لزيادة التخصص الوظيفي، الذي جعل كل فرد لايقاس بالآخر، ومن ثم يذهب إلى أن كل شيء يؤدي بالضرورة في تلك الظروف إلى عدم توحد الفرد بصورة لا يعرفها التاريخ من قبل، وما ذلك في نظره إلا نتيجة لعتق الإنسان وتحرره من الروابط التاريخية في المجتمع، ذلك التحرر المشروط بغياب وعي الإنسان، ومن ثم كان اهتمام زمل بمظاهر اغتراب الإنسان الحديث المتمثلة في الشرود والغثيان اللذين تتسم بهما شخصية الإنسان، وفي ضوء هذه الرؤية يتناول زمل المجتمع الحديث ونزعة التحديث المتمثلة في المدينة الكبيرة، حيث يميل كل إنسان للاستغراب والاندهاش، تماثل عنده الدور الذي تلعبه الديمقراطية بالنسبة لتوكفيل، والرأسمالية بالنسبة لماركس، والبيروقراطية بالنسبة لماكس فيبر.

والأساس السيكولوجي لنمط فردية مجتمع العاصمة، يتوقف على تكثيف المثيرات العصبية، التي تنجم عن التغيرات

السريعة والدائمة للمنبهات الداخلية والخارجية ، ومن ثم يشير زمل إلى أن مجتمع العاصمة الحضرية يسلب من الإنسان وعيه بصورة أكثر مما يتسم بالنسبة للوضع الريفي (المرجع السابق، ص٢٠٩) الأمر الذي يترتب عليه تجسيد الإحساس بالفردية، والانسحاب من العالم الخارجي، والاعتزال والانكماش في الملذات ومن ثم يكون للاغتراب في نظر زمل وظيفة اجتماعية تتمثل في عدّه كقوى خالقة أو مبدعة في الثقافة، هذا بالإضافة إلى اهتمام زمل بالتنظيمات الكبرى وما تمارسه من ضغوط على الإنسان، واهتمامه بتشخيص التطور الكلي للثقافة الحديثة لإظهار زيادة أهمية ماأسماه الروح الموضوعي على الروح الذاتي، ونتيجة لهذه الأهمية المتزايدة في نظر زمل تزايدت صعوبة تعرف الفرد على ذاته كذاته، إذ يرى نفسه مجرد جزء للثقافة الخارجية الموضوعية، ومن ثم صار الفرد في نظره مجرد ترس في التنظيم الضخم الذي يحيل ذاته من الشكل الذاتي لشكل الحياة الموضوعية الخالصة، وهو في ذلك يشير إلى أن المدينة الكبيرة هي المسرح الأساسي لهذه الثقافة التي تتفوق على فكرة الحياة الفردية، وبهذا يجيب زمل على السؤال: عما هي وظيفة العاصمة الكبيرة؟ بأنها تمثل النضال المصيري الذي يحتوى الإنسان فيه تماماً. (المرجع السابق، ص٣١١).

وبالتالي انصب اهتمام زمل في تحليل علاقات الصراع وعلاقات الخضوع، لأن العلاقات التي تنشأ بين الأفراد في حالة الاجتماع في نظره مثل الصراع والتنافس والخضوع وتقسيم العمل ماهي إلا ظواهر موجودة في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، وهو بذلك يقرر أن «هناك صراعاً في شؤون السياسة بين المذاهب الاقتصادية، وبين المعتقدات الدينية والمعايير الأخلاقية والفنية. وهناك خضوع في الأسرة وفي المدرسة وفي بيوت العبادة وفي دور القضاء.. الخ (الخشاب، ١٩٦٦، ص٧).

سادساً ـ تصور فردناند تونيز لمفهوم الاغتراب (١٨٥٥ ـ ١٩٣٦):

لقد انصب اهتمام (تونيز) على مايصاحب المجتمع الكبير من نمو للإرادة الجديدة، والتي ترتب عليها اغتراب الإنسان، الذي عبر عنه تقلص روابطه، ونمو اللاشخصي، وغياب الإرادة التلقائية، والانشطار بين الوسائل والغايات، وقد استخدم تونيز مفهومي المجتمع المحلي والمجتمع الكبير في مؤلفه المعنون بهما

والذي نشر في عام ١٨٨٧، غير أنه لم يمارس تأثيره على الفكر السوسيولوجي لعدم شهرته إلا بعد نشره للمرة الثانية في عام ١٩١٢. وقد ترجم المصطلح الأول بالمجتمع المحلي، الذي يقوم بدوره على العنصر والأمة، أما بالنسبة للمصطلح الثاني والذي ترجم بالمجتمع فقد أشار إليه (نزبت) مؤكداً ضرورة الاهتمام به وأخذه على أنه نمط خاص للعلاقات البشرية (Nisbet - 1968 - p74).

وقد لاحظ (فركز بانهيم) أن تونيز كان مهتمًا بوجه خاص بالالتقاء بين التحول من المجتمع المحلي إلى المجتمع، والتحول نحو العقل البشري والإرادة، ومن ثم كان دائمًا مدركًا للمدى الذي يتداخل فيه العقل والمجتمع، وقد كان هذا موضوع القسم الثاني لكتابه والذي عنونه بالإرادة الطبيعية (الإرادة الجماعية) والإرادة الرشيدة (الإرادة الاجتماعية) ومقارنته ذلك بالتمايز بين المجتمع المحلي والمجتمع. (الخشاب، ١٩٦٦،ص٨١).

وقد ميز تونيز بين شكلين للإرادة البشرية: الأولى ويسميها الإرادة الطبيعية والإرادة المتكاملة وهي تشير للتعبير التلقائي عن دوافع الإنسان، ورغباته، وهنا يتوفر كل عناصر الحب، والولاء، والشرف، والصداقة وما إلى ذلك في المجتمع المحلي، وتتولد عنه (Nisbet - 1968 - p76) ومن ثم اكتسبت الإرادة الطبيعية صفة الإرادة المتكاملة وتلقائية التعبير. أما الإرادة الثانية فهي التي أسماها تونيز بالإرادة العاقلة وهي التي شكلت بصورتها الأولى العملية المتعمدة للذهن الرشيد، كما أنها تفتقد الكيفيات التلقائية، والدافعية التي تصاحب الإرادة الطبيعية، وإذا كانت العناصر الأخلاقية الإيجابية تسود المجتمع المحلي، وتمارس تأثيرها على الإرادة الطبيعية، فإن هذه العناصر الأخلاقية الإيجابية لاتجد سبيلها في المجتمع، وإنما القانون هو الذي يسود في هذا المجتمع (المرجع السابق، ص٧٧). ويشير تونيز إلى أن الأفراد الذين تسود لديهم الإرادة الطبيعية يكشفون عن كيفية الاستقامة في شخصياتهم، ومن ثم تبدو شخصياتهم في كل أفعالهم، في حين فقدت الفردية عندما سادت الإرادة العاقلة، ومن ثم يقرر تونيز أن إدراك الوسائل والغايات بعدّهما فئتين منفصلتين وغير متحدتين، هو صميم الإرادة العاقلة، في حين أن الاثنتين تكونان مرتبطتين وتظلان غير مختلفتين في الإرادة الطبيعية، ولإيضاح الفرق بين الإرادة الطبيعية والإرادة العاقلة، نختار مثالاً من دائرة العمل البشري ومن خلاله سوف تتضح مظاهر الاغتراب في تصور تونيز للمفهوم.

إذ أن جميع العاملين وليس العاملون على خط التشغيل فقط ، قد صاروا لاشخصيين بدرجة عالية، كما أن الرضاء الذي غالبًا مايجده معظمنا في العمل ليس مصاحبًا للأنشطة المهنية التي نؤديها، وإنما أولاً وقبل كل شيء في الأجور، ومثل هذا العمل لايؤدى لذاته وربما لغايات أخرى، ومثل هذا النوع من العمل يتطلب المجتمع الذي قد تعلم فيه الأفراد التمييز بين الوسائل والغايات، ويمكن إنجاز مثل هذا العمل فقط عندما يكون نشاط الإنسان موجهًا بواسطة الإرادة العاقلة. (Nisbet - 1968 - p71). إذ أن هذه الإرادة تمكن من التفكير بطريقة محسوبة، ومن ثم يقال إن الإنشطار بين الوسائل والغايات هو جوهر العمل، لأن الدوافع للعمل يمكن أن تنشأ عن الإرادة الرشيدة فحسب وليس عن الإرادة الطبيعية، وقد ترتب على ذلك ظهور الميل لانفصال الوسائل عن الغايات.

ومن الملاحظ للأنواع المختلفة من العلاقات البشرية التي تعينها الإرادة العاقلة والإرادة الطبيعية، يمكننا رؤية المصاهرة القائمة بين الإرادة الطبيعية والمجتمع المحلي في جانب، والإرادة العاقلة والمجتمع في الجانب الآخر (الخشاب ١٩٦٦ ـ ص٨١).

وبالتالي نجد تونيز يؤكد في فهمه لقضية الاغتراب في المجتمع على أنه انفصال الإنسان عن روابطه التقليدية، وغياب معرفته التي كانت توفر له الإرادة الطبيعية، في حين تتجسم المشكلة في نمو الفردية، وتمركز الفرد حول الذات، وتحول كل شيء بحيث يصير مجرد وسيلة للغاية، وبالتالي تغير طبيعة العلاقات مع الآخرين واغترابها.

سابعًا ـ تصور ايرك فروم للاغتراب:

ظهر اهتمام فروم بقضية الاغتراب مبكرًا فكانت القضية الرئيسية التي دار حولها الجدل في مؤلفه الهروب من الحرية عام ١٩٤١، وذلك مايوضحه استخدامه لمفهوم الاغتراب ومشتقاته المتمثلة في فقدان السيطرة، وسلب الحرية، والتسلطية، والتخريب، والمجاراة الاتوماتية، والانعزال، وهي المصطلحات التي تعرض لها بالشرح عند تحليله للعملية الاجتماعية والنفسية التي تفضي لفقدان السيطرة خاصة عند رصده لميكانزمات الهروب من الحرية بمعنييها الإيجابي والسلبي (Fromm - 1966 - p.123). ومن ثم جاء تحليله لبناء شخصية الإنسان الحديث، ومشكلات التفاعل، والعملية الاجتماعية التي تؤدي لفقدان السيطرة، وميكانزمات الهروب من الحرية ليؤلف فيما بين العوامل السيكولوجية والعوامل

السوسيولوجية في تفسيره للأزمة الثقافية، والاجتماعية، وأزمة الشخصية، وذلك لأنه ينظر لجميع تلك الجوانب على أنها ذات علاقة بمشكلة حرية الإنسان الحديث، ومن ثم يسلم منذ البداية بأن فهم معنى الحرية فهمًا كاملاً لايمكن تحقيقه إلا بتحليل البناء الكلي لشخصية الإنسان الحديث، بما في ذلك من عوامل سيكولوجية، واجتماعية وثقافية (المرجع السابق، ص٤).

وقد حاول فروم أن يوضح في مؤلفه الهروب من الحرية أن الحركات الشمولية في العالم الحديث كانت نتيجة أن الإنسان الحديث قد هرب من روابط العصور الوسطى، ولكنه لم يكن حرًا لأن يقيم حياة ذات معنى كامل، تقوم على العقل والحب ومن ثم وجد أمنه الجديد في الخضوع للقائد والدولة.

وفي مؤلفه المجتمع السليم حاول أن يبين أن الحياة في ديمقراطية القرن العشرين تشتمل على طرائق عديدة أخرى للهروب من الحرية وأثناء تحليله لهذا الهروب ركز بوجه خاص على مفهوم الاغتراب ولهذا احتل المصطلح جزءًا كبيرًا من هذا الكتاب (المرجع السابق، ص١٤٢).

وعندما يناقش فروم النسق الصناعي الحديث يذهب إلى أن الروح التي يقيمها هذا النسق تعم جميع جوانب الحياة وتشكل شخصية الإنسان عامة «وتشدد من التناقضات لأنها تنمي الفرد، وتجعله بلا حول ولا قوة، فرغم أنه يريد الحرية إلا أنه يخلق اعتمادات من نوع جديد» وهنا يعترف فروم أنه لم يحاول وصف تأثير الرأسمالية على بناء الشخصية، وذلك لأنه ركز فقط على جانب واحد لهذه المشكلة العامة، وهو الطابع الجدلي لعملية نمو الحرية، وكان هدفه من ذلك أن يبين أن بناء المجتمع الحديث يؤثر على الإنسان بطريقتين معًا: فهو يصير أكثر استقلالاً، وفي الوقت نفسه يصير أكثر انعزالاً ووحدة وخوفًا، ومن ثم يذهب إلى أن فهم المشكلة الكلية للحرية يعتمد على المقدرة لرؤية الجانبين معًا عندما نتعقب أيًا منهما (المرجع السابق، ص١٢٤).

وعرض فروم بعد ذلك لمظهر آخر من الاغتراب يتمثل في شكل الحرية الجديدة الذي صاحب النزعة الرأسمالية فبرغم أنها أعطت الفرد حريته إلا أنه قد صار وحيدًا، ومنعزلاً، وصار أداة في أيدي قوى عاتية خارج ذاته وفي نهاية تحليل فروم لمظاهر الاغتراب على هذا النحو يشير إلى أن فهم المشاكل السيكولوجية لايمكن تحقيقه بدون خلفياتها الثقافية

والاجتماعية ولايستطيع الواحد أن يفهم الظاهرة الاجتماعية بدون معرفته لميكانزمات الهروب وفقدان السيطرة والوحدة، إما بالخضوع لأشكال السلطة الجديدة وهذا يمثل أحد مظاهر الإغتراب في النسق الرأسمالي المعاصر، وإما بالمجاراة القسرية بالنسبة للمعايير المقبولة، وهذا مظهر آخر من مظاهر الاغتراب هذا فضلاً عن تحليله لمظاهر الاغتراب المصاحبة للنسق البيروقراطي، وما يترتب عليها من اغتراب العلاقات، فالذين يخضعون للإدارة ليسوا سوى أشياء ينظر إليهم البيروقراطي نظرة غير شخصية وغير إنسانية، أي مثل نظرتهم للأرقام والرموز، ويقرر في ذلك أن الروح البيروقراطية لم تتغلغل في العمل والإدارة والحكومة فحسب، بل شملت نقابات العمال والأحزاب الديمقراطية ومجالات الحياة الأخرى وهو في ذلك متأثر إلى حد كبير برؤية (فيبر) وتحليله للنموذج المثالي للبيروقراطية (شتا، ١٩٩٣، ص١٥٤).

ثامنًا ـ تصور روبرت ميرتون للاغتراب:

للوقوف على الجانب الهام في تصور ميرتون للاغتراب، لابد من الاطلاع على شرحه لأشكال السلوك المنحرف، إذ أنها الطرائق التي يتكيف بها الشخص مع المواقف، حيث تكون الوسائل المشروعة لبلوغ الهدف غير مجديه بالنسبة له.

وقد أكد ميرتون على وجود خمسة أنماط لتكيفات الفرد لإنجاز الأهداف المؤكدة ثقافيًا للنجاح لهؤلاء الذين يشغلون أوضاعًا مختلفة في البناء الاجتماعي، وأول هذه الأنماط المجاراة، أما الأنماط الأخرى فهي تكيفات منحرفة تتمثل في: التجديد والابتكار والطقوسية، والانسحاب والتمرد والثورة ، وميزان ميرتون لهذه الأنماط كما يلي (Merton -1962- p140):

أسلوب التكيف	نمط أساليب تكيف الفرد	
	الأهداف الثقافية	المعايير
المنظمة		
المجاراة	+	+
التجديد والابتكار	+	-
الطقوسية	-	+
الانسحاب	-	-
التمرد والثورة	- +	(١)- +

(١) + تعني تقبل، - تعني رفض، +- تعني رفض ما هو قائم والاستعاضة عنه ببديل.

١- المجاراة: فالمجاراة لكل الأهداف الثقافية والوسائل المنتظمة هي التكيف العام الغالب، وقد ذكر ميرتون أن التوازن الفعال بين جانبي البناء الاجتماعي يؤدي إلى إنتاج رضاءات للفرد المجاري لكلا التأكيدين الثقافيين، ويعني ميرتون بهذا أن الرضاء من إنجاز الأهداف، والرضاء الظاهر مباشرة من الأساليب المنتظمة للسعي من أجل تلك الأهداف تتعدد في السياقات المختلفة للسلوك والأنشطة... الخ (شتا، ١٩٩٣،ص١١٠).

٢ ـ الابتكار والتجديد: يتمثل هذا النوع من السلوك في مجاراة الأهداف المحددة ثقافيًا مع الخروج عن الوسائل المنتظمة، والمنحرفون هنا يستنبطون وسائل جديدة لانتهاك المعايير أو يعملون على استخدام الوسائل المنحرفة استخدامًا نافعًا، ومن ثم يتمثل هذا النوع من الانحراف في عدم مجاراة الوسائل المختارة للأهداف المقررة، وقد أسمى مرتون هذا الشكل من الانحراف بالتجديد والابتكار (شتا، ١٩٩٣، ص١١١) ومثل هذا الشكل من التكيف ينم عن أن الفرد غير متوائم اجتماعيًا مع تأكيد الأهداف الثقافية على تطلعات النجاح، وذلك مايترتب عليه الانتقاص التدريجي من الجهود المبذولة لاستخدام الوسائل غير المشروعة (Clinarg - 1969).

٣ ـ الطقوسية: قد يجاري الأفراد الوسائل المنتظمة، ولكنهم يفشلون في السعي من أجل الأهداف المقررة، وهم يستمدون رضاهم من مجاراتهم للوسائل، وفي الوقت نفسه يكونون متحررين من ضغط الهدف، ومن ثم يكون سلوكهم منحرفًا نظرًا لتوقع مقاومتهم عند مستويات معينة بالنسبة للأهداف المقررة، وقد أسمى (ميرتون) نمط التكيف هذا بالطقوسية ومن أمثلتها طقوسية البيروقراطية، وهم الذين يكونون شديدي التدقيق في مراعاة الروتين، ويفضلون الجهاد الملتزم بالإجراءات المنتظمة للحراك في التسلسل الاجتماعي، وفي مثل هذا النمط يكون قلق المراكز واضحًا في المجتمع الذي يتسم بالمجاراة الزائدة، والإذعان الزائد، ويسوق ميرتون مثالاً للإذعان الزائد مما يوجد بين كبار البيروقراطيين ومن ثم تعكس استجابة الطقوس المجاراة الزائدة للتوقعات المعيارية (Merton- 1966 - p 185)..

٤ ـ يتعين هذا النمط من الانحراف بهجر المنسحب لكل من الأهداف الثقافية والوسائل المنتظمة لبلوغ هذه الأهداف، وهنا يكون النسق الفيزيقي لهؤلاء المنحرفين في النسق الاجتماعي غير مصحوب بأي التزام بقيمة معينة، وهم يفشلون لحد بعيد في تحقيق نموذج التكيف الاجتماعي كما أنهم لايبذلون أية جهود لسد تلك الفجوة بالوسائل الملائمة أو غير الملائمة، فرغم وجودهم في النسق

إلا أنهم ليسوا معه فيما يتعلق بالأهداف والوسائل المحددة، فعندما يجد الفرد نفسه محبطة أو معوقة فإنه لايتخلى عن أهداف النجاح، ولكن بدلاً منها يتكيف مع ميكانزمات الهروب، وذلك مثل روح الانهزامية، والتصوف، والانسحاب، وتشكل الانسحابية بعضًا من أنشطة التكيف المغترب، ومن بين هؤلاء المنسحبين توجد فئات مدمني الكحول، ومدمني المخدرات أو الهامشيين، والمتسولين والأفاقين المنبوذين والمنفيين أو المطرودين (Clinard - 1969- p21)..

٥ ـ التمرد والثورة: يختلف هذا النمط عن الأنماط الأخرى اختلافًا واضحًا، إذ أنه يمثل الاستجابة الباحثة عن تأسيس أهداف وإجراءات جديدة تكون مشتركة بواسطة الأعضاء الآخرين للمجتمع، وهو لهذا يشير لجهود تغير البناء الاجتماعي والثقافي الكائن أكثر من جهود التكيف داخل هذا البناء، وهذا التكيف يؤدي بالناس خارج البناء الاجتماعي لرفض الأهداف والوسائل والبحث عن أخرى بديلة لها، وذلك يعني أنه يستهدف تعديلاً كبيرًا للبناء الاجتماعي ومن ثم فهو يؤدي للاغتراب عن الأهداف والمعايير السائدة (المرجع السابق، ص ١٧٧)

خاتمة

ومن خلال العرض السابق لمفهوم الاغتراب في منظور علم الاجتماع نجد أن هذا المفهوم ـ الاغتراب ـ يتعين لدى ماكس فيبر من خلال تأملاته حول العقلانية، وما يواكبها من اكتئاب روحي بعدّه جانبًا من الشعور بعدم الافتتان، وعند دوركهايم يتمثل في تأملاته حول اغتراب الفرد المتمثل في سوء التنظيم المرضي أو حالات تقسيم العمل الأمومي والعمل القسري، والفردية المتأصلة في أوروبا، والأمر يختلف عند (زمل) إذ أنه يرى الاغتراب من منظور ابستيمو لوجي، ومن ثم يعالجه منهجيًا بعدّه وسيلة لإثراء تحليل الشخصية البشرية وعلاقتها بالعالم أكثر من كونها نوعًا من التقدير الأخلاقي والروحي بينما نجد (فروم) يوافق (ماركس) على رؤيته لاغتراب الانفصال من خلال الخضوع، إلا أننا نجده يختلف عن ماركس في نقطة جوهرية وهي تتمثل في تأكيده على اغتراب الخضوع من خلال الانفصال، بينما نجد نقطة البدء في نظرية (ميرتون) للأمومي هي نسق الوسائل والغايات، وتتمثل عناصر مصوره في الأهداف الثقافية والمعايير المنتظمة، وموقف الفعل الذي يستند عليها، نجد تأكيد (تونيز) في فهمه لقضية الاغتراب في المجتمع على أنه انفصال الإنسان عن روابطه التقليدية أو غياب معرفته التي كانت توفر له الإرادة الطبيعية، في حين تتجسم المشكلة في نمو الفردية، وتمركز الفرد حول الذات وتحول كل شيء بحيث يصير مجرد وسيلة للغاية، وبالتالي تغير طبيعة العلاقات مع الآخرين واغترابها.

المصادر والمراجع

أولاً، باللغة العربية

١- أميل دوركهايم، (١٩٥٠)، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٢ - أرنست فيشر، (١٩٨٠)، ضرورة الفن، ترجمة ميشال سليمان، دار الحقيقة،بيروت.

٣ - السيد علي شتا، (١٩٩٣)، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة.

٤ - أوجين كامنكا، (١٩٧١)، الأسس الأخلاقية للماركسية، ترجمة مجاهد عبد المنعم، منشورات دار الآداب، بيروت.

٥ - إيان كريب، (١٩٩٩)، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين علوم، عالم المعرفة، العدد ٢٤٤، الكويت.

٦ - عبد الله الخطيب، (١٩٩٨)، الحضارة والاغتراب، النبوغ، بيروت.

٧ - عاطف غيث، (١٩٦٢)، علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة.

٨ - كارل ماركس، (١٩٧٠)، مخطوطات ١٩٤٤ - الاقتصاد السياسي والفلسفة، ترجمة إلياس مرقص، وزارة الثقافة، دمشق.

٩ - كارل ماركس، (١٩٧٩)، رأس المال، المجلد الثاني، ترجمة راشد البرواي، وزارة الثقافة، دمشق.

١٠ - طلال مصطفى، (١٩٩٧)، فلسفة القيم وبنية المجتمع، مجلة المعرفة، العدد ٤١٠، تشرين الثاني، وزارة الثقافة - دمشق.

١١ - ميتشل دينكش، (١٩٨١)، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة، بيروت.

١٢ - معن خليل العمر، (٢٠٠٠)، معجم علم الاجتماع المعاصر، ط١، دار الشروق، عمان - الأردن.

١٣ - محمد أحمد بيومي، (١٩٩٠)، علم اجتماع القيم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.

١٤ - مصري حنورة، (١٩٩٨)، الشخصية والصحة النفسية، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة.

١٥ - محمود رجب، (١٩٩٣)، الاغتراب، مسيرة المصطلح، دار المعارف، القاهرة.

١٦ - مصطفى الخشاب، (١٩٦٦) علم الاجتماع ومدارسه، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

ثانياً - المراجع الأجنبية:

1 - Kovolron.,S.Kell, (1973) Historical Material, Proyres publishers, Moscon.

2 - Fromm, E,(1966), Escape from fredom, Anlibrary Book,N.y.

3 - Merton,.R,(1962),social Theory and Social Structure chencoe, The free press.

4 - Marshall, clinard, (1969), Anomie and deviant Behavior, The free press.

5 - Nisibet.R.A., (1968), The sociologyical Tradition, Theories, london.

6 - Osipov,G.,(1969), Sociology Probloms of Theory and Method, Progress Publisher, Moscou.

7 - Reber, A,(1995), The Penguin dictionary of Psychology, Penguin Books, london,

8 - Ely, Chinoy, (1967), Society, Random House, N.y.

الدراسات والبحوث

83

قراءة في فقه العلاقات بين الثقافة والسياسة والاقتصاد

عبد الوهاب محمود المصري ❖

عندما تسقط طائرة، يبحث عن «الصندوق الأسود» لمعرفة وقائع الأحداث الأخيرة قبيل السقوط، واستقرائها بطريقة ما، للوقوف في النهاية على أسباب السقوط. وعندما تسقط (أو تنهار، أو تتخلف) أمة ما، ينبغي البحث عن «الصندوق الأسود» الذي هو الوحيد القادر على حفظ أسرار السقوط. وليس ذلك الصندوق، في ظننا على الأقل، سوى «العلاقات بين الثقافة والسياسة والاقتصاد» التي كانت سائدة قبيل السقوط.

ونقدم في هذا البحث قراءتنا للعلاقات بين تلك المجالات أو الفضاءات الرئيسة الثلاثة، فنبدأ بعرض لمفهوم كل من الثقافة والسياسة والاقتصاد، ونثني ببحث العلاقة بين الثقافة والسياسة، ثم العلاقة بين السياسة والاقتصاد، فالعلاقة بين الاقتصاد والثقافة، وننهي البحث بالخلاصة والنتائج.

(❖) عبد الوهاب محمود المصري: باحث اقتصادي واجتماعي، ومهتم بالشؤون الثقافية له كتابان اثنان وكثير من الأبحاث والمقالات في الصحافة الوطنية والعربية.

١ - في مفهوم الثقافة

يتفق الفرد في المجتمع مع بعض الناس في كل النواحي، ويتفق مع بعض الناس في نواحي أخرى، ولا يتفق مع أي من الناس في نواحي ثالثة. وتهتم علوم البيولوجي والفسيولوجي بدراسة الجانب الأول، بينما تهتم علوم النفس بدراسة الجانب الثالث، وأما الجانب الثاني فيشكل مجالاً للدراسة في علوم الاجتماع والانثروبولوجيا، وتلك هي مظاهر الاتفاق والاختلاف بين الأفراد والجماعات. وبناء على ذلك، تصبح الثقافة عنصرًا أساسيًا في حياة المجتمع، وفي دراسة المجتمع كذلك.. فالأسلوب الذي يسير عليه الناس في حياتهم،إنما يعتمد على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع، مع بعض الآثار التي تتركها العوامل الجغرافية والبيولوجية [١].

وعندما طرح السؤال «ما هي الثقافة؟» في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت أشهر الإجابات وأكثرها تكاملاً إجابة إدوار ب. تايلور في كتابه «الثقافة البدائية» الصادر سنة ١٨٧١م، وجاء فيها: «الثقافة هي ذلك المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة، والمعتقد، والفن، والأدب، والأخلاق، والقانون، والعرف، والقدرات، والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع». وقد عاد تايلور إلى تأكيد هذا التعريف في كتابه «الانثروبولوجيا» الصادر سنة ١٨٨١م، موضحًا أن تعريف الثقافة على هذا الوجه يجعلها بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية. وقد ظل هذا التعريف أشهر التعاريف وأكملها وأكثرها ضبطًا، أو قل: ظل هذا التعريف «الجامع المانع» كما يقول المشتغلون بالمنطق، لأكثر من نصف قرن من الزمن. إلا أن تطور العلوم والحركة العلمية بشكل عام، والعلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا بشكل خاص، ألقى المزيد من الأضواء على فهم الثقافة، ودفع إلى تعريفات جديدة [٢]..

فقد عرفها إدوار هيريو تعريفًا نال قسطًا وافرًا من الشهرة يقول: «الثقافة هي ما يبقى في ذاكرتنا عندما ننسى كل شيء» [٣]. وعرفها ك.رايت بأنها «النمو التراكمي للتقنيات، والعادات، والمعتقدات، لشعب من الشعوب يعيش في حالة الاتصال المستمر بين أفراده، وينتقل هذا النمو التراكمي إلى الجيل الناشئ عن طريق الآباء، وعبر العمليات التربوية» [٤]. ويرى روبرت بيرستد أن «الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في المجتمع» [٥].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري

أن الثقافة هي «ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات التي تحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ماتعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والعطاء. وبعبارة أخرى: إن الثقافة هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل»(٦).

ويوجز الدكتور عبد الله عبد الدائم تعريف الثقافة قائلاً: «الثقافة هي جملة السمات والملامح الخاصة التي تميز مجتمعًا معينًا، أو زمرة اجتماعية معينة، سواء كانت روحية أو ماديّة، فكرية أو عاطفية»(٧).

وفي مجال التفريق أو التوحيد بين مصطلحي «الثقافة» و«الحضارة»، يرى بعضهم أن الثقافة غير الحضارة قائلين إن الثقافة تشمل الجوانب المعنوية بينما تشمل الحضارة الجوانب المادية، ولكن معظم العلماء والمفكرين في هذه الأيام يميلون إلى اعتبار الحضارة والثقافة شيئًا واحدًا، ويقول المفكر سيد ياسين: «لو رجعنا إلى كتاب الباحث الأمريكي الشهير صموئيل هنتنجتون «صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي» الذي صدر عام ١٩٩٦، بعد حوالي عام من مقالته الشهيرة التي أثارت جدلاً عالميًّا، فإن الاتجاه الحديث لايفصل إطلاقًا بين الحضارة التي عرفت في لحظة ما بأنها مجموع الوسائل الماديّة والتكنولوجية السائدة في مجتمع ما، وبين الثقافة التي تتضمن القيم والمثل والملامح الذهنية والفنية والأخلاقية لمجتمع ما. ومن هنا، أصبح المصطلح الحديث المتداول لايفرق بين الجوانب الماديّة والمعنوية، على أساس استحالة التفرقة بينهما، ومن ثم أصبحت الحضارة والثقافة تشيران إلى أسلوب الحياة الشامل الذي يميز شعبًا ما، والذي يتضمن القيم والمعايير والمؤسسات وطرق التفكير التي تتشربها الأجيال المتتابعة في مجتمع ما»(٨).

ويمكن أن نخلص إلى أن الثقافة، أو الحضارة، هي «رؤية للعالم» تشمل النظرة إلى الإنسان وعلاقاته بالإله والبشر الآخرين والطبيعة، وتحددها «اللغة» التي تحكم التفكير والقيم التي تحكم الممارسة (حيث القيم هي المعايير التي تضبط السلوك البشري وتتجسد بصمات المجتمع فتحدد هويته وخصوصيته)، وتنبثق عنها

القوانين والعادات التي تضبط «نمط الحياة» الذي هو الثقافة مجسدة أو مشخصة.

وهكذا، فإن الثقافة التي نعنيها في البحث ليست الثقافة بمعناها الضيق، أي ليست الصناعات الثقافية أو الإبداعية الأدبية (كالشعر والقصة) والفنية (كالنحت والمسرح)، ولكنها الثقافة بمعناها الواسع (الانثروبولوجي)، أي بمقوميها: اللغة والقيم. وسنتحدث (فيما بقي من هذا البحث) عن الثقافة بدلالة القيم أو الأخلاق.

٢ - في مفهوم السياسة

يقول بعضهم: «لاتجادل.. لا في الدين، ولا في السياسة، ولا في الحب». ونحن نرى أن يصنف هذا القول تحت «باب الهزل» لاتحت «باب الجد».. فلو كان هذا القول صحيحًا فيما يتعلق بالدين، لما أرسل الله الأنبياء لهداية الناس، ولما خطب الوعاظ في المعابد، ولما تناقش العلماء في المجامع الفقهية، ولو كان القول (إياه) صحيحًا فيما يتعلق بالسياسة، لما أنشئت المجالس النيابية، ولما أسست الأحزاب، ولألغيت ظاهرة المفاوضات. وأما في مجال الحب، فيجوز كل شيء، ولا يجوز أي شيء.. لأن الحب فوق المنطق، وخارج المنافسة، وممنوع من الفهم!!!

وتشير الوقائع الحسية، كما يلاحظ الدكتور عبد الكريم غلاب، إلى أن كلمة «السياسة» ربما تكون أكثر الكلمات ترددًا في حديث الناس، سواء كتبوا في الصحافة، أو تحدثوا في الإذاعة، أو ألفوا كتبًا، أو ألقوا محاضرات، أو تحدثوا حديث المجالس أو حديث الشارع. ولن يخطئك الحدس إذا وجدت في كل حديث مفهومًا خاصًا للسياسة. ومن ثم كانت «السياسة» أكثر القضايا اختلاطًا واضطرابًا نتيجة اختلاف الرؤية للمفهوم، حتى بين الذين لايراودنا الشك في قدرتهم على تمثل المفاهيم علميًا وفكريًا.

والسياسة، كما يرى الدكتور غلاب، تعني إدارة شؤون الناس والتفكير فيها، والتمييز بين صائبها وفاسدها، والتعامل مع أولئك الذين تدير شؤونهم بالتفكير والتشريع والممارسة والتوجيه والتغيير. وإذا كانت «السياسة» قد بدأت على عهد اليونان كعلم حكم المدن، وقالوا عنها في عصر النهضة إنها أنبل العلوم وأسماها، وتتعلق بأرفع المناصب على الأرض، وتشمل جميع الفنون التي تهم الجماعة الإنسانية، فقد أصبحت تتناول كل مايتعلق بحكم الدولة، أو إدارة الشؤون العامة الداخلية منها والخارجية، والعلاقات المتبادلة بين الدول، والعلاقات بين السلطة والمواطنين،

وتؤكد بعض المصادر أنها نابعة من حكم الدولة، ودراسة المبادئ التي تقوم عليها الحكومات والتي تحدد علاقاتها بالمواطنين وبالدول الأخرى. ولذلك، فالعمل السياسي يتصف بوظائف الحكم أو القيادة أو التنظيم أو التشريع أو التنفيذ أو التقرير. ومعنى «علم السياسة» إذن هو علم الدولة[9].

والسياسة، حسب «موسوعة الهلال الاشتراكية»، هي علم الحكومة وفن الحكم، وتطلق أيضًا على مجموعة الشؤون التي تهم الدولة، كما تطلق كذلك على الطريقة التي يسلكها الحاكمون[10].

والسياسة، كما هو شائع، هي فن الممكن. والسياسة، أيضًا، هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهي فن تحريك البشر والأشياء، وهي كل قول أو فعل يراد به تغيير شيء ما في المجتمع، وهي إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للمجتمع من قبل قوة حاكمة، وهي (كذلك) تدبير شؤون الدولة.

ويمكننا أن نخلص إلى أن السياسة هي: عملية (أو عمليات) توجيه موارد المجتمع، من قبل قوة حاكمة، نحو تحقيق أهداف المجتمع. وبعبارة موجزة: السياسة هي إدارة شؤون المجتمع.

٣ - في مفهوم الاقتصاد

عندما تذكر كلمة «اقتصاد»، تتبادر إلى الذهن واحدة من الحالات الثلاث الآتية: الاقتصاد علمًا، والاقتصاد مذهبًا، والاقتصاد نظامًا. ونقدم في السطور التالية موجزًا عن مفهوم كل من تلك الحالات، ثم نبين المقصود بالاقتصاد في هذا البحث..

٣ - ١ - الاقتصاد علمًا:

يعد علم الاقتصاد أحد العلوم الاجتماعية الهامة، كالتاريخ والسكان والقانون والاجتماع وغيرها. وقد تعددت التعاريف الموضوعة لعلم الاقتصاد، وتطورت منذ نشأة هذا العلم وحتى الوقت الحاضر. فقد عرف في بداية نشأته بأنه «العلم الذي يبحث في إنتاج الثروة وتحقيق الغنى للمجتمع». وعرف أيضًا بأنه «العلم الذي يدرس كيفية حصول الإنسان على الدخل وكيفية استعماله له». وأما أكثر التعاريف شهرة، فهو: «الاقتصاد هو العلم الذي يبحث في كيفية إشباع حاجات الإنسان المتعددة والمتزايدة باستخدام الموارد المحدودة في استخداماتها البديلة»[11]. فهو إذن: «علم الندرة»، وهو أيضًا «علم الاختيار الأمثل»، وهو كذلك «علم إشباع الحاجات».

إن علم الاقتصاد هو الذي يدرس الظواهر الاقتصادية، ويحللها بقصد استخلاص القوانين الاقتصادية التي تحكمها، كقانون تناقص المنفعة، وقانون الغلة المتزايدة، وقانون العرض والطلب، وقانون أقل جهد أو أقل تكلفة. فهو ذو طابع نظري، يدرس ما هو كائن فعلاً، ولا علاقة له بالأخلاق أو السياسة أو اتجاهات الدولة الاقتصادية أو مفهوم المجتمع لفكرة العدالة. ومن ثم، فهو محايد وليس بعامل مميز يستقل أو ينفرد به مذهب دون آخر، حيث لايمكن وصف مثل هذه القوانين الاقتصادية بأنها رأسمالية أو اشتراكية، وإنما هي حقائق علمية لادين ولا جنسية لها، فهي ذات صبغة عالمية لاتتفاوت فيها الشعوب أو الدول تبعًا لاختلاف مفاهيمها الاجتماعية. وأما كيفية إعمال هذه القوانين الاقتصادية وطريقة التأثير فيها والاستفادة منها، فهذا هو دور المذهب الاقتصادي بحسب مايستهدفه، وهنا فقط مجال الخلاف والتمييز[١٢].

٣ - ٢ - الاقتصاد مذهبًا:

يتميز كل مجتمع بطريقة معينة (تختلف من مجتمع إلى آخر) في إنتاج الثروة وتوزيعها، يتجلى فيها الموقف المذهبي للمجتمع في الحياة الاقتصادية أو المجال الاقتصادي، فيكون لكل مجتمع مذهبه الاقتصادي.

والمذهب الاقتصادي هو الذي يضع أهداف الحياة الاقتصادية، ويرسم الوسائل المؤدية إلى تحقيق هذه الأهداف. فهو ينطوي على أمرين اثنين، وهما: غاية النشاط الاقتصادي ووسيلته.. فتحديد هدف الإنتاج، والإبقاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج أو تأميمها، ومدى الحرية الاقتصادية، وكيفية توزيع الثروة... إلخ، كل ذلك مما يدخل في مجال المذهب الاقتصادي. فهو ذو طابع عملي، يدرس مايجب أن يكون، فله علاقة وثيقة بالأخلاق، واتجاهات الدولة الاقتصادية، ومفهوم العدالة لدى المجتمع. ومن ثم، فهو مجال الخلاف بين الشعوب والدول، بحسب اختلاف الظروف الاقتصادية لكل مجتمع، واختلاف الأفكار والمفاهيم التي يرتبط بها وتصوره للعدالة وطريقة تحقيقها[١٣].

٣ - ٣ - الاقتصاد نظامًا:

يكون لكل مذهب اقتصادي، عادة، عدة تطبيقات. وتختلف هذه التطبيقات في جوانب معينة، وتختلف في جوانب أخرى.. فلكل مذهب اقتصادي جانبان، أحدهما ساكن أو ثابت، وثانيهما حركي متطور..

أمـا الجـانـب السـاكن في المذهب الاقـتـصـادي، فـهـو الأسس والمبادئ التي ينطوي عليهـا المذهب، وهي في خطوطهـا العريضة واحدة في كل تطبيقات المذهب، ولا تقبل التغيير أو التبديل. ومن الأمثلة عليها: هدف الإنتاج، ونوع الملكية السائدة، ونوعيـة التخطيط الاقتصادي، وكيفـيـة تحقيق التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، وطريقة توزيع الناتج أو الدخل القومي.

وأمـا الجـانـب الحـركي من المذهب الاقتصادي، فهو الوسائل والأساليب التي يتذرع بها المجتمع لتطبيق الأسس والمبادئ المعتمدة في المذهب الاقتصادي للمجتمع. وهي تختلف من مجتمع إلى آخر، فتتعدد النظم الاقـتـصـادية باخـتـلاف الزمـان والمكـان دون الخـــروج عـن الخطوط العريضة للمذهب.

ويكون الخـــلاف بين المذاهب الاقتصادية خـلافًا جـوهريًا في الأسس والمبـــادئ. وأمـــا الخـــلاف بين النظم الاقتصادية للمذهب الواحد، فهو خلاف تفصيلي في الوسائل والأساليب. وبناء على ذلك، يظل الخلاف بين النظم الاقتصادية للمذاهب المختلفة خلافًا جوهريًا وإن تلاقت في بعض الوسائل والأساليب(١٤).

●● ومن الواضح أن المقـــصـــود بالاقـتـصـــاد في بحـثنا هذا ليس علم الاقـتـصـاد، ولكن المقـصـود هو المذهب الاقتصادي، وعلى وجه التحديد: طريقة إدارة موارد المجتمع (إنتاجًا وتوزيعًا وتبادلاً واستهلاكًا) لإشباع حاجات المجتمع.

٤ - في العلاقة بين الثقافة والسياسة

تواضع مـعظم العلمـاء والمفكرين العرب، في بحثهم العلاقة بين الثقافة والسياسة (أو بين الثقافي والسياسي)، على أن يكون حديثهم منصبًا على العلاقة بين «المثقف والأمير»، أي بين فئتي المثقفين والحكام، حيث المثقف هو الشخص الذي يملك قـدرًا مـا من المعـرفـة (وهي عـادة متعددة الجوانب)، ورؤية نقدية لأوضاع مجتمعه، وربما لأوضاع العالم كله أيضًا. ولكننا سنعتمد، في هذا الجزء من بحثنا، مدخلاً آخر يتفق مع مفهومي الثقافة والسياسة اللذين قدمناهما في البندين الأول والثاني في هذا البحث.

ونلاحظ، بداية، أن ثمة مصطلحين اثنين هما الأكثر تداولاً بين المختصين والمهتمين، ونعني: «الثقافة السياسية» و«السياسة الثقافية»..

فأما مصطلح «الثقافة السياسية»، فيعني الخبرة أو الحذق بشؤون سياسية كالانتخابات التشريعية والسياسة الخارجية

وقرارات السلطة التنفيذية (وخاصة في مستوياتها العليا). وأما مصطلح «السياسة الثقافية»، فيعني التدخل والتوجيه من قبل الدولة في مجال الصناعات الثقافية والإبداعية (الآداب والفنون) التي اصطلح بعضهم على أنها هي الثقافة.

ولكننا سنركز، هنا، على الثقافة بمعناها الواسع (ونختزلها بأهم مقوماتها الذي هو القيم أو الأخلاق)، والسياسة بمعناها الواسع أيضًا، أي بمعنى إدارة شؤون المجتمع.

ونبدأ بحقيقة أن من طبائع الأشياء خضوع السياسة في مجتمع ما إلى القيم التي يتبناها المجتمع نفسه. وعندما يهمل المجتمع قيمه الخاصة به، ويعتنق بدلاً منها قيمًا أخرى غريبة عنه، يصاب بفقدان الوزن والاتجاه والمعنى، وينزلق إلى هاوية الضعف والانحطاط والتخلف والضياع والهوان على الناس.

وإن من أخطر الآفات التي تصيب مجتمعًا من المجتمعات أو أمة من الأمم، قول القائلين إن المبادئ الأخلاقية (أو القيم) ليست ثابتة، وأنها نسبية تختلف حسب الزمان والمصلحة، (فالصادق اليوم قد يصبح غير صادق في المستقبل)[15]. و«الصادق هو ما يفيد»[16]. وهم بذلك يطبقون مقولات الفلسفة الذرائعية (أو البراغماتية) السائدة في الغرب الآن، وخاصة في أمريكا.. تلك الفلسفة التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر، وسميت «مدرسة شيكاغو»، وأبرز مؤسسيها وأعلامها، الفلاسفة الأمريكيون: تشارلز بيرس ووليم جيمس وجون ديوي. (لاحظ أن «شيكاغو» هي، أيضًا، منبت أكبر عصابات الإجرام، ومضرب المثل بفظاعة الإجرام. وإذا كان الإغريق والرومان واليهود- كما يذكر المؤرخ أرنولد توينبي- يقولون عن الناصرة التي خرجت منها دعوة السيد المسيح عليه السلام: «هل ينتظر أن يصدر عن مدينة الناصرة أي شيء حسن؟»[17]. فإنه ينبغي - من باب أولى - أن يقال، ومع الفارق: «هل ينتظر أن يصدر عن مدينة شيكاغو أي شيء حسن»؟!؟).

إن خلاصة النظرية (أو الفلسفة) الذرائعية، هي وجود وضع مكون من وقائع ومعلومات بغض النظر عن علاقتها بالمثل العليا والأخلاق، فهناك أفراد يعملون من ضمن الواقع، كل بحسب ما تمليه مصلحته.. فمن ينجح (ولو على حساب الآخرين)، فهو على حق، ومن يفشل فهو على باطل. إذ إن الحق والباطل، أو الخير والشر (حسب الذرائعية) هما ما نعتقده نحن وما يستقر في أنفسنا، وهو ما ينجح

في النهاية، وما عدا ذلك أوهام ميتافيزيقية. وليس في التاريخ (حسب الذرائعية) ميل صاعد يسير بموجبه الإنسان نحو الخير والتقدم، فكل شيء يعتمد على مايعمله الإنسان بجهوده ووسائله مدفوعًا برغباته ومصلحته.

وبما أن النجاح (حسب الذرائعية) هو مقياس الحق والباطل، والصحيح والخطأ، فإنه لايوجد مقياس موضوعي فوق الجميع مستمد من قيم أخلاقية موضوعية، بل من الغريزة أو المصلحة الذاتية والرغبات الشخصية. لذلك، فمن الطبيعي أن يكون موضوع الأخلاق منفصلاً تمامًا عن موضوع السياسة كنشاط إنساني[١٨].

لذلك كله، فإن الذرائعية تخدم القوة على حساب الحق، وتبرر الوسيلة في سبيل الغاية، وتضحي بالمبدأ على مذبح المصلحة، فتبرر الاستعمار والعنصرية والعولمة، وتضفي الشرعية على ذبح الأبرياء في هيروشيما وقانا والعراق وفلسطين وغيرها، وتنشر «المظلة الأخلاقية» فوق كل شر في هذا العالم!!!

٥ - في العلاقة بين السياسة والاقتصاد

من المصطلحات المتداولة بين المختصين والمهتمين، مصطلحان اثنان ذوا صلة بموضوع بحثنا، وهما: «الاقتصاد السياسي» و «السياسة الاقتصادية». وسنقدم هنا نبذة مختصرة عن كل منهما، ثم نتحدث، مع بعض التفصيل، عن الجانب الأكثر إثارة للجدل في هذه الأيام خاصة، وهو «دور الدولة في الاقتصاد»..

● أما مصطلح «الاقتصاد السياسي»، فقد كان قديمًا يطلق على علم الاقتصاد نفسه، وهناك الآن اتجاهان في تعريفه.. الاتجاه الأول ينظر إلى الاقتصاد السياسي كعلم يبحث في سلوك الإنسان الاقتصادي، بصرف النظر عن الشروط التاريخية والاجتماعية التي تحيط بهذا السلوك. والاتجاه الثاني يعتبر الاقتصاد السياسي علم دراسة الظواهر والعلاقات الاقتصادية باعتبارها ظواهر وعلاقات ذات طبيعة تاريخية واجتماعية. ويعتقد الأستاذ الجامعي الدكتور مطانيوس حبيب أن التطورات التي لحقت بمفهوم الاقتصاد السياسي كعلم تجعل بالإمكان، في إطار التفريق بين النظرية والمذهب، تعريفه على النحو التالي: «الاقتصاد السياسي هو علم تحديد الاختيارات المطبقة لتنظيم الدخل الحقيقي في إطار توزيع هذا الدخل وفقًا لمبدأ العدالة الاجتماعية»[١٩].

● وأما «السياسة الاقتصادية» فهي

إحدى السياسات التي تتخذها الدولة في سياق تقنين تدخلاتها لإدارة المجتمع نحو تحقيق أهدافه. والسياسة الاقتصادية، حسب موسوعة الهلال الاشتراكية، هي التطبيق العملي للقوانين التي يكتشفها علم الاقتصاد السياسي، لتحقيق نتائج معينة يرغب فيها المجتمع[20].

● ولعل أهم القضايا في مجال العلاقة بين السياسة والاقتصاد، دور الدولة (في مقابل دور السوق) في إدارة أو توجيه الاقتصاد، إنتاجًا وتوزيعًا وتبادلاً واستهلاكًا..

ففي أوائل الثمانينات، تكاثرت الدعوات (وخاصة من قبل المنظمات الدولية)، إلى تقليص دور الدولة، والى الاعتماد على «اقتصاد السوق»، الذي هو الاسم الجديد الذي أطلقوه على «النظام الرأسمالي» بعد أن افتضح أمره. ويفترض دعاة اقتصاد السوق وجود «اليد الخفية» التي يعتقدون أنها تحقق التوازن بين العرض والطلب والثمن، وحدوث «تساقط ثمار النمو» على الفقراء كلما ازداد ثراء الأغنياء. وقد تذرع الداعون إلى اقتصاد السوق بعدة أشكال من فشل الدولة، و«أكثر شكل تم التأكيد عليه بشكل خاص، هو العجز في مؤسسات الدولة، وعدم ملاءمتها للمهام التي أنشئت من أجلها في البلدان النامية. وتتضمن الأوصاف التي استخدمت للإحاطة بمثل هذه المظاهر: سوء الإدارة، سوء الممارسة، تضخم العاملين، محاباة الأقارب في الوظائف، الرشوة، الفساد، السعي وراء الإثراء الشخصي، وغير ذلك. وتؤدي هذه الأوصاف إلى أن توصم الدولة بأنها «دولة طفيلية»، أو «دولة لصوصية»، بدلاً من أن توصف بأنها «دولة كريمة»، أو دولة نافعة»[21]. ويلاحظ الداعون إلى اقتصاد السوق أشكالاً أخرى من فشل الدولة، ومنها:

«1- المؤثرات الجانبية، فليس لدى الدولة أية طريقة للتنبؤ بدقة بالمؤثرات الثانوية والإضافية للأعمال التي تنفذها فيما يتعلق بمسالة اقتصادية معينة.

«2- ثاني أفضل نظرية: عندما توجد أنواع عديدة من فشل السوق (أي الأثر العكسي على المجتمع ذي الأسواق الناقصة أو الأسواق غير العاملة)، فإن قيام الدولة بعمل لتصحيح حالة من حالات الفشل هذه سيسفر عن نتائج أسوأ من النتائج التي كان يمكن أن تحصل لو لم تتدخل الدولة.

«3- حالات فشل التطبيق: فحتى لو كانت السياسة مصممة بشكل صحيح من أجل تحقيق زيادة في الرفاه الاجتماعي،

فإن المكاسب المتوقعة ربما تضيع نتيجة سوء التطبيق أو عدم كفاءته.

«٤- حالات فشل الحوافز: فغالبًا ما تكون رواتب الموظفين وأجورهم متدنية، وتكون أحيانًا أقل من حاجتهم المعيشية، الأمر الذي يعني أن تغدو موارد الدخل الثانوية ضرورية لتأمين معيشتهم[٢٢].

وبالمقابل، فإن المدافعين عن دور الدولة يلاحظون وجود الكثير من «خيبات السوق» أو محاذير اقتصاد السوق، ومنها:

«١- خيبات التنافس: وجود أنماط مختلفة من قوى الاحتكار في الاقتصاد، كوجود احتكارات محلية تجارية (مثلاً) لتقديم السلع للمناطق الريفية، أو لابتياع المحاصيل من المزارعين.

«٢- الأسواق الناقصة: حيث تفشل الأسواق في إنتاج السلع أو الخدمات المطلوبة بأسعار أعلى من كلفة الإنتاج، وذلك بسبب تكاليف المعاملات التجارية ومشاكل المخاطرات المعنوية (ومن الأمثلة على ذلك: سوق الائتمان والتسليف، مع مجازفة العجز عن إيفاء الدين والكلفة العالية المترتبة على فرض الدفع على المدين).

«٣- المشاكل الاقتصادية الكبرى: وهي القضايا التي لا يمكن التعامل معهاإلا مِنْ قبل سلطة مركزية، مثل التزويد بالمال، والتضخم، وسعر الصرف والتبادل، الضرائب وغير ذلك.

«٤- الفقر واللا مساواة: ربما يسفر ناتج السوق عن درجة من اللا مساواة، أو عن حالة من الفقر غير مقبولة من قبل غالبية المجتمع»[٢٣].

وبالرغم من كل التغيرات الدولية والإقليمية التي حدثت على كثير من الأصعدة، فإن الدولة ما زالت تلعب دوراً كبيراً، وحتى في الدول الرأسمالية نفسها!!!! إذ يلاحظ الدكتور أحمد الجويلي، الأمين العام لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية، «أن أكثر الدول أخذاً بالنظام الرأسمالي (وهي الولايات المتحدة الأمريكية) تتدخل بدعم صادراتها، ودعم الإنتاج الزراعي، ودعم الغذاء. وهي تتدخل تدخلات مختلفة لتعديل هياكل الإنتاج، وبفتح الأسواق أمام سلعها بطريق الضغط. وكذلك دورها في منظمة التجارة الدولية، حيث تدير الاتفاقات لمصلحتها، وتتدخل في تنظيم الصناعات الصغيرة، وتقيم قضايا الإغراق ضد الدول الأخرى. وكل ذلك مجالات يبرز فيها دور الدولة، وهو يتغير بنسبة أو بأخرى من وقت لآخر»[٢٤].

وكذلك فإن زعماء /١٤/ دولة ينتمون إلى يسار الوسط (منها خمس دول صناعية

كبرى) ويسمون أنفسهم «الاصلاحيين»، دعوا في قمتهم الثانية التي عقدت في برلين (٢٠٠٠/٦/٣)، إلى «دور للدولة مع قوى اقتصاد السوق، للوصول إلى التوظيف الكامل والعدالة الاجتماعية»[٢٥].

ويمكن تلخيص الأدبيات السائدة الآن (وخاصة في البلدان النامية) حول دور الدولة، بأنه ليس المطلوب استقالة الدولة أو إقالتها أو إلغاء دورها، ولكن المطلوب من الدولة(بالإضافة إلى وظيفتيها التقليديتين: الأمن والعدالة)، أن تقوم بالحيلولة دون ممارسة الاستغلال، ودون حدوث الفقر، ودون تدمير البيئة، ودون اهتزاز المجتمع بسبب الصراعات والتفاوت الاجتماعي الكبير.. فهي ليست مجرد حارس للقطاع الخاص تفسح له الطريق وتمهد له الأرض، وإنما هي قطب فاعل، بل «مايسترو» يضبط إيقاع جماعات المصالح المتضاربة، ويدفع بالتنمية، ويؤدي الفريضة الغائبة في مهام يعزف عنها القطاع الخاص، مثل تقديم إنتاج شعبي، وتوفير خدمات أساسية، ورعاية البحث العلمي[٢٦].

ولكن المشكلة هي أن الدول (والأصح: الحكومات، لأن الدول هي المؤسسات، والحكومات هي الأشخاص) في كثير من البلدان النامية فهمت الدرس خطأ.. فصارت (في تعاملها مع المجتمع المدني الذي يجسده: الشارع السياسي، والمعبد الديني، والسوق الاقتصادي) تحكم السيطرة على الشارع السياسي والمعبد الديني من جهة، وتطلق من جهة أخرى العنان للقوى الاقتصادية المحلية وحليفاتها (الشركات متعددة الجنسية، والأصح: متعدية الجنسية، لأنها قائمة على العدوان أو الاستغلال) في الخارج، لنهب أو استغلال ثروات الأمة دون رقيب أو حسيب، في حالة من تغييب أو تكبيل القوى السياسية والدينية، وكأن الدولة أصبحت خادماً للأسواق المحلية والدولية.

●● وصفوة القول في مجال العلاقة بين السياسة والاقتصاد: إذا كانت السياسة هي إدارة شؤون المجتمع، وكان الاقتصاد هو استخدام الموارد لإشباع الحاجات، فإن من طبائع الأشياء أن يخضع الاقتصاد للسياسة، وبحيث تكون الدولة حارساً وقاضياً، وحامياً للإنسان وللبيئة، ومانعاً لأي استغلال، وحاملاً لعظائم المهام والمسؤوليات. ولا يمكن تصور خضوع السياسة للاقتصاد، إلا في حالة سيطرة رجال المال والأعمال وعملاء الشركات متعدية الجنسية (إما مباشرة أو بالواسطة) على السياسة، لشرعنة ما يمارسونه تجاه الأكثرية الفقيرة من استغلال متعدد

الأشكال، وجعله أكثر سهولة وسلاسة. وعندئذ، تتحول الدولة من «خادم للأمة» إلى «عبء على الأمة»!!!

٦- في العلاقة بين الاقتصاد والثقافة

آخذين بمفهوم الاقتصاد على أنه استخدام الموارد لإشباع الحاجات، وبالمفهوم الواسع للثقافة على أنها في التطبيق نمط للحياة تحدده القيم أو الأخلاق بوجه خاص، سنعالج هنا التأثير المتبادل بين الاقتصاد والثقافة، فنعالج تأثير الاقتصاد في الأخلاق، ثم نعالج تأثير الأخلاق في الاقتصاد..

٦-١- تأثير الاقتصاد في الأخلاق

من المسلم به أن والتطرف في امتلاك الثروة، وجوداً وعدماً، ينعكس سلبيّاً على أخلاق الفرد، وبالتالي على أخلاق الأمة..

● فقد جاء في الأثر: «كاد الفقر أن يكون كفراً». وكذلك، فإن الفقير المحروم قد يدفعه بؤسه وحرمانه (وخاصة إذا كان إلى جواره الطاعمون الناعمون) إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قالوا: «صوت المعدة أقوى من صوت الضمير». وشر من هذا، أن يؤدي ذلك الحرمان إلى التشكك في القيم الأخلاقية نفسها، وفي عدالة مقاييسها[٢٧]. ومع ذلك، فإن لدى معظم الفقراء من السمو في المبادىء والقوة في الإيمان ما يمنحهم القدرة على الصبر، ويردعهم عن انتهاك القيم والمثل العليا، وقد قيل: «تموت الحرة ولا تأكل بثدييها».

● وفي المقابل، فإن كثرة المال لدى البعض، قد تؤدي بهم إلى قسوة القلب وتحجر المشاعر وموت الضمير، كما قد تؤدي إلى فتح الشهية لأكل أموال الناس بالباطل، وممارسة أنواع من السفه في الإنفاق كالإسراف والتبذير، بل وممارسة أنواع من السلوك المحرم شرعاً وقانوناً كالرشوة والتهريب.

٦-٢- تأثير الأخلاق في الاقتصاد

سنركز، هنا، على الآثار السلبية للفساد على الاقتصاد (حيث الفساد هو الظاهرة الأكثر خطراً على الاقتصاد) وضرورة مراعاة الجوانب الأخلاقية في دراسات جدوى المشاريع التنموية قبل تنفيذها..

● فالفساد (الذي هو حسب البنك الدولي: إساءة استعمال الوظيفة العامة لتحقيق مكاسب شخصية)[٢٨]. ظاهرة اجتماعية منتشرة، وبدرجات متفاوتة، في كل أنحاء العالم، وحتى أنها عصفت باللجنة

الأولمبية الدولية السابقة، وطالت منظمة الأمم المتحدة[٢٩]. ولهذه الظاهرة أسباب داخلية لا تخفى على أحد، وتلعب بعض الحكومات، وبصورة متعمدة (وبواسطة ممارسات مثل: اختيار القيادات بناء على معايير غير موضوعية، ومنحها كثيرًا من الامتيازات والصلاحيات الاستثنائية) دورًا كبيرًا في انتشار الفساد. ويلاحظ المفكر الدكتور طيب تيزيني أن الدولة قد تتحول، بفعل ممارسات النخبة الحاكمة، إلى «دولة أمنية» شعارها الحاسم: «يجب إفساد من لم يفسد بعد، بحيث يصبح الجميع مدانًا تحت الطلب»[٣٠]. ولا ننسى - بطبيعة الحال - أن للشركات متعدية الجنسية دورًا كبيرًا أيضًا في انتشار وتفاقم ظاهرة الفساد، وإلى درجة أن الكثيرين يعتبرونها «المفسدة الأولى في العالم».

والفساد، كما وصفه أحد الاقتصاديين، مثل وحش هيدرا الأسطوري، عدو متعدد الرؤوس، يتشكل إلى كل جزء من النسيج الاجتماعي، ويضعف الجسد السياسي، ويعرض آفاق النمو الاقتصادي للخطر[٣١]. ويعتبره العالم الاقتصادي الفرنسي بيير بيان «أشد فتكًا من طاعون الأمس، ومن إيدز اليوم»[٣٢]. وفي الذكرى الخمسين لاستقلال الهند، أعلن الرئيس الهندي أن المشكلة الأولى التي تواجهها بلاده، هي ظاهرة انتشار الفساد والرشوة. وهكذا، وضع الرئيس الهندي ظاهرة الفساد والرشوة في المقدمة، قبل مشاكل الفقر والبطالة والانقسامات الدينية والاجتماعية الحادة[٣٣].

يرى أحد الخبراء الدوليين أن «الفساد يفسد الحوافز، ويقوض المؤسسات ويعيد توزيع الثروة والسلطة لصالح غير المستحقين. وعندما يقوض الفساد حقوق الملكية وحكم القانون وحوافز الاستثمار، فإنه يشل التنمية الاقتصادية والاجتماعية»[٣٣]. وقد أعلنت الأمم المتحدة في أحد تقاريرها عام ١٩٩٩، أن جنوب آسيا (أو شبه القارة الهندية) هو المنطقة الأكثر فسادًا في العالم، وأشارت إلى أن هذه الظاهرة تكلف مليارات الدولارات. وتؤدي إلى إفقار مئات الملايين من الأشخاص[٣٤]. وصرح، حديثًا الكسندر كوليكوف، نائب رئيس لجنة الأمن في مجلس الدوما التشريعي، أن روسيا تخسر سنويًا ما يقارب /١٥/ مليارًا من الدولارات بسبب الفساد[٣٥].

ويلاحظ الخبير الاقتصادي الدكتور صلاح وزان أن الفساد موجود في دول الشمال ولكنه قليل وملاحق قانونًا، ولكنه في دول الجنوب شائع ومسكوت عنه، وتشجعه دول الشمال في علاقاتها مع

الجنوب لترويج سلعها. ويقرر الدكتور وزان أن من سلبيات الفساد أنه يؤثر سلبًا في قيمة العمل كإحدى وأثمن القيم، ويؤدي إلى تخريب القوانين الاقتصادية (في علم الاقتصاد) التي تساعد في تحقيق الاختيار الأمثل، وفقدان ثقة المواطنين بالدولة ومؤسساتها، وتراجع العدالة الاجتماعية، وتخريب البيئة، وإهدار القروض وتراكم الديون حيث ثبت مثلاً، أن كلاً من ماركوس حاكم الفيليبين الأسبق، وموبوتو حاكم الكونغو الأسبق، كان يختلس نصف القروض التي كانت تمنح لبلاده!!). ويخلص الدكتور وزان إلى أن «مكافحة الفساد ضرورة اقتصادية تنموية، ضرورة أخلاقية اجتماعية معًا»، وأن القائلين بتعذر قهر الفساد «هم عملاء الفساد وفلاسفته ومرتزقته، ومن عندهم يجب أن تبدأ المعركة ضده»(٣٦).

● وأما فيما يتعلق بجدوى المشاريع الإنمائية، فإن دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية (والبيئية) التي تجرى للمشاريع الإنمائية قبل تنفيذها، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار «الجدوى الأخلاقية» لتلك المشاريع، بمعنى أن تركز تلك الدراسات، ضمن أمور أخرى، على ضرورة الحفاظ على القيم الاجتماعية، ويتم ذلك – أساسًا – باختيار التقانة (أو التكنولوجيا) المناسبة..

ففي مجال تأثير التقانة المختارة على القيم الاجتماعية، يلاحظ (بداية) الدكتور أسامة أمين الخولي، مستشار معهد الكويت للأبحاث العلمية أن « التقانة بطبيعتها محملة بالقيم.. قيم المجتمع الذي نشأت فيه وفاءً لطلب اجتماعي تولد في ظروف تاريخية معينة لهذا المجتمع. وتكتسب المجتمعات المستوردة للتقانة، في خلال النقل، هذه القيم الغربية عنها والخاصة بمجتمعات أخرى لها تكوين اجتماعي مختلف تعيش اليوم مرحلة من مراحل تطورها لها أصول تاريخية تختلف تمامًا عن تاريخ مجتمعاتنا وواقعها»(٣٧).. ويؤكد الخبير الاقتصادي الدكتور جلال أمين أن الذين ينقلون العلم والتقانة «لا ينقلون ثمرات التقدم البشري، بل ينقلون تراثًا خاصًا لثقافة بعينها»(٣٨). ويقرر الفيلسوف الهندي داياكريشنا أن «اختيار تقانة معينة هو، بالمعنى العميق، اختيار لطريقة الحياة»(٣٩).

ويقول الخبير الدولي الدكتور جوليه: «في حقل التنمية الدولية بوجه خاص، علينا أن نلاحظ أن تداول التقانة ليس نشاطًا محايدًا فيما يتعلق بالقيمة، بل هو بالأحرى تعامل محمل بالقيمة وحساس سياسيًا، فنظرًا لأن التقانة تعبر الحدود القومية، لذا فإنها تحمل معها بعض القيم السلبية التي تثير الاضطراب في المجتمع والثقافة(٤٠). بل إن القيم الغربية قد تدمر المجتمع كله.. فقد كان الأناسي المعروف

الفرد مترو قد وضع في الخمسينات من القرن العشرين دراسة تحت عنوان «ثورة الفأس»، تحدث فيها عما أحدثه إدخال الفؤوس الحديدية على حياة بعض القبائل التي لم تكن تعرف الحديد، ناهيك بالفؤوس الحديدية. كان دخول هذه الفؤوس مدعاة لتخريب نظام مجتمعي بكامله، ونسف نمط حياة كان ما يزال صامدًا في وجه أسباب التغير منذ قرون.. تغيرت وتيرة الحياة وطبيعة القيم والتبادلات والعلاقات المجتمعية والاقتصادية، بل ونصوص أساطير متوارثة منذ آلاف السنين، مما آل إلى حالة تسيب كاملة مالبثت أن أدت إلى انهيار فعلي، تفككت على أثره هذه القبائل، وتاه أفرادها في الفيافي، ومالبثوا أن انقرضوا، شأنهم في ذلك شأن جديس وطسم وأهل الرس!!!

ويخلص الأناسي مترو إلى أن اختلال النظام المجتمعي، الذي يحصل بناء على ظواهر كهذه، إنما ينتمي إلى مايمكن تسميته «علم أمراض المجتمعات البشرية» الذي لاقى العلماء كثيرًا من العنت، وبذلوا كثيرًا من الجهد، لتحديد ورصد معالمه. بل إن الباحث لايتردد في القول إن هذه القبائل المصابة بالمرض المذكور كانت ضحية وفرة في الخيرات التي أتاحتها التقنية الجديدة، وليس -كما يسرع إلى الأذهان- نتيجة لإدقاع مادي أو اقتصادي. لقد انهار النظام المجتمعي بانهيار مقوماته جميعًا، رغم أن المستوى الاقتصادي كان قد ارتفع. كان تبني الفأس الفولاذية، رغم كونها تقنية أشد اتقانًا وفاعلية من الفأس الحجرية مرعية الاستعمال (بل بسبب كونها أشد فعالية)، قد أدى إلى انهيار التنظيم المجتمعي وإلى تفسخ الجماعة[41].

وفي مجال تأثير التقانة المختارة على العدالة الاجتماعية، يقرر المفكر الدكتور علي الدين هلال أن «التبني غير النقدي -أو بالجملة للتقانة الحديثة ذات الكثافة الرأسمالية العالية، يؤدي إلى دعم عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية بأكثر من طريقة.. ففي معظم الحالات، فإن التقانة الحديثة تفيد -أساسًا- المؤسسات والأفراد الذين يملكون الموارد الاقتصادية التي تمكنهم من استخدامها. فالفقراء ومحدود والدخل -من أفراد وهيئات- لايمكن لهم استخدام التقانة غالية الثمن. والعديد من منتجات هذه التقانة يتجه إلى الفئات الأكثر دخلاً في البلاد المتخلفة. أضف إلى ذلك أنه ما لم يوجد نظام تعليمي يضمن حق التعليم للأغلبية، فإن فرص العمالة التي توفرها التقانة الحديثة عادة ما تحتكرها الأقلية المتعلمة. ويلاحظ سنجر أن هناك صلة وثيقة بين نمط التقانة المستخدم ونمط توزيع الدخل في البلاد المتخلفة، وأنه عندما يتسم توزيع الدخل بعدم المساواة

وتكون للفئات عالية الدخل الفرصة الأكبر للحصول على الموارد النادرة، فإن نمط التقانة عادة مايكون متماثلاً مع ذلك القائم في البلاد الصناعية المتقدمة، والذي يتسم بكثافة الاستثمار في رأس المال»[٤٢].

وإن من أكثر الأمور خطورة، حقيقة أن التقانة المختارة تحدد، منذ البداية، نمط الاستهلاك والتوزيع.. يقول الخبير الاقتصادي الدولي محبوب الحق، في خطاب له أمام المؤتمر العالمي الثاني لجمعية التنمية الدولية: «نحن أكثر إدراكًا لحقيقة أن نمط وتنظيم الإنتاج نفسه يمليان نمطًا للاستهلاك والتوزيع يكون من العسير للغاية من الناحية السياسية تغييره.. فما دمتم قد زدتم ناتجكم القومي الاجمالي عن طريق إنتاج المزيد من السيارات والمساكن الفاخرة، فإنه لايكون من السهل، على الإطلاق، تحويلها إلى مساكن قليلة الكلفة، أو أوتوبيسات للنقل العام. ويترتب على ذلك بالضرورة نمط معين للاستهلاك والتوزيع»[٤٣].

كذلك، يؤكد الدكتور جلال أمين أن «قرار التوزيع هو جزء لايتجزأ من قرار الإنتاج والقرارات المحددة لسياسة الاستيراد.. فقرار إنشاء طريق جديد في العاصمة يتضمن في الوقت نفسه قرارًا بالتوزيع، إذ إن هذا القرار يستبعد من استخدام الطريق كافة سكان الريف الذين لاتطأ أقدامهم أرض العاصمة قط. والسلع الكهربائية هي منتجات عديمة القيمة لذلك الجزء من السكان الذين لم يصل إلى مساكنهم بعد التيار الكهربائي. كما أن الأفلام الأمريكية المستوردة لايمكن أن يوزع استهلاكها بالتساوي بين المتعلمين والأميين. كذلك، فإن قيام دولة فقيرة بتدريب أخصائي في الأمراض النفسية الناشئة عن سكنى المدن، أو مهندس متخصص في أجهزة تكييف الهواء، هذه كلها ليست مجرد قرارات تتعلق بالإنتاج وحده، بل تتضمن في الوقت نفسه تحيزًا في التوزيع ضد تلك النسبة من السكان الذين لاحاجة بهم إلى هذه الخدمات. فمتى اتخذت مثل هذه القرارات المتعلقة بالإنتاج أو الاستيراد، فإن نمط توزيع الدخل لابد أن يخضع للتغيير اللازم لتوليد الدخول الكافية لاستهلاك هذه المنتجات»[٤٤].

٥٥ وبعد.. فإنه لما كان الاعتماد على التقانة الحديثة المستوردة يؤدي (بالإضافة إلى مخاطر التبعية التقانية وتفاقم مشكلة المديونية) إلى تدمير القيم الاجتماعية التي أثبتت جدواها على مدى سنين طويلة طويلة، وتخريب العدالة الاجتماعية التي هي أبرز العوامل المحددة لمدى نجاح أية تنمية أو نهضة.. لما كان ذلك كذلك، فإن على دول الجنوب أن تبحث عن تقانة أخرى، ليست هي التقانة المستخدمة في دول الشمال، وليس هي التقانة التي استغنى عنها الشمال لسبب من الأسباب

(لأنها ملوثة للبيئة مثلاً).. تقانة ليست آخر صيحة من المخترعات، وليس -أيضًا- التقانة الوسيطة التي يبشر بها البعض فهذه التقانة الأخيرة لاتحل المشكلة، لأنها تعني -فيما تعنيه- أن دول الجنوب لايفصلها عن دول الشمال إلا فارق زمني فحسب، وأنها لهذا بحاجة إلى تقانة شمالية ولكنها أقل تقدمًا، أي تقانة وسيطة.

والمطلوب إذن.. تقانة تقوم على إعادة الاعتبار للتقانة المحلية. تقانة وظيفية، بمعنى أنها تقانة ذات فائدة عملية مباشرة في تلبية الحاجات الاجتماعية الحقيقية. تقانة تكون لها الملامح الأساسية الأربعة التالية:

١- عدم التناقض مع نسق القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع. لأن التقانة التي تخالف تلك القيم لايمكن إلا أن تكون عامل تخريب وتهديم، بدلاً من أن تكون عامل بناء وتطوير.

٢- التركيز على إنتاج السلع والخدمات التي تلبي حاجات الأكثرية الفقيرة، وهذا يعني اعتماد تقانة الضرورة لاتقانة الرفاه.

٣- كفالة الحفاظ على البيئة، وهذا يعني ترشيد استخدام الموارد الطبيعية بحيث لايضار مجتمع آخر أو جيل قادم.

٤- التلاؤم مع الإمكانات والموارد المحلية من أرض ومناخ ومعادن وغيرها، فلا يقام -مثلاً- معمل لاتتوفر له المواد الخام محليًا.

الخلاصة والنتائج

إذا كانت الثقافة هي -أساسًا- مبادئ السلوك أو القيم الاجتماعية، وكانت السياسة هي إدارة شؤون المجتمع، وكان الاقتصاد هو استخدام الموارد لإشباع الحاجات، فإن من طبائع الأشياء أن تحكم الثقافة السياسة، وتحكم السياسة الاقتصاد، ويكون -بالتالي- المقام الأول للثقافة، والمقام الثاني للسياسة، والمقام الثالث للاقتصاد.

وآخر القول: في ظننا، أنه لاخلاص لأمتنا، من هاوية الضعف والتخلف والانحطاط والضياع والهوان على الناس، إلا بأن:

- نعتمد «ثقافة الفضيلة»، بدلاً من «ثقافة النجاح».
- ونحافظ على «قيمنا»، بدلاً من استعارة «قيم الآخرين».
- ونتجه نحو «الاعتماد على النفس» لإنتاج وتطوير التقانة (أو التكنولوجيا) التي تنبع من قيمنا نحن، بدلاً من «الاعتماد على الآخرين» لتزويدنا بالتقانة التي تنبع من قيمهم هم.

إلا نفعل، نكن كمن يحرث في البحر!!

الهوامش والمراجع:

١- الدكتور الفاروق زكي يونس، في: مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة الدكتور علي سيد الصاوي، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يوليو/ تموز ١٩٩٧)، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ٢٢٣، ص٨ و٩.

٢- الدكتور معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يوليو/ تموز ١٩٨٧)، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ١١٥، ص٣٠.

٣ و٤- ذكرهما: الدكتور معن زيادة، المرجع السابق، ص٣١ و٣٢.

٥- ذكره: الدكتور الفاروق زكي يونس، المرجع الأسبق، ص٩.

٦- الدكتور محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، عشر أطروحات، مجلة «المستقبل العربي» - بيروت، السنة ٢٠، (شباط/ فبراير ١٩٩٨)، العدد ٢٢٨، ص١٤.

٧- الدكتور عبد الله عبد الدائم، في سبيل ثقافة عربية ذاتية، (بيروت، دار الآداب، ١٩٨٣)، الطبعة الأولى، ص٢٥ و٢٦.

٨- السيد ياسين، حضارة توشكى، جريدة «الأهرام»، القاهرة، ١٠ يوليو ١٩٩٧.

٩- الدكتور عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، ص٩١ و٩٢.

١٠- كامل زهيري (مراجع)، موسوعة الهلال الاشتراكية، (القاهرة، دار الهلال، ١٩٦٨)، ص٣٦٤.

١١- انظر: الدكتور علي كنعان، الاقتصاد الإسلامي، (دمشق- دار الحسنين، حمص- دار المعارف، ١٩٩٧)، الطبعة الأولى، ص٢٠.

١٢- الدكتور محمد شوقي الفنجري، المذهب الاقتصادي في الإسلام، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٨)، الطبعة الأولى، ص٦١.

١٣- انظر: الدكتور الفنجري، المذهب....، المرجع السابق، ص٦٢، و٦٣.

١٤- الدكتور الفنجري، المذهب....، المرجع السابق، ص٦٤ و٦٥.

١٥- الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٢)، ج١، ص٢٠٤.

١٦- العبارة للفيلسوف جون ديوي. ذكرها: الدكتور زكي نجيب محمود (مراجعة وإشراف)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، (بيروت، دار القلم، دون ذكر تاريخ نشر)، ص٢٠٣.

١٧- انظر أرنولد توينبي، الإسلام والغرب والمستقبل، المرجع الأسبق، ص٥٨.

١٨- الدكتور سعدون حمادي، السياسة والأخلاق، مجلة «المستقبل العربي»- بيروت، السنة ١٨، العدد ٢٠٤ (شباط/ فبراير ١٩٩٦)، ص ص٨٣-٩١.

١٩- الدكتور مطانيوس حبيب، الاقتصاد السياسي، (دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٠)، الطبعة الرابعة، ص١٣.

٢٠- كامل زهيري (مراجع)، موسوعة الهلال الاشتراكية، المرجع الأسبق، ص٢٩٥.

٢١- فرانك ايليس، السياسات الزراعية في البلدان النامية، ترجمة الدكتور إبراهيم يحيى الشهابي، (دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٧)، ص١٤.

٢٢- فرانك إيليس، السياسات ....، المرجع السابق، ص١٦.

٢٣- فرانك إيليس، السياسات ....، المرجع السابق، ص١٣.

٢٤- الدكتور أحمد الجويلي، مداخلة في مؤتمر «دور الدولة في الاقتصاد الحر». ذكرها: عزة علي ونجلاء ذكرى، خبراء الاقتصاد ورفع كفاءة الأجهزة الحكومية، جريدة «الأهرام»، القاهرة، ٢٠٠١/١/١٢.

٢٥- جريدة «المستقبل»، بيروت، ٢٠٠٠/٦/٤.

٢٦- انظر: محمود المراغي، استقالة الدولة، جريدة «الأهرام»، القاهرة، ١٩٩٩/١٢/٧.

٢٧- الدكتور يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، (دمشق- الدار المتحدة، وبيروت- مؤسسة الرسالة، ١٩٩١)، الطبعة التاسعة، ص١٥.

٢٨- ذكره: الدكتور سعيد اسماعيل علي، ليس وحده، جريدة «العربي» - القاهرة، ٢٠٠٠/١٠/٥.

٢٩- انظر: جريدة «البعث» - دمشق، ٢٠٠٠/٩/٤.

٣٠- انظر: الدكتور الطيب تيزيني، ثلاثية السلطة والمال والفساد، مجلة «الأهرام العربي» - القاهرة، العدد ٢١٣، ٢٠٠١/٤/٢١، ص٣١.

٣١- إيان س. ماكدونالد، الفساد، مجلة «التمويل والتنمية»، واشنطن، يونيو ٢٠٠٠، ص١.

٣٢- ذكره: الدكتور صلاح وزان، تنمية الزراعة العربية.. الواقع والممكن، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨)، الطبعة الأولى، ص٤٣١.

٣٣- انظر: محمد السماك، نحو شرعة دولية لمكافحة الفساد، جريدة «المستقبل» - بيروت، ٢٠٠١/٧/٨.

٣٤- روبرت كليتجارد، استئصال شأفة الفساد، في مجلة «التمويل والتنمية»، المرجع الأسبق.

٣٥- جريدة «الكفاح العربي» - بيروت، ١٩٩٩/١١/٣.

٣٦- جريدة «الأهرام» - القاهرة، ٢٠٠١/٢/١١.

٣٧- الدكتور صلاح وزان، تنمية الزراعة....، المرجع الأسبق، ص ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤٢.

٣٨- الدكتور أسامة أمين الخولي، المخاطر والمحاذير في نقل التكنولوجيا - الجزء الثاني، مجلة «أخبار المعهد» الصادرة عن معهد الكويت للأبحاث العلمية، المجلد الخامس، العدد الخامس، مايو (أيار) ١٩٨٥، ص١٩.

٣٩- الدكتور جلال أحمد أمين، التراث والتنمية العربية، من أعمال ندوة التراث وتحديات العصر، في: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص٧٦١.

٤٠- الفيلسوف دايا كريشنا، العلم والتكنولوجيا والقيم، ترجمة رمزي يسي، مجلة «ديوجين» الصادرة عن اليونسكو، السنة ١١، العدد ٢٧، مايو - يوليو ١٩٧٧، ص٢١.

٤١- الدكتور جوليه. في: برنامج الأمم المتحدة للبيئة، حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي (الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات)، ترجمة عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو / حزيران ١٩٩٠، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ١٥٠، ص٤٢٦ و ٤٢٧.

٤٢- الدكتور حسن قبيسي، من قضى ومن ينتظر، مجلة «الفكر العربي» - بيروت، السنة السابعة، العدد ٤٥، آذار ١٩٨٧، ص٥ و ٦. وللاطلاع على دراسة «ثورة الفأس» التي أشار إليها الدكتور قبيسي، يرجع إلى العدد نفسه من المجلة، ص ص ٣٤١ - ٣٤٩.

٤٣- الدكتور علي الدين هلال، الأبعاد السياسية والاجتماعية لنقل التكنولوجيا في الوطن العربي، مجلة «المستقبل العربي» - بيروت، العدد ٣٧، شباط / فبراير ١٩٨٢، ص١١١.

٤٤- محبوب الحق، ستار الفقر.. خيارات أمام العالم الثالث، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧)، ص٦٠.

٤٥- الدكتور جلال أمين، المشرق العربي والغرب (بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية)، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٠)، الطبعة الثانية، ص٩٥.

المنهج والنظرية في نقد الأدب

د. حسين الجمعة *

في الدراسات النقدية المعاصرة، قلما يلفتنا الدارسون إلى الفرق بين هذين المصطلحين: «المنهج» و«النظرية».

فما المنهج وما النظرية..؟

المنهج كما هو معروف: الطريقة التي يتخذها النقاد للوصول إلى تحقيق النظرية. وهنا يجب الحذر من إطلاق مصطلح النظرية على أنها نتيجة لفرضية علمية. لأن النظرية، في الحقيقة العلمية، إنما تنشأ عن فرضية يفترضها العالم، وهو يجري تجاربه المخبرية على شيء مادي.فإن

(*) د.حسين الجمعة: باحث من سورية، دكتوراه في الأدب العربي، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية البحوث والدراسات.

تحققت لديه فرضيته تحقيقًا علميًا، عندئذ تسمى «نظرية» أو «قانونًا».

لذلك لا نظرية في الأدب، لأن الأدب كثير المفارقات وكثير التفاوت بين الذاتية والموضوعية. ولهذا لا يخضع للقوانين العلمية.

ولذلك، فعندما درج النقاد على إطلاق مصطلح النظرية في الأدب، فإنهم أطلقوها على سبيل المجاز، لا على الحقيقة.

والنظرية في الأدب، إنما هي المحور الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي أو الفني الذي يتفلك حوله الناقد بحثًا عن قيمة النص الإنسانية من وجهة نظره الثقافية النقدية.

وبما أنه لكل ناقد منهجه الخاص للاستدلال على نظريته الخاصة، فقد اقتضت هذه الدراسة أو هذه الرسالة إعطاء الأولوية للمناهج الأدبية.

١- المناهج الأدبية:

على الرغم من أن للمنهج مفهومًا واضحًا، هو الطريقة، فقد تباينت الطرق. قد يكون منشأ هذا التباين، وهو الأغلب، تأثر بالمدرسة التي يصدر عنها الدارسون، كأن يكون بعضهم متأثرًا بالمدرسة الفرنسية أو متأثرًا بالمدرسة الإنجليزية أو الألمانية..ولقد أوضح محمد مندور، كواحد من تلاميذ المدرسة الفرنسية، الاختلاف المنهجي بين المدرستين الفرنسية والإنجليزية بالبيان التالي: «وأساس المنهج الفرنسي، هو ما يسمونه تفسير النصوص. فالتعليم في فرنسا يقوم، في جميع درجاته، على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب وتفسيرها والتعليق عليها. وفي أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادئ اللغوية والأدبية بالعرض عرضًا تطبيقيًا تؤيده النصوص التي يشرحونها.

والجامعات الفرنسية لا تلقى فيها محاضرات عن العلوم النظرية التي تتصل بالأدب. فلا نحو ولا بلاغة ولا نقدًا. بل ولا تاريخ أدب. وإنما يعالج ذلك في أثناء شرح النص. ومن هنا قلما نجد في اللغة الفرنسية كتابًا في النقد النظري على نحو ما نجد في اللغة الإنجليزية»[(١)].

ذلك هو الفرق بين المنهجين، المنهج الإنجليزي، وهو المنهج النظري أو التنظيري، الذي تأثر به مثلاً: العقاد، والمنهج الفرنسي وهو المنهج التطبيقي الذي تأثر به طه حسين، الذي قال في «الأيام»: إنه درس الأدب على لانسون، في السوربون، ولم يقل إنه درس النقد. أي درس المنهج ولم يدرس التنظير. وعلى أي حال، فبما أن العلاقة بين الأدب والنقد،

(١) محمد مندور في الميزان الجديد -ص٤.

أو بين المنهج والنظرية، علاقة حميمية، إذ لا يستطيع النقد الاستقلال عن الأدب، وهو في الوقت نفسه ليس تابعاً له، إنما هما فعاليتان تعطي كل منهما الأخرى وتأخذ منها، ولا يمكن أن تتطور إحداهما بمعزل عن الثانية، فإن تحليل العلاقة بين هاتين الفعاليتين المتواشجتين، تلزمنا بمحاولة تعريف الأدب، لنأخذ فيمابعد، بتعريف النقد الأدبي.

- ما الأدب..؟ هل هذا ممكن..؟

هل الأدب علم وضعي يمكن تعريفه، لغة واصطلاحاً، كما هي الحال مثلاً في تعريف علوم الأدب الوضعية، كالنحو والبلاغة..؟

من الممكن القول، مبدئياً، إن الأدب، بكل أجناسه، الشعر والقصة والمسرحية والدراسات، فعالية إبداعية فكرية وفنية. وهو في الحقيقة عالم جمالي واسع كعالم الإنسان الداخلي، يصعب أن تحيط به التعاريف العلمية أو تستوفيه المواصفات.

قد يمكن لكل منظر أن يعرفه من وجهة نظره الشخصية، أو من وجهة نظر المدرسة أو الفلسفة التي ينتمي إليها. ولكنه لن يبلغ مداه، إنه بحر خضم من المفارقات والرؤى المعقدة، أو كما قال مندور: «إنه وضع مستمر للمفارقات والإشكالات» أو كما قال في موضع آخر: «نعني بالأدب كل ما يثير فينا، بفضل خصائص صياغته، إحساسات جمالية أو انفعالية عاطفية أو هما معاً. ونقصد بخصائص الصياغة الجمال الفني وطريقة الأداء اللغوي، ونقصد بالاحساسات الجمالية عد الأدب فناً جميلاً. فإن فقد القيم الجمالية، فقد كونه أدباً. أما الانفعالات العاطفية، فلابد للأدب أن يتضمن حرارتها، وإلا انقلب إلى حقائق علمية»[2].

وهناك آخرون تداعوا إلى تعريف الأدب بمقولات، بعضها تفصيلي وبعضها جزئي كقول أحدهم: «إنه تعبير عن تجربة شعورية موحية». ومع أن تعريف مندور لم يميز بين الذاتي والموضوعي، أو بين الشكل والمضمون، فكان تعريفه أقرب إلى الأسلوب منه إلى الأدب، فقد يمكن، من هذا المعطى، ومن المعطيات الأخرى، تكوين فكرة عامة عن مفهوم الأدب وعلاقته بالنقد الأدبي.

- فما النقد الأدبي..؟

النقد CRITICISM كلمة مشتقة، كما قال لويس عوض، من الفعل اليوناني CRINO. ومعناه: «يميز أو يحدد». وعلى ذلك يكون معنى النقد الأدبي، في اللغات الأوروبية: «التمييز والتحديد»، أي الكشف عن الخصائص الفكرية والفنية في العمل الأدبي وتمييزه من غيره.

(٢) مندور: الأدب وفنونه - ص٤.

وبهذا المفهوم، أخذ المنظرون يفسرون النقد تفاسير تكاد تكون متقابسة، وإن كانت بصيغ مختلفة.. منها:

١ - الكشف عن جوانب النضج الفني وتمييزها مما سواها عن طريق الشرح والتحليل والتعليل، ثم الحكم العام عليها.

٢ - تقويم العمل الأدبي من الناحيتين، الفكرية والفنية، والكشف عن قيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خط سير الأدب، وقياس مدى تأثره بالمحيط وأثره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه التعبيرية والشعورية، وكشف العوامل النفسية والخارجية التي اشتركت في تكوينه.

٣ - فن دراسة النصوص الأدبية والتمييز بين الأساليب المختلفة.

٤ - النقد الأدبي فعالية فكرية ذوقية نستطيع بواسطتها فهم المسائل الأدبية وتفسيرها وتحليلها، وإصدار أحكام مناسبة بشأنها.

ويراعى في هذا التعريف تعدد الفعاليات التي يتطلبها النقد، وهي الشرح والتعليل والتقويم، لأن النقد إنما يتناول طبيعة الأدب ووظيفته، ووصف الأنواع الأدبية ونشأتها وتطورها.

والتعريف الثالث هو تعريف مندور الذي ذهب إلى أن النقد هو «فن تمييز الأساليب» انسجامًا مع نظرية الناقد الفرنسي لانسون.

ويوجز مندور مفهوم النقد بتحديد وظائفه. فيقول: «إن النقد تفسير وتقويم وتوجيه». وبتفاوت الاهتمام بإحدى هذه الوظائف، يتميز ما نسميه «الدراسة الأدبية» عما نسميه «النقد الأدبي». فالدراسة الأدبية والتاريخ الأدبي، يركزان الاهتمام على الناحية التفسيرية، بينما النقد يركز على التقييم والتوجيه»[٣].

ومع أنه أغفل من وظائف النقد الأساسية «التحليل»، وجعل «التفسير» من وظائف الدراسة الأدبية، فقد جعل النقد فنًا خالصًا، «فن تمييز الأساليب» والأساليب التي هي الأطر اللغوية للعمل الأدبي، أو هي الأشكال التي يطرحها العمل الأدبي، لاتستقطب عملية التمييز، لأن الأدب شكل ومضمون، لذلك فالنقد عملية مركبة من الفكر والفن، تتناول طبيعة الأدب ووظيفته، ووضع النص الأدبي في سياقه التاريخي، العصر والبيئة، بعد التحليل والتفسير أو التعليل، لإصدار أحكام مناسبة بشأنها. كما كان في تعريف الدكتور حسام الخطيب في التعريف الرابع[٤]، وكما أوضح ذلك من قبل طه حسين بقوله:

(٣) محمد مندور: الأدب وفنونه - ص١٣٦.
(٤) د.حسام الخطيب: أبحاث نقدية ومقارنة - ص٣٧.

«قفا نبك، لامرئ القيس، ماموضوعها..؟ وما أسلوبها..؟ وما قيمتها الفنية..؟ وما مكانتها من الشعر المعاصر لها ومن الشعر الذي جاء قبلها وبعدها..؟ وما الصلة بينها وبين نفس الشاعر وبينها وبين نفوس الآخرين الذين قيلت فيهم..؟»[٥]

على هذا النحو ينبغي أن تقوم عملية النقد الأدبي، على التحليل والتفسير والتقييم، كما في نظرية طه حسين، وفي نظرية حسام الخطيب.

فما التحليل وما التفسير وما التقييم[٦].

- التحليل:

لنأخذ هذا المثال التبسيطي من خارج الإطار الأدبي لفهم ميكانيكية التحليل.

عندما يحاول خبير أو مهندس ميكانيكي أن يتفحص آلة حديثة من الداخل، فإنه يعمد إلى تفكيك الآلة ليطلع على أجزائها الداخلية، ليكتشف كيف صممت هذه الآلة وكيف تعمل أجهزتها الداخلية، متكاملة مع بعضها، لتشغيل الآلة. فإذا تم له ذلك، وكان دقيق الملاحظة، فإنه يستطيع أن يعيد تركيب الآلة التي فكك أجزاءها، وأن يشرح عمل الآلة ويوضح العلاقات الديناميية بين أجزائها الداخلية. وعلى هذا النحو من فك الآلة وتركيبها، يحلل الناقد النص الأدبي، يفكك أجزاءه ويدرس ارتباط كل جزء بالآخر بغية الكشف عن العلاقات الفكرية والخصائص الفنية التي تجعل من النص، كلاً بنائيًا متماسكًا كما ينبغي أن يكون. ومن أجل هذه الغاية، يرى النقاد التحليليون أن الشيء الجديد بالاهتمام في النص، هو بنيته الكلية.

- التفسير:

وإذا كان التحليل يشرح ويوضح ماذا قال الأديب في النص، «ما موضوعه...؟» وكيف قال؟ ما أسلوبه...؟

فإن التفسير يحاول أن يكتشف: ماذا أراد الأديب أن يقول...؟ «ما مضمون نصه...؟».

وتجدر الإشارة إلى أن المضمون Content لا يعني الموضوع ولا المعاني الجزئية التي يحملها الموضوع. ففي كل موضوع معان كثيرة ومختلفة،

---

(٥) طه حسين: في الأدب الجاهلي - ص٤١ .

(٦) استعملت «التقييم» من «قيّم» عوضًا من «التقويم» من «قوّم». والواقع لايوجد في اللغة الفصحى «قيّم تقييمًا». بل الموجود «قوّم تقويمًا»، كقولهم مثلاً: قوّم الرمح: وجهه وعدل اعوجاجه. وهذا لا يلائم نظرية الأدب، لأن الأدب إنما يسعى إلى إعطاء النص قيمته الفكرية والفنية، لاتقويم اعوجاجه. فالقيمة هي المعوّل عليها في البيان النقدي.

أما المضمون، فهو المضمر الكلي الذي يسعى الناقد إلى إماطة النقاب عنه، كأن يكون فلسفيًا أو رمزيًا أو اجتماعيًا أو مذهبيًا، يفسره الناقد على ضوء ما انتهى إليه من التحليل. لذلك فإن الناقد المفسر في حاجة إلى أن يتمتع بثقافة لغوية وتاريخية واجتماعية وفلسفية، وإلى ثقافة دينية أيضًا، ليتمكن من استجلاء مضمون العمل الأدبي المتواري خلف الموضوع، وأن يكون دقيق الملاحظة، لا يتعسف فيقع في المغالطات. وهذا ما عبر عنه روسو بقوله: «لابد لنا من فلسفة كبرى لنلاحظ ما يقع عليه بصرنا».

فقارئ الشعر الديني، في المذاهب الإسلامية مثلاً، لا يستطيع أن يفسر مطلع رائية ابن هانئ الأندلسي:

ما شئت لا ماشاءت الأقدار

فاحكم فإنك أنت الواحد القهار

لا يستطيع أن يفسر ما وراء هذا المعنى، ما لم يقف على عقيدة الحلول القائمة على أن قدرة الله إنما تنتقل إلى الإمام، وأن الأئمة يتناوبون في أدوار، وكل دور يتألف من سبعة أئمة، وأن المخاطب في هذه القصيدة، وهو المعز لدين الله الفاطمي، إنما هو الإمام السابع، وهو العقل الكلي. إلى غير ذلك من الأسس التي أعدت لتأليه الأشخاص.

والجدير باستلفات النظر، أن التفسير في المصطلح النقدي، يقابله التأويل في المصطلح الديني، ولاسيما في تأويل سور القرآن وآياته. والواقع أن التأويل، في بعض جوانبه، مطلب ثقافي ديني، ما لم يتعسف المؤولون تعسفًا قصديًا كما هي الحال عند بعض الفرق الدينية الغالية، وعند بعض الصوفيين.

وكذلك فإن تفسير مضامين الأعمال الإبداعية الحديثة، في حاجة إلى الناقد الأبعد تبصرًا في الآداب الأكثر تعقيدًا فنيًا، وأكثر ترميزًا وفلسفة.

فالقارئ العادي لا يرى في مسرحية «أهل الكهف» لتوفيق الحكيم، (غير قصة دينية ممتعة تصور تلك المعجزة التي حدثت في تاريخ المسيحية. أما الناقد التحليلي المفسر، فإنه يكتشف في هذه الدراما الذهنية الرمزية، فلسفة الكاتب في الحياة. فالحياة في نظره، إن هي إلا الروابط التي تربط الإنسان بعصره وبيئته، فإذا انعدمت هذه الروابط، بحكم التاريخ أو الزمن، لم يعد للحياة معنى، إذ تصبح، هي والموت سواء. بل الموت، العودة إلى الكهف، أفضل من حياة لا معنى لها).

قصة أهل الكهف التاريخية، هي الموضوع، أما فلسفة الكاتب، فهي المضمون.

إن مادة العمل الأدبي هي موضوعه object. أما مضمونه content،

فهو كما يقول محمود أمين العالم، «الاستجابة للموضوع»[٧].

(موضوع مأساة «أوديب الملك» لسوفيكلس، هو قتل أبيه، والتزوج بأمه. أما مضمونها، فهو ما وراء موضوعها، هو الصراع بين القدر وبين الإنسان).

وكذلك الحال في المقابلة ما بين رواية «زينب» لهيكل، وبين رواية «الأرض» للشرقاوي، ورواية «يوميات نائب في الأرياف» للحكيم، كلها ذات موضوع واحد، هو المجتمع الريفي، ولكن لكل منها مضمون يختلف عن مضمون الأخرى.

- تقييم العمل الأدبي:

بعد تفسيره، ويفترض أن يكون موضوعيًا، يصل الناقد إلى المرحلة الأخيرة من وظائف النقد، هي تقييم العمل الأدبي فكريًا وفنيًا. أي إعطاؤه قيمته في سلم القيم الأدبية، وهذا هو معنى الحكم. والحكم القيمي ليس حكمًا سلطويًا أو ذاتيًا يمارسه الناقد على الأديب، إنما هو الكشف عن مصادر العمل وأصونه التاريخية، ومقارنته بأعمال عاصرته أو سبقته في التجربة ذاتها، كأن يحكم عليه بالجودة أو الرداءة، بالتقليد أو التجديد، بالسكونية أو التطور، بالإخفاق أو النجاح. وهذا هو معنى التمييز. فمن لا يستطيع أن يميز الرفيع من الهابط، لن ينجح في وضع العمل في مكانه من سلم القيم الإبداعية. وهذا هو مفهوم النقد الأدبي، إنه في الحقيقة عمل خلاق أيضًا، يغني الأدب بمفاهيم حياتية جديدة تفتح للإنسانية آفاقًا من المعرفة والفن.

٢- من المناهج إلى النظريات:

المناهج الأدبية هي الأصول التي يبني عليها النقاد فرضياتهم أو نظرياتهم. أو هي التي بنى على أصولها المنظرون، من نقاد الأدب والفلاسفة وعلماء النفس، نظرياتهم الأدبية، وبقدر ما كان للمنهجيين من التفاوت بين الموضوعية والتأثرية، أو من اختلاف الطرائق بين أخلاقية وعاطفية انفعالية، أو بين علمية وذوقية، أو بين اجتماعية وفردية، أو بين فلسفية ونفسية.. كذلك كانت النظريات الأدبية بين النقاد والفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع، منذ العصر اليوناني حتى العصور الحديثة.

فما إن انتصف القرن الخامس قبل الميلاد، حتى رفدت الفلسفة الشعر. ولعل من أبرز مظاهر الترافد بين الفلسفة والأدب، ظهور ملهاة «السحب» للشاعر اليوناني أرستوفان، الذي هاجم فيها سقراط والفلاسفة، لأنهم أرادوا أن يحرفوا العقل اليوناني من الخضوع للآلهة، أو الدين، إلى الخضوع للفلسفة. وهذا أول

(٧) محمود أمين العالم: الثقافة والثورة -ص٣٢٨.

مظهـر من مظاهر الصـراع بين الدين والفلسـفـة التـي بدأت تمـد ظلالهـا على الأدب.

وكـذلك كـان الصـراع بين القـديم والجديد، في ملهاته الثانية «الضفادع». فقد اتخذ فيها أرستوفان زميله الشاعر أسخيلوس نموذجًا للقديم المحافظ، واتخذ من الشاعر يوريبيدس نموذجًا للحديث المتمرد على القديم. ومع أن الشاعرين، **أسخيلوس ويوريبيدس** كانا متفقين، من حيث المبدأ، على أن الشعر تعليم، فقد **اختلفا في المنهج**. فأسخيلوس يرى أن **الشعر ينبغي أن يرتفع بالشعب إلى المثل العليا** المستمدة من الميثولوجيا. أما **يوريبيدس**، فيرى أن الشعر ينبغي أن يعلم **الشعب العواطف الشعبية**، وأن يتصل بهم مباشرة، فكرًا ولغة.

وانطلاقًا من الفعاليات الفلسفية، أخذ الصراع يمتد ويتطور حول المشكلات الأساسية للشعر، حول وظيفته وطبيعته.

وأتى أفلاطون، فحمل على الشعر وسفّه الشعراء على أنهم خياليون يحكون تأثراتهم بخيال جانح، دونما صدق ودونما ابتكار.

ثم جاء **أرسطو** فدرس الشعر دراسة تحليلية، فانتهى إلى أن الشعراء لا يحاكون الواقع محاكاة تقليدية مطابقة للأصل، إنما يصورون في **المأساة: «التراجيديا» الطبيعة**، خيرًا مما هي، أو شرًا مما هي. ويصورون في **الملهاة: «الكوميديا» الناس**، خيرًا مما هم، أو شرًا مما هم.

فالمأساة تصور حدثًا جديًا متكاملاً، يحقق في أسلوبه، أو في عرضه للنظارة المتعة التي تطهر النفس الإنسانية من الخوف والأخلاط، وتعالجها كما تعالج الموسيقا المرضى من الانفعالات الهيجانية.

أما الملهاة، فتصور الناس، شرًا مما هم بأسلوب ساخر. وبذلك نقض **أرسطو** نظرية **أفلاطون** في المحاكاة السلبية بنظرية المحاكاة الإيجابية، **نظرية التطهير** الأخلاقية أو التربوية الإنسانية. بعد هذه المرحلة التي مدت الفلسفة فيها ظلها على الشعر، ظهر في القرن الثالث الميلادي، الفيلسوف الإغريقي **لونجينوس**، فنقض نظريتي أفلاطون وأرسطو، فذهب إلى أن الشعر لا يدفع إلى جنوح الخيال، ولا إلى العواطف الذميمة كما قال **أفلاطون** ولا يطهر النفس، ولا يؤثر فيها تأثيرًا نفسيًا، فلا هو خيالي كاذب أو جانح، ولا هو أخلاقي تربوي، إنما يؤثر في النفس الإنسانية تأثيرًا **جماليًا**، لا غاية له سوى الغاية الجمالية.

وبهذه النظرية **الجمالية**، كان **لونجينوس** أول منظر جمالي في الأدب.

ثم تبلورت نظرية لونجينوس الجمالية، بنظرية الفلسفة

الجمالية Aesthetica في القرن الثامن عشر. فذهب الفيلسوف الألماني، كانت، رائد النظرية الجمالية في الأدب والفن، إلى أن «الفن لا غاية له سوى تحقيق المتعة الجمالية الخالصة، الخالية من الغرض» أي الخالية من المضمون، وأن الشكل الفني بقوانينه الداخلية الخالصة، الوزن في الشعر، والألوان في الرسم، والألحان في الموسيقا، هذا الشكل الفني هو مصدر الحكم عليه بالجمال أو القبح. ولا شيء ألصق بالجمال من الأدب والفن»[٨].

وهذا ما أراده كروتشه بقوله: «إن الجمال في الفن لا يعود إلى مضمونه، بل يعود إلى الصورة التي تكسب المضمون جماله الفني» فغاية الفن عنده، هي ذاته، في شكله وأسلوبه وصورته، ولا وجود للمضمون دون التعبير الفني.

وفسر الفيلسوف الألماني هذه النظرية الجمالية، باتخاذ الشاعر منظراً قبيحًا من الواقع، موضوعًا لشعره، كبائس تزوّر منه العيون، فإنه يصبح في قصيدته عملاً فنيًا إبداعيًا يخلب الأبصار والألباب.

ومن ألمانيا انطلقت شرارة القيم الجمالية في الأدب والفن إلى أوربا وأمريكا، فأحدثت صراعًا بين دعاة الشكل وبين دعاة المضمون. أيكون الجمال في الشكل أم في المضمون..؟ في صورة الأدب أم في مادته، أي في موضوعه؟ في طبيعته، أم في وظيفته..؟

فذهب دعاة القيم الأخلاقية إلى أن الفن لا ينعزل عن المجتمع، لا ينعزل عن المضمون الاجتماعي، وإلا فإنه يعيش في فراغ.

أما الجماليون، ولاسيما تيوفل جيته، رائد دعاة الفن للفن، فقد ذهب إلى أن الفن لا يقصد به إلى شيء خارج غايته الحقيقية، وهي الإحساس بالجمال. وكل ما عداه من قيم، فهي قيم طارئة[٩]. وهكذا استمر الصراع بين النظرية الجمالية والنظرية الأخلاقية الاجتماعية، إلى أن ظهرت في فرنسا فلسفة جديدة هي فلسفة كونت الاجتماعية الوضعية، فتأثرت بها الحياة الأدبية، فأخذ نقاد الأدب في فرنسا يقيمون دراساتهم على ضوء هذه الفلسفة حتى انتهوا إلى أن الأدب تعبير عما يجري في المجتمع من نظم وعقائد وأفكار، وأن الآداب الخالدة إنما نشأت في أحضان المجتمعات وعلى هذا النحو التقوا دعاة القيم الأخلاقية، أي أن للأدب وظيفة اجتماعية، بالغوا بالتزامها، دون الوظائف الإنسانية الأخرى، مما قاد إلى نظرية الصراعات الطبقية، والنظرية الواقعية الاشتراكية.

(٨) د. حسام الخطيب: أبحاث نقدية ومقارنة - ص١٨.
(٩) المصدر السابق - ص١٩.

وبفضل هذه الفلسفة، تطورت العلوم الطبيعية، وإذا نقاد من فرنسا يحاولون تطبيق قوانين هذه العلوم على الأدب، وذلك بتقسيم الأدباء إلى فصائل. وكان سانت بوف وتلميذه تين، رائدي الاستجابة لهذه النظرية الطبيعية، مع اختلاف بينهما في المنهج.

أقام بوف منهجه النقدي، على أساس فهم شخصية الأديب البيولوجية والنفسية، أكثر من أدبه.

أما تين، فلم يعن بالشخصية الفردية، لأن الطبيعة لا تعرف القوانين الفردية، إنما تعرف القوانين العامة. لذلك لا أثر للشخصية الفردية عنده في الأدب، إنما الأثر للجنس والبيئة والزمان التي هي القوانين الطبيعية الحتمية التي ينشئ الأديب أعماله من داخلها. فهو كالشجرة، نتيجة مباشرة لتربتها. لذلك لابد من فهم التربة التي أنبتته وغذته.

وبذلك نحى جانبًا الأصالة الفردية التي تجعل أديبًا ما، متميزًا عن الآخر.

«لقد حاول تين، والقول لبوف، أن يفسر عبقريات الشعوب والأفراد بردها إلى عوامل البيئة والجنس والزمان، ولكنه لم يوفق إلى ذلك، لأن شيئًا ظل بعيدًا عن منهجه، هو الفرد الذي يمتاز بالأصالة ويأتي بالعجب»[10]

يضاف إلى ذلك أنه إنما أخفق أيضًا برد الامتيازات الفردية إلى العامل الجنسي وفقًا لنظرية رينان الفرنسي التي باءت، علميًا وتاريخيًا، بالخواء.

وفي العصر الحديث، اجتاحت عالم الإبداع الفني، في الأدب والرسم، نظرية فرويد في تفسير الأعمال الإبداعية، عند بعض الأدباء والرسامين، بأنها تنفيس عن رغبات جنسية كامنة في اللاشعور منذ الطفولة..!

وانتهى بالتحليل النفسي إلى أن أعمالهم ما هي إلا تعويض عما افتقدوه، في عالم الجنس، من إشباع رغباتهم المكظومة، التي لم يستطيعوا إفراغها في طفولتهم..!

فكانت نظرية الفن عنده تعبيرًا تعويضيًا عن عقدة أوديبية وبهذه العقدة النفسية فسر أعمال فنانين كبيرين، هما: الروائي العظيم دوستويفسكي، والرسام العظيم دافنشي.. والفساد أو الخلل في هذه النظرية هو تفسير الأعمال الفنية بعاهات أصحابها، الفردية لا الجماعية، أو التركيز على شخصية الفنان دون اعتبار لفنه. وهذا ما دفع الناقد النفسي يونج، أحد تلاميذ فرويد، إلى تسفيه هذه النظرية، بقوله:

(١٠) محمد مندور: في الأدب والنقد- ص٦١.

إن شخصية الفنان قد تساعدنا على تفسير بعض أعماله الفنية، إلا أن آثاره الفنية إنما تحمل دلالات إنسانية جماعية لا فردية.

وفي أوائل القرن الماضي، القرن العشرين، امتد الصراع بين نظريتي الشكل والمضمون، أو بين المتعة والفائدة، إلى صراع جديد حول النقد الذاتي التأثري، والنقد الموضوعي.

– انحكم على الأعمال الأدبية بأذواقنا الشخصية تبعًا لتأثيرها فينا، أم وفق أصول معيارية، دون أن يكون لاستجابتنا الذاتية تدخل في الحكم..؟

وكان من أبرز النقاد الفرنسيين الذين تبنوا نظرية الاتجاه الذاتي التأثري، جيل ليمتر الذي هاجم النقد المعياري، وذهب إلى أن «الأصول المعيارية، أو القواعد، ليست في حقيقتها سوى انطباعات فردية تجمدت بمرور الزمن. ومن الواجب أن يتخلص منها الناقد الأدبي ليمتعنا بالأدب»(١١).

وممن أخذ بنظرية النقد الذاتي، الفرنسي إميل فاجيه. ولكنه بالقياس إلى ليمتر، كان أقرب إلى ما يمكن أن نسميه: التعادلية منه إلى الانفعالات الذاتية.

يبدأ النقد عند فاجيه حيث ينتهي التاريخ الأدبي، الذي ينبغي أن يكون موضوعيًا. وحينئذ يطلب إلى الناقد الأدبي أن يوضح رأيه الشخصي في الكاتب وفي الكتاب، سواء أكان رأيه قائمًا على أصول ومبادئ معيارية أم على انفعالات وجدانية: «ما يطلب منه، ليس خريطة للاقليم، بل إحساساته عن السياحة التي قام بها في الاقليم»(١٢). أي الاستجابة الذاتية.

ويأتي الناقد الفرنسي الموضوعي: لانسون، ليسوغ نظرية النقد الذاتي تسويغًا موضوعيًا: «لن نعرف طعم النبيذ بتحليله كيماويًا، أو بتقرير الخبراء، ما لم نذقه. وكذلك الأمر في الأدب. لا يمكن أن يحل شيء محل التذوق. فإلغاء العنصر الذاتي إلغاء تامًا، ليس ممكنًا. ولكن الشيء الأساسي هو ألا أجعل لذوقي الشخصي ومعتقداتي قيمة مطلقة. يجب أن نحاول الوصول إلى المعرفة بمناهج البحث الموضوعية. إن التأثرية هي الإحساس بالجمال. ولكن قد لا يكون الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة. يجب أن نجمع كل ما نستطيع من معلومات شيئية –موضوعية– يمكن أن نتأكد من صحتها، ولا نطلب إلى الحدس أو العاطفة إلا ما لا يمكن الوصول إليه بطريقة أخرى»(١٣).

(١١) محمد مندور: في الأدب والنقد – ص٨٦.
(١٢) المصدر السابق نفسه – ص٨٦.
(١٣) منهج البحث في الأدب: ترجمة محمد مندور – ص٢٦.

ويمكن تلخيص هذا البيان الموضوعي، بنظرية ت س إليوت في «المعادل الموضوعي». أي تحقيق التعادل أو التكافؤ بين الانفعال الشخصي وبين الموضوع. بمعنى آخر: عدم التفاوت بين الانفعال وبين الوقائع الخارجية[١٤].

إن التأثرية،فيما قال غراهام هو «مرحلة أولى وجوهرية لحيوية النقد. ولكن من الخطأ الظن بأنها يمكن أن تصبح منهجًا مكتفيًا بذاته. فلابد أن تتلوها الموضوعية. والموضوعيون لا يقصدون تطبيق القواعد والأصول تطبيقًا آليًا، إنما العبرة لديهم في استخدام تلك الأصول. وهنا تدخل المقدرة الشخصية، يدخل العنصر الذاتي في العنصر الموضوعي»[١٥].

تلك هي أهم النظريات الأدبية التي برزت عبر التاريخ. وكانت كلها تدور حول طبيعة الأدب ووظيفته. وكلها كانت، في الحقيقة، فرضيات نقدية تعاقبتها الفرضيات الفلسفية والاجتماعية والجمالية والسيكولوجية والأدبية المتفاوتة في وظيفة النقد، بين الشكل والمضمون وبين الذاتية والموضوعية، ولم تنجح في تحقيق نظرية علمية. كان بعضها يلتقي بعضها من جانب، وكانت تختلف من جانب آخر، تبعًا لا تفاق المناهج أو تعارضها.

وستبقى النظريات كذلك، ما دامت الانقلابات الفكرية والأطوار الفنية تجتاح العالم من عصر إلى عصر، فتتغير القيم والمفاهيم.

حتى النظرية اللغوية البنيوية، فإنها مازالت مجرد فرضية لم تستطع أن تحقق ذاتها في قانون علمي، لأنها أدب. ولأنها كما قال روبرت شولز «مازالت مشروعًا مذهبيًا يبحث عن القانون العام الموحد في إطار النسق الفكري والاجتماعي بحثًا منهجيًا ينطلق من مفاهيم أوسع من الأدب، تشمل العقل والمادة، واللغة والمجتمع»[١٦].

إذن، أعود إلى التأكيد على ما قلته في مطلع هذه الرسالة، بأنه لا نظرية علمية أو قانونية في الأدب، لأن الأدب كثير المفارقات وكثير التفاوت بين الذاتية والموضوعية، بل بين طبيعته ووظيفته. ولهذا لم يخضع، ولن يخضع للقوانين العلمية، لا في البنيوية ولا في غيرها مما يستجد من النظريات...

(١٤) د. حسام الخطيب: أبحاث نقدية ومقارنة -ص١١٥-١٢٠.
(١٥) د. حسام الخطيب: أبحاث نقدية ومقارنة - ص١١٥-١٢٠.
(١٦) د. حسام الخطيب: البنيوية والنقد -الموقف الأدبي: عدد خاص- ص١٨١-١٨٢.

ستصير ربًّا من جديد

شعر

صخر سعيد العبد الله ❖

نهضتْ أثينا من سرير النَّوم
وانتَشرتْ جديلتُها على أقدامها شالاً.. وأيْنَعَتْ الخدودْ
وتزيَّنتْ وتعطَّرتْ.. وتأمَّلتْ مرآتها:
لابدَّ منْ حَدَثٍ خُرافيٍّ لأبلغَ لذَّتي.. لابُدَّ منْ عَبَثٍ لأشعرَ بالوجودْ
الأرضُ في عَيْنَيْ أثينا لعبةٌ والحربُ دفءٌ دائمٌ
والحبُّ طقسٌ منْ جليدْ

(❖) صخر سعيد العبد الله: أديب وشاعر من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

بداتْ أثينا يومها .. نفخَتْ بصوتِ الموتِ في بُوقِ الوعيدْ

فتسابق الأشرارُ أصحابُ المعالي

كُلُّهم في قصر أثينا عبيدْ

مَسَحوا البلاط وأشعلوا أطماعَهم نارًا ليرتفعَ الشّعارْ

وأدخلوهُ مُكرَّرًا ليصبَّ في سمع الجنودْ.

قالوا لهم في الغربِ: أمجادٌ لنا وغنائمٌ إنْ نَنْتَصرْ

قالوا لهم في الشّرق: إنْ لم نَنْتَصرْ فلنا الخلود.

خطبٌ تميلُ لها الرؤوسُ.. وأين أين حقيقة الأشياء؟ لا أدري

فتلك الحربُ عكسُ الحربِ لاتُبقي على أحَدْ

وإن هبَّتْ سترمي كلَّ شيءٍ في جهنّم ثمَّ تحرقُ نفسها

لتريح أثينا فيبدو حُسنها في وجه مرآة السّماء مُلَوَّنًا

(فالوجهُ أبيضُ..

لونُ شعرها أصفرُ، الخدّانِ محمرّانِ). لكنّ السّواد يلفُّها

ففعالُها في الأرضِ سودْ

غمَزتْ أثينا للطغاة بعينها

رفعوا سياط كلامهم فوق الجنودِ وردّدوا: ياأيُّها الجنديُّ يا رمز الصّمود بأرضنا

هيَّا استرحْ ثم استعدْ.. واحمل سلاحكَ راية

وارفع شعارَك فوق رأسكَ وانطلقْ.. واقتُلْ عدوَّكَ بالنَّشيدْ

فاغترّ بعض الجند طار صوابُهم

حُبًا بإرضاءِ الطغاة تسابقوا

والآخرونَ تسارعوا نحوَ احتمال مماتهم هربًا من الموت الأكيدْ

إلاّ أنا... لا أُذنَ لي.. أبصرتُ نفسي واقفًا فصرختُ فيهم صرختي:

لن أستريحَ تعبتُ منكم كلُّكم

لنْ أستعدَّ لأيِّ موتٍ أو حياةِ قربَكم

ما أصعب الموتَ الذي لا أشتهيه أو الحياةَ

وليس لي أبدًا سلاحٌ

درعُ قلبي خرّبوهُ.. وسيفُ عقلي كسّروهُ.. وخيلُ روحي أوقفوها عُنوةً

لكنّ لي رأسًا عنيدْ.

رأسي تعالى في سماء الله ..

لن تَعْلو على رأسي الشعاراتُ التي تخلو من الأفعالِ.. تَسْقُطُ في الوحولِ

وأين أين حقيقة الأشياء..؟ هل قَتلَ النشيدُ عدوَّنا

أم كان قاتلُنا الوحيدْ.

أما العدوُّ.. فلم أجدْ أبدًا عدوّي

أينما قلّبتُ وَجْهي في الجهاتِ.. بَحَثْتُ عن حلمٍ يفرُّ مع المدى.. أين المدى؟.

وحدي أدافعُ عن زمان ليس لي

إذ كُلَّما رَتَّبتُ أحلامي ودارتْ دورةً صار القريب هو البعيدْ

وسألتُ أين القومُ.. كيف القومُ؟ قالتْ دمعتي:

قد ضُيِّعوا أو ضَيَّعوا.. عَرَبٌ أقاموا أمسَهمْ قصرًا ليسكنَ جهلَهمْ

عربٌ وضاعوا كلُّهمْ.. عربٌ وخلُّوا ليلَهمْ سجنًا يُكَبِّلُ عقلَهمْ

عربٌ وألقوا عقلَهمْ في البئرِ.. فانتصرَ اليهودْ.

ضَحِكَتْ أثينا.. تلك حيلَتُها لصيدِ حقيقتي

خَلَعَتْ أثينا ثوبَها.. عَرِيَتْ لتسترَ عُرْيَها.. لمْ أنْتَبِهْ

ما نفعُ فتنتِها بلا قلب.. أينفعُ حُضنُها؟!

قامَتْ وصارَ مرادُها قتلي فقالتْ قولَها:

إنّي إلهةُ عالمِ الأوذيسةِ الأبديّ.. قُلْ ماذا تريدْ؟

ماذا أريدُ..! حمامةٌ بيضاءَ تسكنُ شُرْفتي

هربَتْ من الرسامِ.. ليس ينالُها سيلُ الرصاصِ

أريدُ أرضًا لنْ تقسِّمَها الحروبُ

أريدُ نخلاً شامخًا لا ينحني كي أستظلَّ به

وأبكي بُعْدَ مَنْ ماتوا بلا سببٍ سوى طمعِ الطغاةِ

فكلّما شربوا دَمًا.. طلبوا المزيدْ

وأريدُ شكلَ طفولتي الأولى

لأحضنَ من أحبُّ.. يشقُّ روحي بُعْدُها.. أُمّي كما في السيرةِ الأولى

ووقتًا كي أعيدَ الرعشةَ الأولى كما كانتْ

ووقتًا آخرًا لأعيدَ ترتيبَ الحكايةِ كُلَّها

فتطيل روحي رقصَها ليلاً على أنغامِ عودْ

وأريدُ بَعْضًا مِنْ دمي المسكوبِ في تلك الحروبِ

وبعضَ عُمْري المُنْقضي.. وبراءتي وشقاوتي وهويَّتي حتَّى أعودْ.

لمْ يسمعوني كبَّلوني بالكلامِ.. وكبَّلوني بالظلامِ

وكبَّلوني بالحديدْ

فسألتُ أينَ أنا.. وأينَ حبيبتي؟ وبحثتُ عن نورٍ يُضيءُ ظَلامَهم

فرأيتُ أختَ الروحِ تَخْتَرِقُ الظلامَ

تعيدُ للدنيا حلاوتَها برُغْمِ مَرارِهِمْ

وتعيدُني حُرّاً لأعبثَ بالقيودْ
عَبَرَتْ سياجَ الحُزنِ في المَعْنَى وضَمّتني وقبّلت القصيدةَ في فمي
فنسيتُ مَنْ صبُّوا دمي في كُلّ ساحاتِ الغرام
بغدرهم قَتَلوا نجومَ الحُبّ في ليلِ المدينةِ
قُبلَةٌ مِنْها تُبَدّدُهم مِنَ الماضي
فتلكَ حبيبتي وسماءُ روحي في صَحَارَى البُعْدِ
أصبحَ قرْبَها بستانُ أيّامي الرَّغيدْ
تلكَ التي هَطَلَتْ مَحَبَّتُها عليَّ وظلّلتْني بالوعودْ
جَعَلَتْ بغُرفتِها حُضورَ قصيدتي ذُخراً لأيّام الغيابِ
وسجَّلتْ حرفينِ لاسمي واسمِها
في جِذْعِ «كينا» لمْ يَزَلْ أيقونةً في اللّيل تحرسُ نومَها
ثم انتقَتْ نجمينِ باسمي واسمِها رسمَتْهُما في الجِذْعِ.. كانا عاشقينِ
وأنزَلَتْ نَجْمًا جميلاً آخرًا

ليكونَ ثالوثًا يؤكّدُ في الهوى أسطورةَ الحُبِّ الفريدْ
قَبّلتُها مِنْ قَلْبِها فيه البداية والنهايةُ
قلتُ: ضمّيني..
ضُمّيني لنسرقَ حُبَّنا مِنْ حَرْبِهِمْ
إنَّ التّوحّدَ نصرُنا فلتبلُغيه مَعي إذا اكْتَمَلَ اللّقاءُ
فكُلّما اكتملَ اللّقاءُ تطلُّ آثينا علينا كَيْ تُفرّقَنا
وتُبْعِدَ قلبَنا عن قلبِنا وتقيمَ بينَهُما سُدودْ
لكنَّها نظرتْ إلى يَدِهَا وذابتْ في فَمي
ماذا سأفعلُ بَعْدَ حُبّكِ؟ كُلُّهم ضِدّي ونارُ البُعْدِ تُحْرِقُ والحُدود هي الحُدودْ

ماذا سأفعلُ؟ كُلَّما اكتملَ اللّقاءُ تعاظمَت أقوالُهم في داخلي
لتصيرَ نَشْوَتُنا إذا ابتدأ الغيابُ جنازةً تغتالُ عيدْ
ماذا سأفعلُ بَعْدَ حُبِّك؟ ليسَ يُشفيني كلامٌ
بَعْدَ حُبِّك ليسَ يُطفئُني بريدْ
فأجبتُها لابَعْدَ في حُبِّي فغوصي في دَمي وتأكَّدي مِنْ نَبْضِ قَلبِكِ
واعلَمي إنْ كانَ قلبُك مثل قلبي سوفَ نقهرُهُمْ
وسيلتُنا التَّوحُّدُ كُلَّما سَمَحَ الهوى
فإذا أردتِ معي الصُّمودْ.
ظَلّي كَمَا أهواكِ إمرأةً من اللاهُوتِ والناسُوتِ
يتَحدّانِ بامرأةٍ مِنَ الياقُوتِ
بالدُّنيا تَجودْ
نظرَتْ إليَّ بعينِها وبقلبِها وبروحِها - فتوحَّدَ الحُزْنانِ في حُزْنٍ سعيدْ.

غضبتْ أثينا عندَها
ملأَتْ بلادَ اللّه أحقادًا وأطماعًا لتقتُلَ حُبَّنا
وتجمَّعَ الأشرارُ وابتدأ الخرابُ
وأشعَلوا في الأرضِ نيرانًا لتحرقَ أخضرًا فينا بأسودِهمْ
فينقتلَ الجمالُ بأرجلِ الجُندِ التي داسَتْ على وَجْهِ الوُرودْ
فَبَكى إله الحُبِّ عَهْدًا قَدْ مَضَى
نادَيْتُه وأريْتُه قلبي فأمسَكَهُ وجَفَّفَ دَمْعَه
فكتبتُ فيه قصيدةً أسْمَيتُها:
إن كُنْتَ مثلي عاشقًا
ستصيرُ ربًّا مِنْ جَديدْ.

أنا لست وحيدة

شعر

صبحة بغورة ❖

تمر المدينة برْداً وغيثا
على مولدي
وأملأ عشقك بالدافئات
وأرسم وجها ضَحُوكًا،
على كل وَشْمٍ،
هنا، بين حزني وظنّي

(❖) صبحة بغورة: أديبة وشاعرة من الجزائر. لها عدة قصائد منشورة في مجلة المعرفة.

وانثر عِطرَكَ بَخّرَ الشّواردْ،

أنا، والتمنّي، وهذا الرّحيل،

إلى موعد الأنبياء

ونحن الثلاثةُ خَمْرٌ عتيقةْ،

ونحن الثلاثة أوْجُ الجُنُونِ،

نتيه فَنَانًا،

ونَصْحُو فنانًا،

ونُسْكَرُ من فتنة المَبْسَمِ،

فيا شمس هل يسترد الوُصُولُ إليك

بَقَايًا ابتسامي

وهل تَنْضوي الأرضُ طفلاً مُوشّى

بحلْم التوحد والإنبعاثِ،

أنا إن تولى اندهاشي،

توهَّجَ عشقي

لأضْحَى ولوعةً،

بِرِقَّةِ وجْهِكَ،

أنا قد يضيع التوهمُ مني،

ولن أسْتَطيعَ التَّجسد في رعشة الغُصْنِ.

لأرسي النهَارَ.

على راحتيك

كذلك قد خبّرتني المَسَالكْ،

وجاء ببوح الصّبَاحِ المسيرْ

فَهَـلا تحط المواسم عندي

زَمَان الخصُوبةِ والارتواءْ

وتجهر كل الشّواطئِ بِاسمكْ

وَيَعْمُرُ وَرْدي النَّقَاءَ.. النقاءْ

العصافير

قصة

عبدو محمد *

حطّت عصافير المساء فوق جفنيَّ المتعبين فأطبقتهما، عصافيرُ كثيرة جاءت ورفرفت بأجنحتها الزاهية. قبل أن تحطَّ بنعومة، ففرحت نفسي.

فرحتي لم تكتمل! فالغربان المعشّشة في مقلتيَّ أبت الرحيل، فبتُّ أتقلب على جمر الغضى وشوك الفضاء.

(*) عبدو محمد: أديب وقاص من سورية - عضو اتحاد الكتاب العرب - عضو جمعية القصة والرواية، له عدة مجموعات قصصية منشورة.

لاحـــقت النوم طويلاً منذ أن هجعت، والعصافير الزاهية فرّت وأنا أجري خلفه، أقف لاهثًا لأستردّ أنفاسي، فيكنُّ فوق صخرة ظاهرة متحديًا، وعرفت كيف يتخفف الغيم من أثقاله، فبكى قلبي وعيناي، فارتحت. وغفوت حين استيقظ الناس.

أيقظني صغيري قائلاً : لم أعد أراك يا أبي، وحضنك ما عدت أتذكر دفئه ورائحته. فرنّ جرس الهاتف.

قال لي صديقي من بعيد: صديقنا سعيد مات، فانهدت وتساقطت فوق فراش الشوك من جديد.

بالأمس تحدث إلي سعيد طويلاً، كان يتخفف من همومه - سعيد، مهموم! كيف؟ لست أدري. قال: «لم أعد أراك لأني ألاحق الرغيف الساخن والقرش الأبيض، ومن حـــولي لايرحم. الكل يطلب ريش النعام، ورجلاي ماعادتا قادرتين على الجري، وعملي كرب في كرب، وغمٌّ وسوءٌ أراه وأمـــقـــتـــه ولا أقـــدر عليـــه».

تنفست تنهيدة دامعة وقلت لأعماقي «غربان كثيرة حطّت على غصن ذابل فكسرته» وتذكرت أغصاناً كثيرة تقصّفت في ريعانها، أغصانًا واعدة كثيرة ذرتها الريح، وغطاها غبار النسيان، ورماد الحرائق المشتعلة في الأعماق التي لاتبين، فالوجوه تعلوها أقنعة باسمة.

قالت لي تلك التي أحببتها يومًا وما عرفت حبًا غيره «كيف أفرح قلبك وأريح نفسي؟» فتذكرت ورد الربيع ونسيم أمسيات الصيف وخبز أمي الساخن، فبكيت وألقيت برأسي على صدرها الحنون، فضمّته ومسحت همومه بيدها الناعمة وقالت: «أنا وأنت على الدهر ياحبيبي».

الدهر قاس ياحبيبتي، بل ناسه هم القساة، لاتصدقي شكواهم، هم يلومون الدهر ليبرّئوا أنفسهم.

جاء عصفور صغير ناحل وحط على

النافذة قبالتي تمامًا. عيناه كانتا ذابلتين، وقلبه كان حزينًا. عصفور صغير ناحل من أين جاء؟ لست أدري! والمدينة لاعصافير فيها. ولا ورد ولا سماء زرقاء. تساءلت كثيرًا، ونظرت كثيرًا، والعصفور ظل ساكنًا دامع العينين. فقدمت له لقيمات من طعام،وقطرات من ماء. هكذا يفعل الناس حين يأتيهم ضيف، أي ضيف، ماكان آبائي يسألون الضيف قبل ثلاث، تذكرت هذا، وتذكرت أن أيامنا هذه لاضيوف فيها، ومنذئذ صار العصفور نديمي.

هلت ريمتي تنط فرحًا. وألقت بنفسها عليّ معانقة قائلة: «نلت الأولى في صفي يا أبي، فمد يدك بالمكافأة. سأشتري وردة لمعلمتي». فانشرح صدري وأودعت كفها الصغيرة كل مافي جيبي فرحًا. وحين خرجت فرحة راقصة. رقص قلبي معها. وعرفت أن الحياة لاتخلو من الأفراح.

أكل العصفور وشرب ثم طار، قلت لنفسي: ياله من قنوع، يكتفي بما يسد جوعه. لايعرف الخزن والكنز. وتذكرت سعيد الذي لا أعرفه والذي مات خازنًا كانزًا، وسعيد الذي أعرفه والذي مات جائعًا، وصديقي سعيد الذي مات مهمومًا، ورأيت العصفور حكيمًا، وغبطته كثيرًا. وقلدته وما عدت أجري خلف شيء، فسعدت أيامًا وسخرت من اللاهثين، وحين جاء العيد وانكسرت نظرات صغاري. عرفت أن عالم العصافير عالم آخر.

بالأمس عدت منهكًا، تمددت قبالة النافذة أرتاح، فجأة عصفوري الصغير، نديمي الذي ما عاد ناحلاً، حط على النافذة ونفض ريشه كمن يتخفف من أعبائه، ونظر إلي باسمًا.

نسيت تعبي وقدمت له حبًا وماء، فأكل وشرب، ومن حيث لا أدري هبط من السماء قط ذو مخالب وأنياب. انقض عليه ومضى، عبثًا بحثت عنه، انشقت الأرض وغيبتهما، فغاب فرحي وانكسرت نفسي وترحمت على صديقي سعيد، وسعيد الذي عرفته، وسعيد الذي ماعرفته، وعلى نفسي المنهكة.

سباق الظلال

قصة

ابتسام كوكش ❖

خرج من البيت، منكمشًا على نفسه، متحاشيًا النظر إلى ظلّه، مسرعًا يبغي اللحاق بعمله، خائفًا من لقاء أيِّ صديق قد يضطرُّ لمصافحته، يداه ما تزالان رطبتين، تحتفظان بآثار الصابون والمنظفات، بعد جولة مملة في أعمال المطبخ، شعور بالمهانة كبير، يعتمل في صدره، لو رآته أمُّه الآن لجحظت

(❖) ابتسام شاكوش: أديبة وقاصة من سورية - عضو اتحاد الكتّاب العرب، عضو جمعية القصة والرواية. آخر أعمالها (الحلم الأزرق).

عـيناه من الدهشـة، ولنقـبت في وجـهـه وذراعيه باحثةً عن كل ما غرسته فيه من ميراث جدّه شهريار، ستسأله نظراتُها، وربما كلماتُها: أأنت رجل؟ أحقًا أنت رجل؟؟

✧ ✧ ✧

خرجت من بيتها إلى العمل، تراقص ظلَّها القصير، تحت شمس الضحى العالية، تركض أمامه برهةً. ويركض أمامها أخرى، سعيدةً نشوى بالانتصار الذي حققته، موظفة، لا فرقَ بينها . وبين الرجال، نحن في عصـر المساواة، تمنت لو تلتقي في طريقها بكل من تعرفُهم من البشر، لتزهوَ أمامهم بثيابها الأنيقة، وأظافرها الطويلة المطلية بعناية وفّرها لها انعتاقُها من معظم أعمال البيت، الذي يشاركُها إياه زوجٌ لطيف متحرر، واستعمالها لأحدث أنواع مستحضرات التجميل، اشترتها من مرتبها، لامنّة من أحد.

✧ ✧ ✧

جلس إلى مكتبه، أمامه مصنفات وأضابير تحتاج للكثير من العمل، والدقة، راح يُذكي قدرته على التركيز بشرب القهوة وتدخين السجائر، يجب الانتهاء منها كلها اليوم، مديرُه صارم لا يهادن.

✧ ✧ ✧

ألقت تحية الصباح على كل زميل وزميلة قبل جلوسها إلى مكتبها، بقليل من الدلع رضي أحدهم بإنجاز بعض ما كلفت به، بكلام آخر، أعادت لزميل عجوز إحساسه بالشباب، فأنجز عنها الباقي، بينما تفرغت للحديث مع زميلاتها عن الأبراج والموضة، ثم قلبن فناجين القهوة، ليقرأن المستقبل بين خطوط البنّ المرتسمة على جدرانها.

✧ ✧ ✧

خرج من عمله مرهقًا مهدود القوى، لكنه الرجل، حمل صداعه ونزل إلى السوق، اشترى الخبز والخضار واللحوم ومواد التنظيف، و.... كل شيء.

✧ ✧ ✧

خرجت من عملها قبل موعد الخروج، ترافق زميلتها في جولة على السوق، لشراء ثياب تصلح للصيف، مع

مايلزم من احذية وحقائب ومواد تجميل، مديرها متسامح معها، رؤوف بصباها النضر، معجب بأناقتها المفرطة، وانفتاحها على الحياة.

* * *

وصل البيت، لا بد قبل استراحة القيلولة من إصلاح صنبور الماء، واستبدال المصباح المعطل.

وصلت البيت متعبة بعد مشوار السوق، أخذت قسطًا من الراحة، ثم قامت بتحضير وجبة خفيفة للغداء، تفرغت بعد ذلك لإعداد ما يلزم، ما يليق بسهرة اليوم، عند موظفة محترمة استطاعت إثبات وجودها، واتخذت لنفسها دورًا اجتماعيًا يسمو بها في عيون المحيطين بها عن مستوى ربات البيوت.

* * *

في السهرة، كان الحديث كله لها، أو يدور حولها، بينما بقي زوجها في الظل، يغالب التعب والنعاس، متحاشيًا نظرة متسائلة: هل أصبح دورك في الحياة زوجًا للست؟ بينما راحت تتباهى بحب زوجها لها، ومساعدته لها في أعمال البيت، بالإضافة إلى ثقته التي أتاحت لها حرية الدخول والخروج، بدل الاحتباس بين جدران البيت.

* * *

ترك سهرتهم وخرج إلى الشرفة، استلّ طيف شهريار من داخله، طرحه أرضًا، أغار عليه يدوسه بقوة حتى كلّت قدماه، اكتشف أنه يصارع ظلّه، وارتفعت قهقة شهريار الساخرة حتى أصمّت أذنيه: أيها الأحمق، ما عادت شهرزاد مضطرة لاسترضائك، أو لإشغالك بالحكايات لتنجو من جبروتك، انقلب الميزان، هيا، عد إلى مجلس زوجتك لئلا تتهم بمروءتك وشرفك أو تنعت بالرجعية والتخلف، وقف، تخنقه المرارة، جمع ظلّ شهريار الممتد في ساحة فكره على اتساع أفقها، طواه، طواه، كوّره حتى صار بحجم حبة الأسبرين، ابتلعه من غير ماء، لكن شهريار صلب، يستعصي على الهضم.

* * *

بعدما انفضّت السهرة سألها بصوت

كسير: هل تحفظين شيئًا من حكايات الف ليلة وليلة؟ أجابته بنظرة استخفاف ولم تعقب، لحق بها إلى مرآتها، رجاها أن تقصّ عليه شيئًا من حكايات شهرزاد، أجابته بحدّة: ما هذه السخافة؟ أما زلت تحنّ إلى حكايات أمك وجدتك؟ نحن في عصر العولمة يا رجل.

* * *

توالت أيامه معها، يعيش بلا ظلّ، يدخل، يخرج، يروح، يجيء، لا يشعر بوجوده أحد. وظلت هي، تكبر، ويكبر ظلّها كل يوم يمشي معها كالسحابة الممطرة، وتصلّب ظلّه في جوفه، تشبث بأحشائه، ظلّ يتحرك بين برهة وأخرى معلنًا عن وجوده، مثلما تتحرك الحصاة، في الكلية المعطوبة حتى........

* * *

ظهرت عليها أولى علامات الحمل، تعب، شحوب، نوبات مفاجئة من القيء أثارت قرف الجميع، أحجم زميلها المعجب عن مساعداتها، أعاد لها العجوز ما تكفل بإنجازه متعللاً بوجع المفاصل، غاض فجأة ثناء المدير، انفض من حولها طوق المعجبين والمتملقين، لم يبق سوى زوجها، ازداد إعجابه بما فعل، صار يمشي قربها رافع الرأس شامخًا، يسند خطواتها متمنيًا لو يصرخ بأعلى صوته: انظروا... هذا أثري، ألست رجلاً؟؟

بعد إجازة الأمومة، دخلت المؤسسة مزهوة بوضعها الجديد، صارت أمًا، تمتد الجنة تحت قدميها أينما نقّلت قدميها، ولكن، ما كادت الساعة الأولى تنقضي حتى داهمها النعاس وليدها، ظلّ يبكي طوال الليل، وهي ترعاه وحدها، وزوجها نائم في الغرفة الأخرى، غفا عند الفجر، غفت هنيهة ثم أفاقت ملهوفة، أخذته إلى أمها وجاءت إلى مؤسستها متأخرة.

* * *

زوجها لا يكتفي، ولا هي، من الذرية بولد وحيد، لا بد من إنجاب نصف دستة، تحمل اسم الأسرة، وترفع الرأس أمام الأهل والجيران، لم التلكؤ ما دام الأمر بهذه السهولة؟

* * *

المرأة تركض، تركض، بين غرفة الأولاد والمطبخ والمؤسسة، تنام منذ الغروب خائرة القوى، ما عاد لديها وقت ولا مال تنفقه على العناية بمظهرها، الزوج يتناول غداءه خارج البيت، في الوقت المستقطع بين عمل الوظيفة وعمله الآخر، سائقًا على سيارة تاكسي، ويلتحق في المساء بحلقة مجانية من حلقات لعب الورق، يصرخ للحظة، يفرغ غضبه وغيظه ببضع كلمات، هي المصطلحات اللازمة للعب، وينتهي كل شيء، يعود إلى بيته ليبدأ في الصباح يومًا جديدًا.

❖ ❖ ❖

- الا تلاحظين أنّا نعيش كالغريبين؟ أنت مقصرة معي في كل واجباتك.

- ....

- أحتاجك أنثى لحياتي.

- سامر يحتاج حذاء، ماهر يريد بنطالاً.. ديمة مقصرة في درسها، وليد يحتاج علبة حليب.

- مار أيك بنزهة خلوية؟

- سأصطحب الصغار غدًا إلى المركز الصحيّ، لأعطيهم لقاحًا ضد الحصبة والسلّ وشلل الأطفال.

❖ ❖ ❖

السماء ملبدة بالغيوم، الزوجة في إجازة إدارية، تركض بين المدرسة والصيدلية وسوق الخضار، وتعود إلى سنارتها، لتنسج للأولاد كنزات يستقبلون بها فصل البرد.

تركض ولا ظلّ لها.

❖ ❖ ❖

السماء ملبدة بالغيوم، الزوج يتأبط ذراع عشيقته الجديدة، في جولة بين دروب الحديقة العامة، حيث لا يدفع رسمًا للدخول، ولاثمن ما يجبر على شربه في المقاهي، يتغزل بها، يبثها لواعج فؤاده المضنى من ثقل المسؤليات ولوعة الفقر.

❖ ❖ ❖

صبي صغير وقح، يقطع على العاشقين خلوتهما، يعرض أزهاره بإلحاح، باستجداء، يتأمل ثيابه المهلهلة وهيئته المزرية.

- خذ وردة لهذه الجميلة.

- لا نريد.

- لا يليق بالحسناء التنزه بلا وردة.

- انصرف قبل أن أضربك .... هيا.

يلتفت إليها ليكمل ما بدأه من الغزل، الغضب يبدو جليًا على محياها، ينادي على الصبي، ينقده ورقة تكفي لشراء علبة حليب للرضيع، يناولها الوردة، تبتسم راضية، يقطع نزهته ويتركها تقارع الحيرة، شعوره بالذنب تجاه وليده يكاد يحطمه، يصك سمعه صراخ الأولاد وصخبهم قبل أن يلمس الباب، يبتعد عائدًا إلى أمه، ليبكي بين يديها، ويستسلم لها، تضمه بحنان إلى صدرها، هي المخلوق الوحيد الذي يشحنه بالقوة، ويعيد له أمجاد جده شهريار ولا تسأله عن ظلّه.

138

الحياة العادية للمرأة في بلاد مابين النهرين

ترجمة وإعداد : راغدة الخوري *

ماذا يمكننا أن نقول عن حياة المرأة في الأزمنة الغابرة. لقد سمحت لنا وثائق قديمة ورسائل وعقود ونصوص قوانين يعود تاريخها إلى أربعة آلاف سنة وجدت في بلاد ما بين النهرين بالتعرف على حياة المرأة اليومية. لقد اتضحت لنا اليوم ظروف الحياة اليومية للمرأة العادية التي كان يعتقد بأنها ساكنة ومستبعدة عن كل نشاط اجتماعي واقتصادي.

ظهرت منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد في بلاد مابين النهرين أولى الوثائق المكتوبة التي تشهد على ثقافة غنية دامت حتى بداية عصرنا هذا.

وعن طريق الأساطير وعبر سجلات القصور وصلت إلينا قصص الحب وإنجازات الآلهات وبذخ الملكات.

(*) راغدة الخوري: باحثة من سورية، تهتم بالدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية، تنشر في الصحافة العربية والمحلية.

ورغم ان المرأة العادية بقيت طويلاً في الظل إلا انه من الممكن أن نجد لها أثرًا في الرسائل الشخصية وعقود الزواج التي وجدت أثناء التنقيبات الأثرية في دور السكن العادية. فلقد اكتشف في الأناضول الوسطى في متجر في كانيش kanish وفي السجلات العائلية للتجار الآشوريين (القرن التاسع عشر- القرن الثامن عشر قبل الميلاد) الذين كانوا يأتون لبيع القصدير والقماش واستقروا في العديد من مدن كبادوكيا cappadoce بينما بقيت زوجاتهن في آشور على ضفاف دجلة بعيدات عنهم بآلاف الأميال وكن يكتبن لأزواجهن رسائل غنية بتفاصيل حياتهن اليومية. وأظهرت التنقيبات في أحياء عدة مدن في جنوب ما بين النهرين كمدينتي نيبور أو سيبار Nippur -sippar عقود زواج تعود إلى العصر نفسه.

كما تم اكتشاف عقود أخرى في مدينة إيمار Emar في سورية على نهر الفرات تعود إلى النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد وكذلك في كل من مدينتي نوزي وأورفة Arrapha Nuzi شرقي دجلة في شمال العراق حاليًا.

أما المصدر الثاني للمعلومات والنادرجدًا فهو نصوص القوانين المهتمة بوضع المرأة وأشهرها شريعة حمورابي ملك بابل وتحتوي على 282 مادة قانونية منقوشة على نصب تذكاري من صخر بركاني متبلور معروض في متحف اللوفر في باريس. أما القوانين الآشورية فلقد جمعت في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، وعلى رُقُم وجدت في آشور.

إن هذه المصادر المختلفة تعطينا صورة عن حياة مركزة على العائلة: ولا يظهر وجود قانوني وشرعي للمرأة إلا من خلالها.

والدليل الأول لهذا الواقع هو في أهمية الزواج ويجعلنا نتكهن بذلك من حكم بالطلاق وجد في مدينة سيبار: « لقد سألنا أمام نيرشي وبوجود الشهود هل هذه المرأة زوجتك فأجاب:

«يمكنكم أن تضعوني على الخازوق وتقطعوني إربًا ولكنني لن أبقى زوجًا لهذه المرأة. » هذا ما قاله. وسألنا زوجته فأعلنت: «أحب زوجي»هذا ما أجابت به».

ويشكل وضع المرأة المعسيار: فالمرأةالبالغة يجب أن تكون امرأة متزوجة حتمًا. فقط بعض الكاهنات كان يسمح لهن بالعزوبية لأنهن متزوجات من إله.

أما اختيار الزوج فلم يكن من عمل الفتاة الشابة بل كان يقوم بذلك الأبوان

أو الأخ الأكبر في حال غياب الوالد ويتم الاتفاق مع زوج المستقبل أو مع والديه أما إنجاز الزواج فلم يكن بحاجة إلى عقد مكتوب وغالبًا ما كان يُكتفى بالالتزام الشفوي، الذي يتم من جرائه انتقال الثروات بين العائلتين. ثروة الفتاة التي تدفع مهرًا والذي نظريًا ليس بملك لأحد الزوجين ينتقل فيما بعد إلى الأولاد ويمثل حصة إرث الفتاة ويشمل أدوات المطبخ والملابس والحلي يضاف إليها في حال كون الأسرة ميسورة وغنية بعض المواشي والخادمات.

ففي القرن الثامن عشر قبل الميلاد تكوّن مهر إحدى الشابات الغنيات من مدينة سيبار من : « أمة وأقراط ذهبية تزن 16 غرامًا وقدر سعتها 20 ليترًا و5 قطع قماش و12 ثوبًا و11 عمامة وصندوقين وبقرة و15 خروفًا ورحى لطحن الطحين ورحى من البازلت وسرير من خشب شجر التفاح و6 كراسي و4 قصعات خشبية هذا كل ما أعطاه «نابيوم أبلاتام» إلى ابنته «أمات أشالوهي».

وكان من السائد غياب البيوت والحقول والبساتين من مكونات المهر: فالأملاك والثروات العقارية يحتفظ بها للأولاد الذكور فقط.

الخمار، رمز الدخول في عائلة الزوج

ويقدم الرجل من جهته لعائلة عروسه بالمقابل هبة أقل من المهر الذي قدمته العروس ولا تصل قيمته لمبلغ يكفي لشراء أمَة أي لا يعني ذلك بأي حال من الأحوال شراء الزوجة.

أما إذا لم يتم تبادل الهدايا فالعريس يعدّ نفسه في حل من الوعد الذي قطعه ويعدّ العقد فاسخًا وهذا ما يشهد عليه هذا الحوار القديم والذي يعود إلى 4 آلاف سنة بين آشوريين:

«لقد أعطيت كلمتي لوالدك ولكن طالما لم تتقدم عائلتك حزامًا يربط وسطي. فالأيام تمضي وأنا أشيخ ولقد اتخذت لي زوجة فتاة أخرى من أشور وعليه فلن أتزوج أختك».

ولكن ما أن يعطي الرجل هبته حتى يصبح التزام الفتاة بالعقد نهائيًا وتنتقل إلى بيت زوجها وتتلقى خمارًا ولقد ورد ذكر هذا التقليد في سجلات تجار آشور في القرن التاسع عشر والقرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وتؤكد القوانين الآشورية أنه في نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد كانت النساء المتزوجات وحتى الفتيات الشابات من عائلات عريقة يرتدين الخمار إشارة

إلى الاحترام وكانت القوانين تنص على عقوبات قاسية على كل من تستخدم الخمار بسوء معرفة وهكذا فالعاهرة التي تغطي رأسها تعاقب عقابًا شديدًا» من رأى عاهرة تغطي رأسها فليتقدم مع شهوده وليصحبها أمام باب القصر ولن تؤخذ حليها ولكن من أوقفها يأخذ ثيابها وتضرب خمسين ضربة بالعصا، ويصب على رأسها القطران. ويسري الشيء ذاته على الإماء اللواتي يحاولن أن ينتحلن صفة المرأة الحرّة بارتدائهن الخمار»الإماء لا يحق لهن الخمار ومن يرى أمَة ترتدي الخمار فليوقفها ويقودها إلى مدخل القصر حيث تقطع أذناها ويأخذ من أوقفها ثيابها».

وكان السائد في الشرق أن يكتفي الزوج بزوجة واحدة ولكن في بعض الحالات يسمح للرجل باتخاذ زوجة ثانية: إذا لم يكن لديه أولاد من الزوجة الأولى أو إذا كانت زوجته مريضة أو إذا كانت مهنته التجارة ويضطر للغياب مدة طويلة عن بيت الزوجية، وكانت تكتب عقود تنظم العلاقة بين الزوجتين وتحدد وضع الأولاد.

فعندما لا يكون لدى الزوجين أولاد فاختيار زوجة ثانية (حرّة أو مستعبدة) تقوم به الزوجة الأولى المعدودة مسؤولة عن عدم إنجاب الأولاد. وكانت تعدّ أطفال الزوجة الثانية بمثابة أطفالها. وكانت القوانين تنص على حمايتها وتكريمها فوحدها كانت تحمل اسم الزوجة الشرعية (أساتوم Assatum) أما الزوجة الثانية فكانت تعدّ بمثابة خادمة لها (أمتوم Amtum).

وتشهد السجلات التجارية في كانيش بأن السائد كان الاحتفاظ بزوجة واحدة وكان هناك فرق واضح بين الزوجة في آشور (أساتوم) والزوجة الثانية (أمتوم) التي تبقى في كانيش أو في مكان آخر للتجارة في أسيا الصغرى.

وكان الرجل المتزوج من امرأتين لا يعيش عمليًا إلا مع امرأة واحدة فقط وكانت المرأة الآشوريةتعدُ بمثابة الزوجة الرئيسية ولا يحق لزوجها أن يتخذ زوجة ثانية من مرتبتها الاجتماعية نفسها وذلك تحت طائلة العقوبة والغرامة. ويرث أولاد الزوجة الرئيسية (الأولى) أموال وممتلكات أبيهم بعد وفاته.

وتمنع القوانين في بابل وآشور تعدد الزوجات وتنص شريعة حمورابي على أن الرجل الذي لديه أولاد من زوجته الثانية لا يحق له أن يتخذ زوجة ثالثة. وعند الاقتران بزوجة ثانية كان يشترط عليها في العقد أن تتبع زوجها في تنقلاته في الأناضول ولا يسمح للزوج باتخاذ زوجة أخرى في أي مكان من أسيا الصغرى» أما فيما يخص آشور- مالك فلا يتزوج

بامـرأة أخـرى في كل من النواحي التاليـة بروشـاتوم واشـوشـانا ودو هميت أو كـانيش ويصحب زوجته أينمـا ذهب». وبالمختصر فإن التـاجر لا يمكن أن تكون له زوجـة في كل سوق تجاري يذهب إليه.

تعيين نساء بمنزلة (الأب والأم) لأولادهن:

في حـال وفـاة أحـد الزوجين يرث الأولاد ممتلكاته: فـإن كـان المتـوفى الأم يتقاسم الأولاد مهرها أما إذا كان الزوج هو المتوفى فيحصل الأولاد على إرثه ويكلفون برعاية أمهم والإنفـاق عليها. أما في حال عدم وجود أولاد فيعيد الزوج الأرمل المهر إلى أهل زوجته أما المرأة الأرملة فيمكنها أن تعـود إلى بيت أهلهـا مع مـهـرها وأن تتزوج من جديد أو أن تبقى في بيت زوجها يحـميهـا القـانون وتتمتع بقدر كبيـر من الأمان. وتؤمن معيشتها من مؤخر المهر الذي تركه لها زوجها أو من حصتها من الإرث أو بفضل رعاية أولادها لها.

في بعض الوصـايا المكتـشـفـة في إيمار Emar ينصب الرجل زوجته أمًا وأبًا على أولادهما موكلاً إيّاها بعد وفاته كامل السلطة الأبوية. وتنظر القـوانين الآشـورية في وضع المرأة التي تبقى وحيـدة بسـبب الحرب: فإن أسر الأعداء زوجها فعليها أن تنتظره مـدة عـامين أمـا بعـد هذه المدّة «فيمكنهـا العيش مع الزوج الذي تختاره» وفي حـال عـودة الزوج الأول فـيـمكنه أن يسـترد زوجته لكن لا يمكنه أخذ أولادها من زوجها الثاني وتنص شريعة حمورابي على قوانين مشابهة.

وتنص مـواد عـدة في شـريعـة حـمـورابي على الطلاق ويمكن للزوج أن يتقدم بأسباب عدة لطلب الطلاق: العقم (ويجب عليه أن يدفع لزوجته تعويضًا) - سلوك الزوجة السيّئ (يطلق زوجته دون أن يدفع لها أي تعويض)فمثلاً جمع أحد سكان نيـبـور شكاويه على زوجـتـه واصطحبها إلى مجلس المدينة: «تزوج أرا - مالك من عشتار أومي فسرقت مخزن غلاله أولاً ثم أحدثت ثقبًا في جرار الزيت وغطتها بقطعة قماش لتخفي جرمها وأخيـرًا فاجأها فوق رجل آخر... فقرر المجلس بأن يترك الزوج زوجـتـه دون أن يدفع لها تعويضًا وحكم على الزوجة بعقوبة شائنة «فحولت إلى عـاهرة وحلق شعـر العانة وثقـب أنفهـا بمسـمـار وطلب الملك أن تقـاد فـي طرقـات المدينـة لتكون عبـرة للجميع».

عقوبات رادعة لمنع الطلاق:

يمكن للمرأة طلب الطلاق في حال

سلوك الزوج سلوكًا شائنًا ففي هذه الحالة يسمح لها بالعودة إلى بيت أبيها مع مهرها.

ومن الناحية العملية فإن نظام الطلاق يختلف حسب المناطق والعصور ففي إحدى الوثائق المكتشفة (وتعود إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد) يحق للمرأة طلب الطلاق واتباع الإجراءات اللازمة لذلك مثلها مثل الرجل ويتحتم على كليهما دفع غرامات متساوية في حال افتراقهما. أما عقد الزواج البابلي فينص على عقوبات رادعة وقاسية تصل إلى قتل المرأة إذا كانت البادئة في إجراءات الطلاق ويفرض غرامة كبيرة على الرجل وبالطبع لم تكن تطبق هذه العقوبات إلا إذا كان طلب الطلاق دون سبب مقبول.

كان لمكانة الأم في بيوت ما بين النهرين الاحترام والتبجيل وكان الهدف الأول من الزواج إنجاب الأولاد وكانت مهمة الأم تربية أولادها. وتوجد كثير من النقوش التي تعود إلى الألفية الثانية وبداية الألفية الأولى قبل الميلاد تمثل أمًا ترضع طفلها أو حاملةً إيّاه.

وعندما يكبر الذكور يبقون إلى جانب أبيهم ليتعلموا صنعته أما الفتيات فيبقين مدة أطول قرب والدتهن إلى أن يقرر الأب زواجهن أو نذرهن لأحد الآلهة.

أما في إيمار وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد فكان للأب والأم سلطة مشتركة على الأولاد فيمكن للأم وحدها أن تقرر زواج ابنتها كما ورد أن أمًا حرمت ابنها بالتبني من الميراث دون تدخل الزوج بذلك.

وتساهم كل النساء وضمن الإطار العائلي في الإنتاج. فلقد تم اكتشاف أثقال عديدة تستخدمها النساء لسحب ومد لحمة أنوال النسيج. وكانت الزوجات الآشوريات تساعدهن بناتهن ينسجن الملابس ليس فقط لاستعمالهن الشخصي وإنما أيضًا للتصدير إلى كابادوكيا لقاء الحصول على معادن ثمينة مقابل ذلك. وهكذا ساهمت المرأة بشكل ملحوظ في التجارة الدولية.

ولا تصل المرأة إلى مكانة رب العائلة إلا في حال غياب الزوج سواءً كان ذلك مؤقتًا أو بشكل دائم. فخلال استقرار التجار الآشوريين في آسيا الصغرى بقصد التجارة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد تركوا وراءهم في آشور زوجات وأطفالاً صغارًا مددًا زمنية غير محددة وكانت النساء تدير المنزل مع الحفاظ على اتصال مع الزوج عن طريق المراسلة: كانت النساء تعتني بالمنزل وتجدده وترمم الأعطال

وتدير مخزون المؤونة كاحتياطي الشعير للشتاء.

وعندما كان ينقصها المال كانت تثقل على زوجها بالطلبات «لقد كتبت إليّ: «احتفظي بالأساور والخواتم ولتكن لحين حاجتك للطعام»... ماهذه الأساور التي تركتها لي؟ عندما سافرت لم تترك لي مالاً... لقد جردت البيت من كل شيء وجعلته خاوياً».

وكانت النساء يكتبن رسائل مؤثرة لأقاربهن طلباً للمساعدة» ماذا سأعطي الأولاد؟ ماذا سأعطي أمنا؟ ماذا أقول عن طعامي؟ لقد أظلمت الدنيا في عينيّ وأنا أحاول أن أحصل على طعام لي وللأولادي».

لقد سمحت لنا هذه الوثائق برسم صورة حقيقية عن المرأة: تبرم الاتفاقات أو تتباحث مع التجار وكانت المرأة تمتلك ثروتها الخاصة كما كان يمكنها أن تمتنع عن تسديد ديون زوجها ولم تتردد بعض النساء بتشغيل رأس مالهن ضمن إطار تقديم قروض محدودة الأمد لزملاء أزواجهن.

كان انتقال الأموال والعقارات يتم من الأب إلى الابن وكانت هناك مشكلة لدى وجود فتيات فقط في العائلة ففي هذه الحالة كان يمكن للأب أن يتبنى أحد أصهاره ليكون بمثابة ابن له. وكان هناك حل آخر للمشكلة في أورفة ونصيبين وتراستيفرين: ففي وصايا تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد يظهر أن الرجل يمكنه أن يعتبر بناته كأبناء وهكذا يتمتعن بالحق التقليدي المخصص للأبناء الذكور فقط فيرثن بذلك كل الأموال والعقارات ويتسلمن مهمة إقامة شعائر الأجداد الأقدمين والآلهة المنزلية لأن البيت الأبوي هو الإطار لكل ذلك. ويمكنهن استحضار الأرواح وتقديم القرابين لها لتجد حياة هادئة.

وهكذا نجد أن المرأة كانت تتمتع بامتيازات مهمة مادام الرجل بعيداً عن داره وأن البنات يرثن الأموال والعقارات في العائلات التي تفتقد إلى الأولاد الذكور كما كان يسمح للأرملة أن تختار زوجها الجديد.

يمكننا إذن أن نقول إن المرأة العادية كان لها دور وتأثير كبير ضمن العائلة.

❖ ❖ ❖

البنية الاجتماعية والثقافية في رواية أفراح ليلة القدر

د. أحمد زياد محبك ✣

تقدم رواية «أفراح ليلة القدر» لمؤلفها عبد الكريم ناصيف مثالاً مبدعاً لاستدعاء التراث الشعبي من أشعار محفوظة وحكايات وأساطير متداولة وأمثال متناقلة وصيغ وتعابير جاهزة تمّ توظيفها داخل بنية روائية معاصرة تعالج قضايا المجتمع وضمن رؤية فنية واعية للتغيرات الاقتصادية التي طرات على سورية خلال مايزيد على الخمسة عشر عاماً من نحو عام ١٩٧٧ إلى نحو عام ١٩٩٣ أو بعده بقليل وما استتبع ذلك من تغيرات اجتماعية أثرت في القيم والمفاهيم في إطار ما كان يحيط بسورية من أوضاع عربية وعالمية كان لها أيضاً تأثيرها الواضح في بنية المجتمع وطبيعة العلاقات فيه.

(✣) د. أحمد زياد محبك، باحث من سورية، دكتوراه في الأدب العربي، استاذ في كلية الآداب بجامعة حلب، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية النقد الأدبي.

وتتمثل تلك التغييرات في صدور قرار بتحويل أراض زراعية تحيط بدمشق إلى عقارات سكنية استغلها بعض التجار وجنوا من ورائها أرباحًا طائلة كذلك صدور قانون الاستثمار الذي استغله أيضًا بعض التجار فاقاموا منشآت سياحية جنوا من ورائها مئات الملايين وتحولت إلى بؤر للفساد، مما أدى إلى اتساع الهوة بين قلة قليلة تملك كل شيء، وكثرة كاثرة لاتكاد تملك شيئًا، وغياب الطبقة المتوسطة، وما رافق ذلك كله من ضعف الثقة بالعلم والثقافة والتعويل المبالغ فيه على المال، مما أدى إلى انحدار القيم والمفاهيم وانتشار الرشوة والفساد على المستويات كافة.

وتتمثل تلك الرؤية في عمل روائي طويل يقع في ٣٣٤ صفحة من القطع الكبير ويضم نحوًا من مليون كلمة أنجزت كتابته على نحو مايشير المؤلف عام ١٩٩٨ وصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام ١٩٩٩ ويضم أكثر من خمس وعشرين شخصية وهو يروي سيرة أخوين أحدهما فلاح أمي هو سيف الدين النايفة وقد باع أرضه الزراعية إلى سمسار وسرعان ما أصبح شريكه وانخرطا معًا في أعمال تجارية بالتعاون مع بعض المسؤولين وأصحاب النفوذ وإذا هم خمسة شركاء يبتنون نادي الذروة ليكون بؤرة لأعمالهم التجارية ونشر الرذيلة والبغاء والفساد وجني المليارات وإيداعها في مصارف الغرب والتحكم في مصير البلد، وينساق ذلك الفلاح الأمي وراء شهواته ووراء المغريات الكثيرة فيتزوج أربع حسناوات ويطلق زوجته ويزور معظم دول أوربة، ويشتري لقب دكتور في الاقتصاد، وينخرط معه في الحمأة ولداه دياب وفهد وابنته شاهة.

والأخ الثاني مصباح النايفة دكتور في الكيمياء وأستاذ جامعي لايتردد في مد يد العون لأخيه ومساعدته بماله وخبرته، بل إنه يتنازل له عن حصته في الأرض الزراعية التي ورثها عن أبيه، وهي الأرض نفسها التي باعها أخوه واغتنى بها، بل أخذ يتنكر له ويتعالى عليه، ويأبى مصباح أن يطالب أخاه بشيء كما يأبى أن يتخلى عنه، ويأخذ نجمه في الأفول مثله مثل سائر المثقفين إذ ما عاد راتبه يكفيه، ولكنه يظل محافظًا على أخلاقه وقيمه حريصًا على تعليم أولاده مأمون وأمين ونور على الرغم من انحدار مكانة المتعلمين، كما يظل حريصًا على تحمل المسؤولية تجاه أخيه سيف الدين وأسرته ولاسيما ابنة أخيه أميرة.

وتبدو أميرة ابنة سيف الدين ممثلة للمستقبل ورمزًا للخلاص، إذ تظل بمنجاة من كل أشكال الانحدار، على الرغم من الظروف السيئة المحيطة بها، كما تظل متمسكة بالعلم والقيم والأخلاق، ويرجع

الفضل في ذلك كله إلى حصافة رأيها ورجاحة تفكيرها، كما يرجع أيضًا إلى تشجيع عمها مصباح لها ووقوفه إلى جانبها في كل موقف صعب كانت تتعرض له، إذ ترفض الزواج المبكر الذي كان أبوها يريده لها وتحرص على متابعة تعليمها ثم تنتسب إلى الجامعة على الرغم من معارضة أبيها، وتتخرج بتفوق في قسم الصيدلة، وتُعيَّن معيدة وتوفد إلى فرنسة للحصول على شهادة الدكتوراه في علم الأدوية، وكانت دائمًا تلجأ إلى عمها تستشيره وتأخذ برأيه وتطمئن إلى رعايته لها وتشجيعه، وكانت تحمل مشاعر الود لابن عمها وتحلم أن يكون زوجًا لها ولكن ذات مرة يحدثها عمها عن خطورة الزواج بالأقارب فتتقلع عن الفكرة كليًا، ويتودد إليها أحد زملائها الفرنسيين فتحدث عمها عنه فيؤكد لها أيضًا خطأ الزواج بالأجنبي كما يؤكد لها أنها في فرنسة للدراسة والتفوق، وتنصرف إلى الدراسة وترجع حاملة شهادة الدكتوراه في علم الأدوية، ولاتخضع لإغراءات شوكة الداهوك بالزواج منها، وهو شريك أبيها، كما لاتقع في المهاوي التي سقط فيها أخواها فهد ودياب بل إنها لتهتم بمحل أختها شاهة لبيع الألبسة اهتمامها بصيدليتها بعد ضياع أختها شاهة في سيريلنكا وترفض الانصياع لعرض زوج أختها سمير الأدهم بالزواج منها كما لاتتخلى عن أبيها وتظل حريصة على صلة عمها به وهي ما تفتأ تلجأ إليه في كل ملمة.

وتكشف الرواية من خلال تاريخ الأسرتين طغيان المال على الواقع وإفساده وانحدار قيمة العلم بالمقابل وتراجعه، ولكن تظل الرواية متمسكة بالقيمة الحقيقية للعلم ومنافحة عنه من خلال تصويرها النموذج الإيجابي المتمثل في شخصية أميرة وتصويرها أيضًا السقوط الخطير الذي يقود إليه طغيان شهوة المال.

إذ يتزوج سمير الأدهم شاهة بنة سيف الدين طمعًا في أموالها وتعاني الأمرين منه ومن أمه وأخته وتضطر إلى طلب الطلاق بعد إنجابها ثلاثة أولاد منه، وتنصرف إلى أعمال التجارة إذ تفتتح محلًا لبيع الألبسة ولكن سرعان ما تتحول مع شريكتها سلوى إلى الاتجار بالخادمات الفليبينيات والسريلنكيات وتسافران معًا إلى أوربة ودول الشرق الأقصى وتنغمسان في الرذيلة والعهر، ثم يختطفها في مجاهل سيريلنكا نمور التاميل، ولايعثر لها على أثر، ولتكون أول كارثة تحل في حياة سيف الدين النايفة، في حين ينصرف ابنه فهد إلى متعه وملذاته ويبدأ بالخادمة السيريلنكية ميرنا ثم يضطر إلى الهرب إلى بيروت بعد أن أرسل ثلاثة رجال إلى ابن عمه مأمون تناولوه بالضرب، وفي بيروت يضاجع عروسًا فيَ ليلة زفافها،

ويتلقى الضرب المبرح ويضطر أبوه إلى دفع غرامة مالية كبيرة، ثم يتعرف إلى دارينا منصور أخت توليب ملكة جمال لبنان ويتزوجها على الرغم من معارضة أبيه وأمه ويظل على علاقاته مع النساء في أماكن شتى ومن أجناس مختلفة ويعمل في عقد صفقات السلاح والمخدرات بين بيروت وعواصم مختلفة وما ينفك يمارس مغامراته مع النساء هنا وهناك حتى مع إميليا صديقة زوجته التي يدعوها ذات مرة إلى منزله ويعاشرها في غياب زوجته ولكن زوجته تدهمه وهما معًا في سريرها فتطلق عليه النار وترديه قتيلاً.

ولم يكن أخوه دياب أقل منه انغماسًا في مهاوي الرذيلة، إذ قاده عشقه للسيارات إلى الاتجار بها وافتتاح مكتب لبيعها والسفر إلى بلدان أوربة ولاسيما ألمانية لشرائها بأساليب وطرق ملتوية ثم العمل في تهريب المخدرات والإنفاق على الملذات والنساء، وذات مرة كان عليه أن يعبر الحدود الألمانية بكمية كبيرة من المخدرات مخبأة في سيارته التي كان يقودها بسرعة كبيرة مما اضطره إلى كسر حاجز حدودي وتجاوزه وإذا رجال الشرطة يطلقون النار عليه وتنقلب سيارته ليجد نفسه في المستشفى ثم في السجن وقد حكم عليه بالسجن عشرين عامًا.

أما سيف الدين فقد سرقته نساؤه الأربع من ماله وسمعته وشرفه أكثر مما أعطينه من المتعة فقد رحلت نوال مع عشيقها المهندس إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرت مها مع عشيقها إلى بيروت وطالبته سوزان بمصروف شهري يبلغ المليون ليرة وهي تعلم أنه لم يبق لديه شيء فقد استنفدت منه كل شيء وتبادلا معًا يمين الطلاق وألقت عليه غادة يمين الطلاق لأن العصمة كانت بيدها وقد أخذت منه أيضًا كل شيء. وكان شريكه شوكة الداهوك قد فرّ بأربعة عشر مليار ليرة سورية هي أموال الشركة الاستثمارية التي أنشآها معًا تاركًا له المودعين يطالبونه بأموالهم، ويصاب فجأة بالسكري ويرتفع ضغطه ويفقد بصره ولايجد غير كتف أخيه مصباح يتكئ عليه ويد ابنته أميرة تقوده إلى بيته الأول حيث زوجته حفيظة أم دياب التي كان قد طلقها جريًا وراء شهوات نفسه.

وتبدو نهاية كل شخصية نابعة من طبيعة الحياة التي عاشتها وهي من جنس الأفعال التي مارستها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فإذا كانت شاهة قد زارت باريس طلبًا للتجارة وسعيًا وراء المال وجريًا وراء اللذة والمتعة فإن أختها أميرة أقامت في باريس أربع سنوات تطلب العلم وتسعى وراء المعرفة والثقافة ولم تنحدر إلى مهاوي الفساد مع أنها تحيط بها من كل جانب وهي متاحة لها بل مبذولة، ومن هنا تأتي

نهاية شاهة فقد انتهت بالضياع في مجاهل سيريلنكا حيث اختطفها نمور التاميل وأمها تتخيل تلك النمور وقد أكلتها وهي التي كانت تتاجر بالفتيات السيريلنكيات وتجلبهن إلى الشرق ليعملن خادمات وليأكل الرجال لحومهن بمن فيهم أبوها وأخوها دياب وفهد وبذلك تكون نهايتها جزاء وفاقًا لأفعالها غير الحميدة. في حين وجدت أميرة برّ الأمان في صيدليتها وفي زوجها الدكتور الجراح حسان الذي كانت قد تعرفت إليه ذات مرة مصادفة فأعجبت به الإعجاب الراقي بعيدًا عن أي تبذل أو انحدار ثم لجأت إلى هاتفه عندما أصيبت أمها بعارض ألم في كليتها، وقد اطمأنت إلى مودته ووجدت فيه ما يحقق أنوثتها ويؤكد كيانها. والمثير في الأمر أيضًا أن أميرة وشاهة أختان وقد نشأتا في بيت واحد ولكن شاهة هويت المال والمتعة في حين تعلق قلب أميرة بالقيم والمثل التي كان يحملها عمها وانصرفت إلى العلم والثقافة والعمل.

ويلاحظ أن كل شخصية من شخصيات الرواية كان لها من دلالة اسمها نصيب ولم يكن الاسم مجردًا من العلاقة مع بنية الشخصية، فأميرة هي أميرة على جسدها ورغباتها وهي أميرة بفكرها وسمو أخلاقها ونبل مشاعرها وهي أميرة على أسرتها والرجال المنحدرين الذين أحاطوا بها، في حين كان إخوتها الثلاثة بمن فيهم شاهة مجرد كائنات تجري وراء نزوات الجسد وشهوات النفس ولاسيما ما يتعلق منها بالمال والمظهر والسيطرة، وكانوا يمثلون العضوية الجسدية في الذئب والفهد والشاهة. أما الأب فكان في أخلاقه على النقيض من اسمه سيف الدين والرواية لم تذكره باسمه إلا مرة أو مرتين في البداية عندما كان فلاحًا بسيطًا طيب القلب، ولكنها بعد ذلك لاتذكره إلا بكنيته أبي ديبو أو أبي دياب مما يناسب حقيقة أخلاقه وأفعاله. وأما العم مصباح فكان حقيقة مصباحًا مضيئًا لابنة أخيه أميرة ولأسرته ولنفسه ولمجتمعه وكان يملك الوعي للواقع وإدراكه وفهمه من دون الاستسلام له أو الانسياق وراءه أو السقوط فيه وكان ولداه المأمون والأمين على قدر رفيع من سمو الخلق وعلو المعرفة فالأول مهندس أبلى في حرب تشرين بلاء حسنًا والاخر خبير بالحاسوب وهما جديران بهذين الاسمين لما فيهما من ارتباط بولدي هرون الرشيد اللذين كانا يشجعان العلم والعلماء كذلك كانت نور جديرة باسمها فهي طبيبة وصاحبة خلق رفيع وكانت حقيقة نورًا وضياءً صادرًا عن أبيها مصباح.

ويؤكد ذلك الصورة التي ترسمها الرواية لأسرة النايفة وقد أقبلت على

الطعام أول مرة بعد امتلاكها المال، تقول الرواية (ص٢٩): «على المائدة غدا ديبو أشره من عشرة ذئاب، فهد تحول إلى فهد كاسر لم يصطد فريسة منذ أيام.. شاهة غدت نمرة مفترسة، أما الأب فحدث ولاحرج، جوع قديم كان قد حوله هو الآخر إلى أنياب ومخالب يهشم الفروج هشمًا ويلتهم الإوزة بلقمة واحدة.. ثم بدت المائدة وقد انفضوا عنها أشبه بفريسة أتت عليها ضباع ..» ويلاحظ الاكتفاء بوصف دهشة أميرة لدى رؤيتها المائدة « إذ لم تملك إلا أن تشهق وهي ترى مائدتهم الفاخرة » (ص٢٩) وغياب وصف طريقة تناولها الطعام يدل على أنها كانت طبيعية ولاتلفت النظر، كما يلاحظ وصول العم مصباح متأخرًا ورؤيته بقايا المائدة وعدم مشاركته في شيء من الطعام.

والرواية تدين الجري وراء المال وتبين خطورته وتكشف ما قد يقود إليه الجشع كما توضح خطورة انهيار الطبقة المتوسطة وسيطرة فئة قليلة تملك كل شيء، وتعبر عن ذلك بأسلوب فني غير مباشر من خلال مواقف أميرة وعمها مصباح تارة وتارة أخرى من خلال وعيهما وتعبيرهما عن هذا الوعي مباشرة.

تصف أميرة العصر الذي تعيش فيه، فتقول: «هو عصر السمسرة، زمن المقاولات والوساطات... كل شيء يخضع لمنطق الصفقات والمساومات، الربح والخسارة.. عقلية العصابة نزعة النهب والسلب قطف ثمار ما يتعب في إنتاجه الآخرون. إطعام التسعة لأكل العشرة، الآخرون كلهم أعداؤك وحلال سرقتهم واستغلالهم.. أجل هكذا وكل شيء معقول، فهد .. دياب.. أبي كلهم يرددون: في عصر السماسرة إما أن تكون سمسارًا أو لاتكون..» (٩٧)

ويعبر عمها مصباح عن وعي أكثر اتساعًا عندما يقارن بين العصر الذي يعيش فيه العالم والعصر الذي نعيش فيه فيقول: «كم نحن غرباء عن هذا العصر!! إنه عصر التكنولوجيا ونحن في عصر الأساطير والخرافات، عصر التجمعات الاقتصادية الكبيرة ونحن في عصر الدويلات الهلامية الصغيرة، عصر حرية الإنسان وكرامته ونحن في عصر القمع البوليسي وامتهان الإنسان، عصر العلم والثقافة ونحن في عصر التخلف والأمية، عصر حقوق الإنسان والديمقراطية ونحن في عصر الحكام وإذلال الرعية» (١١٥).

كما يعبر العم مصباح عن شكل آخر من الوعي أكثر مرارة فيقول مخاطبًا ابنة أخيه: «في زمن رأس المال، ما قيمة الشهادات؟ ماقيمة العلم؟ ألا ترين المتعلمين يتسكعون في الطرقات بلا عمل ؟ المعلمين يبيعون على البسطات؟ أصحاب الشهادات

يعملون سواقين بالأجرة؟» (١٣٦). وبمثل هذا الوعي تسلح العم مصباح وابنة أخيه أميرة وبه تمسكا وبه كان يعضد كل منهما الآخر لذلك استطاعا تحقيق النجاة على الرغم من شدة العاصفة وهولها.

لقد استطاع العم مصباح أن يحقق لأسرته مناخًا هادئًا مستقرًا بحكمته ورجاحة عقله وتمسكه بالقيم والأخلاق، فإذا ابنته نور طبيبة وإليها تتطلع أميرة وتعدها قدوة وابنه مأمون مهندس ناجح تعجب به أميرة وتحمل له مشاعر الود وتتمنى أن يكون لها زوجًا ولكنه يعاملها معاملة الأخت وابنه الثاني أمين نجح في دراسة الحاسوب وهو مقيم في باريس للعمل في اختصاصه وقد تزوج بأجنبية وفي باريس استقبل ابنة عمه أميرة استقبال الأخ لأخته وأنزلها في ضيافته مع زوجته وأولاده سبعة أيام وأطلعها على معالم باريس وساعدها على التسجيل في الجامعة ومعه أدركت كيف يكون ابن العم أخًا في الحقيقة.

إن العم مصباح مع أسرته وعلاقته بابنة أخيه أميرة يقدم وجهًا آخر من وجوه المجتمع يؤكد من خلاله أن قوى الخير والبناء حاملة القيم ماتزال موجودة ومهما نالها من حيف فهي المنتصرة في النهاية لأنها قوى حق وخير وبناء، قد تضعف ولكن لايمكن أن تسقط أو تنهار، وإن كان لابد من أن تعاني. إن سيف الدين في الأصل فلاح طيب بسيط ساذج، وكذلك أولاده جميعًا، بمن فيهم أميرة نفسها، وكان من الممكن أن تتجرف مثلهم في التيار الذي انجرفوا فيه، ولكن عمها مصباح هو الذي خلصها، بما أوتي من علم وثقافة ووعي وذكاء، وبما أوتي أيضًا من حلم وتعقل وصبر، فأحاطها برعايته، ووجهها التوجيه الحسن، وهو مالم يتح لأحد من إخوتها، بل أتيح لهم جميعًا بمن فيهم أبوهم من يزين لهم الفساد ويحببه إليهم ويغريهم به، من أمثال شوكة الداهوك شريك أبي دياب وحسام صديق فهد.

والمثير في الرواية أن مصباح وسيف الدين أخوان، مما يؤكد أن الخير والشر صنوان لايفترقان، وأن الذي يصنع الخير هو العلم وأن الذي يقود إلى الشر هو المال، والرواية تؤكد أن المال متمثلاً في سيف الدين بحاجة دائمة إلى العلم، في حين أن العلم ليس بحاجة إلى المال بل يظل مكتفيًا بذاته. كما تؤكد الرواية أن العقل والعلم والتفكير هي سبل الخلاص ويتمثل ذلك في شخص أميرة. والجميل في الرواية أنها لاتقول شيئًا من هذا مباشرة، إنما تقدم سيرة أسرتين، وهي سيرة حافلة بالخبرة والتجربة والمعاناة، كما تقدم حياة مملوءة بالتناقضات والغرائب متمثلة في شخصيات كثيرة كانت لكل منها أفكارها

وفلسفتها ونمط حياتها كما امتلكت حرارة العيش وصخب الحياة.

والرواية تشير إلى الخلفية التاريخية إشارات ذكية فتضع الوقائع الداخلية للرواية في إطار العصر داخل حوادث تاريخية خارجية وأول إشارة ترد في الرواية هي حديث المهندس مأمون عن ذكرياته في حرب السادس من تشرين عام ١٩٧٣ وهو حديث عن ماض قريب يسترجعه (ص٥٧) ثم تأتي الإشارة إلى حدث خارجي معاصر لحوادث الرواية وهو زيارة السادات إلى إسرائيل ١٩٧٧ مما يعني أن زمن الرواية يبدأ من هذا التاريخ أو قبله بقليل (ص٥٩) وتنتهي أحداث الرواية بعد عام أو عامين من مؤتمر الطائف الذي عقد عام ١٩٨٩ ونفذت توصياته عام ١٩٩١ (ص٢٨٢) وساعد على إنهاء الحرب الأهلية في لبنان واستقرار الأوضاع فيها واستعادة بيروت عافيتها شيئًا فشيئًا على نحو ما تشير الرواية (ص٣٠٦) إذ يسافر بعد ذلك دياب إلى ألمانية وقد سقط جدار برلين واتحد شطراها عام ١٩٩٠ ويرقد في المستشفى سبعة أشهر وتزوره أمه وأخته في السجن ثم يكون تخلي زوجات سيف الدين عنه وفرار شريكه مما يعني استمرار حوادث الرواية إلى مابعد عام ١٩٩١ بنحو عام أو عامين لاأكثر إذ يعلن في عام ١٩٩٣ عن اتفاقية أوسلو والرواية لاتشير إليها.

وفي ما بين التاريخين (١٩٧٧-١٩٩١) تشير الرواية إلى استمرار الحرب الأهلية في لبنان التي بدأت عام ١٩٧٥ واندلاع الحرب بين العراق وإيران عام ١٩٨٠ واغتيال السادات عام ١٩٨١ واجتياح إسرائيل لجنوب لبنان عام ١٩٨٢ ودعوة غورباتشيف إلى البروتستريكا عام ١٩٨٥ وسقوط جدار برلين عام ١٩٨٩ واتحاد ألمانية في العام التالي واجتياح صدام الكويت في صيف العام نفسه ١٩٩٠ ثم نشوب حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ وتحرير الكويت وانهيار الاتحاد السوفيتي في العام نفسه.

والرواية تشير إلى تلك الحوادث التاريخية إشارات سريعة على لسان الأبطال في سياق الحوار أو في سياق السرد من غير ذكر أرقام السنوات ومن غير أن ترهق البنية الروائية، إذ تقدمها محض إطار خارجي لأن غايتها لم تكن تلك الحوادث، ولذلك قدمتها بالقدر الذي يخدم العمل الروائي ولايضر به.

والرواية تبدأ وعمر أميرة ستة عشر عامًا وهي في الصف الثاني الثانوي وتنتهي وقد نالت الدكتوراه في علم الأدوية وافتتحت صيدلية وتزوجت من الطبيب الجراح حسان مما يعني مرور نحو من خمسة عشر عامًا أو أكثر إذ آخر ما تشير إليه الرواية من حوادث تاريخية هو انهيار

الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ وبينه وبين أول حادث تاريخي تشير إليه نحو من أربعة عشر عامًا وهو زيارة السادات إلى إسرائيل عام ١٩٧٧.

والرواية لاتعنى بالمكان كعنايتها بالزمان، فهي لا تصف المكان ولاتصوره إلا في مواضع قليلة وهي في تلك المواضع القليلة لاتقدم وصفًا حسيًا تفصيليًا للمكان وإنما وصفًا شعوريًا انفعاليًا، أو وصفًا ذهنيًا ثقافيًا ليرسم صورة للمكان بقدر مايعطي فكرة عنه، من ذلك وصف الحاكورة وأسرة النايفة تغادرها حيث «لم تستطع أم ديبو أن تغادر **إلا** بشق النفس، قلبها يتفتت وهي تقلب النظر في الغرف الخاوية.. من غرفة إلى غرفة راحت تتلمس الجدران.. تتمسح بالنوافذ.. تقبل الأبواب.. عمرًا طويلاً كانت قد قضت في ذلك البيت، فرحها، ترحها، سعادتها، شقاؤها، كلها كانت قد عاشتها في ذلك البيت، دخلته وهي ابنة ثلاثة عشر وهاهي الآن في الأربعينات فكيف لا تأسى عليه؟» (ص٣٤)، وواضح أن الوصف للمكان هو وصف نفسي زماني أكثر مما هو وصف مكاني.

وفي مواضع أخرى يكون الوصف ذهنيًا ثقافيًا لايرسم صورة للمكان بقدر مايعطي فكرة عنه، من ذلك الحديث المطول في صفحة ونصف الصفحة عن باريس وهو حديث عن تاريخها وحضارتها والثقافة فيها وليس تصويرًا لها حتى عندما تحاول الرواية مقاربة شيء من الوصف أو التصوير فإنه لايعدو الرصد السريع ثم سرعان ماينقلب إلى حديث ذهني، من ذلك الحديث عن أميرة في باريس حيث: «وسائط النقل كثيرة، تريد تكسيًا، التكسيات رهن إشارتها، تريد المترو، باريس كلها مترو، حيثما شاءت وفي أي لحظة تريد، البيوت.. الهواتف.. كل ماتحتاجه أميرة تجده وفي طرفة عين، «هو ذا إذن مجتمع التقدم الذي يحلم به الإنسان» كانت تقول لنفسها وهي ترى ما وصل إليه ذلك المجتمع من تقدم" الإنسان غاية الغايات.. توفير راحته.. أمنه.. حاجاته.. ذلك هو هدف الدولة.. الغاية من النظام» (ص١٦١) وواضح أن هذا الكلام على باريس هو حديث ثقافي عنها وليس وصفًا مكانيًا لها.

وقد تذكر الرواية مواضع في باريس ولكن تعداد أسمائها وحده لايقدم صورة مكانية، من ذلك الحديث عن أميرة أيضًا بأنها «مذ وضعت قدمها في باريس قررت أن تكتشف نهر السين، قوس النصر، كاتدرائية نوتردام، برج إيفل، قصور فرساي، بل حتى سجن الباستيل ذهبت إليه لترى بأم عينها مافعل التنوير بالشعب فجعله ينتفض محطمًا أسوار الباستيل»

(ص١٦١). وواضح في ذلك الحـــديث التحول سريعًا إلى الثقافة والذهنية بعيدًا عن الموقع نفسه ليتحول الحديث عن المكان إلى الحديث عن الزمان.

وقد لايكون في الحديث عن المكان شيء من الوصف إنما يأتي الحديث عنه مجرد وسيلة للتعبير عن الزمن والحالة الراهنة من ذلك مثلاً الحديث عن بيروت بعد انتهاء الحرب الأهلية وسحب السلاح من الميليشيات المتنازعة حيث« شوارع بيروت ماتزال معتمة، الأنوار الخارجة من نوافذ البيوت وحدها تضيء الشوارع، الملاهي لم تعد إلى غابر عهدها، الزيتونة لم تعد الزيتونة، السان جورج، الروشة، الكورنيش، كلها تستعيد عافيتها شيئًا فشيئًا، لكنها لم تستعيدها تمامًا» (ص٢٠٦).

ولعل الذي جعل الرواية تهتم بالزمان أكثر من اهتمامها بالمكان هو الطابع الاجتماعي الغالب عليها، فالرواية ذات طابع اجتماعي في المقام الأول فهي تعالج المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية خلال مايقارب العقدين من الزمن، وتحمل رؤية تاريخية واعية وتدل على فهم معمق لحركة الواقع اقتصاديًا واجتماعيًا ، ولكن من الصعب القول إنها رواية تاريخية، لأنها قريبة عهد بالمرحلة التي تعالجها ولايكاد يفصلها عنها سوى بضع سنين ربما لاتزيد على الخمس، ومن هنا فالرواية واقعية ذات طابع اجتماعي، ورؤية واعية للواقع وفهم عميق له، يرصد الظواهر والمتغيرات ويكشف أسبابها والقوى والعوامل الكامنة وراءها كما يرصد ردود الفعل والمواقف المختلفة من المتغيرات ويكشف ماهو سلبي فيها وماهو إيجابي من خلال عرض المصائر التي يمكن أن تقود إليها تلك المواقف.

* * *

والرواية تقدم هذا الفهم للواقع من خلال شخصيات كثيرة تعج حياتها بأشكال مختلفة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها الحب والبغض والاشتهاء والكراهية وفيها العقل والجنون والاندفاع والتروي وفيها النهوض والسقوط وكل مافي الحياة نفسها من صخب وضجيج أو هدوء وسكون، وتشابه وانسجام أو تنوع واختلاف، وكل ما فيها أيضًا من حوادث منطقية هي نتاج تخطيط وتدبير أو وقائع عجيبة هي نتاج المصادفة وسوء التدبير ، ومن الأخيرة مثلاً وقوع فهد في أحد فنادق اللاذقية على عروس في ليلة زفافها وقد يبدو الأمر محض مصادفة ولكنه سوء تدبير منها ومن زوجها إذ شربا كثيرًا ولم يكن من عادتهما الشراب ولما خلا بها في غرفتهما راح طريح الفراش واضطرت العروس إلى الخروج من غرفتها

لقضاء حاجة ولما رجعت دخلت غرفة فهد واستلقت في سريره غير واعية، أما الحوادث التي جاءت نتاج وعي وتدبير فهي معظم وقائع الرواية.

والرواية تمتلك مقدرة سردية فائقة ونفسًا حكائيًا يذخر بخبرات وتجارب كثيرة يتجلى في القص السريع والمتلاحق والمفصل عن أشخاص وأسر ووقائع وحوادث داخل الزمن الروائي وخارجه وتقديم حشد من التعليق على الأحداث والتفسير للمواقف والتحليل للشخصيات ورصد المشاعر والعواطف والأهواء والنزاعات على مافيها من كثرة واختلاف وتنوع وفي مدى زمني واسع يشمل نحوًا من عقدين من الزمن وفي أماكن كثيرة تغطي معظم القارات وإن كان مركز الحوادث هو دمشق بكل ما طرأ عليها من متغيرات.

ولعل ذلك كله يؤكد الطابع المحلي للرواية، ولكن بعيدًا عن الإقليمية الضيقة والمحدودة ويظهر ذلك واضحًا في لغة الرواية بما فيها من سرد ووصف وحوار فردي أو ثنائي منقول أو مسرود فقد كان ذلك كله بلغة عربية فصيحة، استطاعت الرواية توظيفها لكل أشكال السرد، واتسمت بخصوصية تميزها وهي اهتمامها بالثقافة الشعبية بما فيها من شعر متداول وأمثال متناقلة وحكايات وأقاصيص وأساطير وأخبار عن رجالات من التاريخ وكلها مروية بالعربية الفصيحة أيضًا وموظفة لتحقيق بناء روائي متماسك يغتني بتلك الاستدعاءات الثقافية ويكتسب من خلالها ملمحًا محليًا لا يعزلها عن التراث بل يربطها به لأنها تدل بصورة غير مباشرة على استمرار ذلك التراث حيًا في الواقع اليومي مما يعني أيضًا إكساب الرواية سمة الأصالة.

وتلك الأشكال من الثقافة التراثية الشعبية كثيرة ومتنوعة وهي ترد على لسان السارد تارة في تضاعيف سرده أو تعليقه أو تحليله للشخصية أو وصفه لها وترد تارة على لسان الشخصية في سياق الحوار الفردي أو الثنائي منسجمة في معظم الحالات مع البنية العامة للرواية ولاتكاد تلك الاستدعاءات الثقافية تبدو حشوًا إلا في مواقع قليلة. وقد جاءت تلك الاستدعاءات الثقافية في بنى مختلفة، فهي ترد تارة بنصها المحفوظ من غير تعديل ولاتغيير، وتارة أخرى مع شيء من التحوير وثالثة في صياغة جديدة ورابعة ترد صينة على شاكلتها تحاكيها وتشير إليها ولكن من غير أن تتضمنها وخامسة تأتي مفردة واحدة تومئ إليها إيماء، ويدل ذلك كله على غنى التراث الثقافي وإمكان دخوله في بنية أدبية حديثة هي الرواية كما يدل أيضًا على مقدرة لدى المؤلف

تتمثل في توظيف الثقافة التراثية والتعامل معها برؤية مبدعة.

***

ويبدو الشعر عنصرًا لافتًا للنظر بدخوله في بنية الرواية إذ هي ذات طبيعة موضوعية وهو ذو طبيعة ذاتية غنائية، فكيف كان دخوله في نسيج الرواية؟ هل يرجع ذلك إلى قصد من السارد أم إلى مناسبة في السياق؟ ولابد هنا من الإشارة إلى الشعر المستدعى في الرواية هو في أكثره من الشعر المحفوظ لدى معظم الناس ومتداول على ألسنتهم والذي يتمثلون به في كثير من المواقف والمناسبات وقد يروونه ملحونًا أو يخطئون في روايته، ولابد من الإشارة أيضًا إلى أن كثيرًا من الروايات في المراحل الأولى لظهور الرواية العربية كانت تستدعي الشعر في سياق الرواية بمناسبة تارة ومن غير مناسبة تارة أخرى وهي الأكثر لما للشعر من رصيد في الوجدان العربي ولما له أيضًا من حضور دائم في الثقافة العربية، ولما له أيضًا من تألق خاص، وإن كان هذا وحده بالطبع لايسوغ دخوله في بنية العمل الروائي.

ومهما يكن فإن الشعر ليس الأكثر استدعاء في الرواية ولكنه الأكثر لفتًا للنظر، والرواية تستدعيه في مواضع مختلفة وبأشكال شتى وعلى ألسن شخصيات كثيرة، ومن ذلك المواضع التالية:

١ - يروي السارد عن تعرض شاهة نفسها لشاب في النافذة المقابلة لنافذتها وما استتبع ذلك من «نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء..» (ص٤٥) وهذا القول المستدعى في سياق السرد تعليقًا من السارد هو بيت متداول من شعر أحمد شوقي يبدو مناسبًا للسياق.

٢ - يعلق السارد على حوار أم دياب مع زوجها وهي تنصح له أن يرعوي عن غيه ويعنى بأمور البيت فيقول: «قالت ذلك وهي تتذكر البيت الذي كان سلفها مصباح يردده دائمًا «إذا كان رب البيت بالطبل ضاربًا» وهي وإن كانت لاتعرف تكملته إلا أنها تعرف معناه جيدًا» (ص٤٢)، وتكملة البيت: «فشيمة أهل البيت كلهم الرقص» والبيت يقال في التعريض بمن لايحسن القيام بالمسؤولية عمن هو مسؤول عنهم، وقد جاء استدعاؤه مناسبًا للسياق وبأسلوب فني مقنع.

٣- يصف السارد أرق أم دياب بعدما رأت وصال زوجها مع الجارية الفيلبينية مرينا، فيقول: «طوال ذلك الليل لم تستطع النوم.. فراشها قتاد وعيناها جمر.. ويتقلب الجسد الممتلئ على فراش الشوك» (ص٩٥). يشير هذا الوصف من بعيد إلى بيت للنابغة الذبياني يصور فيه أرقه فيقول:

فبت كأن العائدات فرشن لي

هراساً به يعلى فراشي ويقشب

٤- يتحدث السارد عن التاجر الكبير صدر الدين أبي الرمحين فيصفه بأنه «علم في رأسه نار» (ص١٤٣) وهذا الوصف يستدعي بيت الخنساء في رثائها أخاها صخرًا حيث تقول:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

وهو وصف مقنع ولاتكلف فيه لأنه متداول بين الناس حتى اليوم مثقفين وغير مثقفين، وقد أصبح كالمثل.

٥- تشجع نور ابنة عمها أميرة على الدراسة وتقول لها (١٣):

إذا غامرت في شرف مروم

فلا ترض بما دون النجوم

وكلام نور يعتمد مباشرة على بيت شهير للمتنبي وإن كانت روايته الصحيحة تقنع بدلاً من ترض.

٦- يروي السارد أن أم ديبو قد وضعت اثني عشر ولدًا ولم يبق منهم سوى أربعة فقد تخطفهم الموت، ثم يقول: «وخلف في ذلك الصدر قلبًا مجروحًا ليس فيه مكان لحراب أو نبال» (ص٦)، وهذا الوصف يستدعي قول المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى

فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام

تكسرت النصال على النصال

والاستدعاء يعتمد هنا على الإشارة السريعة الرشيقة ويبدو مقبولاً لأنه جاء على لسان السارد.

٧- تحدث أميرة ابن عمها أمين في باريس عن أثر المال في أخيها دياب فتقول: «المال يفعل المستحيل، ألم يقل الشاعر: رأيت الناس شرهم الفقير؟» (ص١٦٥)، يعتمد كلام أميرة على استدعاء واضح ومباشر لعجز بيت للشاعر عروة بن الورد، وصدره قوله: «دعني للغنى أسعى فإني» ويبدو استشهاد أميرة بالشعر مجرد استطراد لايغني السياق، ولاينسجم مع أفكارها إذ أنها غير مقتنعة لابالمال ولاالغنى.

٨- يتحدث السارد عن أميرة وهي تفكر في الواقع وترى ما هو عليه من سوء ثم ترى أن «عودتهم إلى الحواكير ستكون أحمد» (ص٤٦) والجملة المروية على لسان السارد تشير إلى مثل عربي قديم ورد في أبيات كثيرة منها بيت لابن المعتز يقول فيه:

خليلي قد طاب الشراب المبرد

وقد عدت بعد النسك والعود أحمد

٩- يعلق السارد على أبي دياب الذي هزل وذوى بعد موت ولديه حتى إنه عاف النساء، فيقول: «لقد بشم، ثعلب أكل الكثير من العنب» (ص٣١٩) وهذا الوصف يستدعي بيت أبي الطيب المتنبي في كافور الإخشيدي وهو قوله:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بشمن ومافنى العناقيد

١٠- يحدث مصباح ابنة أخيه أميرة عن الغلاء فتسأله: «الحالة خطيرة، ألا يراها من هم فوق؟» (ص٢٤٠) فيجيبها:

إذا كنت لاتدري فتلك مصيبة

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وهو بيت للشاعر معاوية بن عادية الفزاري وروايته على الشكل التالي:

إن كنت لاتدري فتلك مصيبة

أو كنت تدري فالمصيبة أعظم

والبيت كثير التداول بين الناس ويبدو مناسبًا للسياق وقوي الدلالة.

١١- يتحدث مصباح عن الجهل ويراه سبب التخلف ويستدعي بيتين لعنترة يدعم بهما رأيه، وهما (١٢١):

اعلم بأن العلم أرفع رتبة

وأجل مكتسب وأسنى مفخر

والعلم ليس بنافع أربابه

مالم يفد عملاً وحسن تبصر

والبيتان في حوار منطوق على لسان مصباح ومع أنه مثقف ومن الممكن أن يحفظ مثل هذا الشعر ويرويه فإن استدعاء البيتين يبدو مقحمًا وقد أثقل الحوار بالذهنية وعنترة بعد ذلك فارس وليس ممن يستشهد بشعره في سياق العلم.

١٢- يدعو أبو سامي شريكيه شوكة الداهوك وأبا دياب إلى مضارب الغجر حيث تغنيهم فوزة (١٠٨):

إن سرينا يمهم إيمت نصلهم

اعزاز وعززوا بقلبي نصلهم

جبل لو شال عن قلبي نص الهم

اهتز ومال وتزحزح وداب

ثم تغنيهم:

خسارة يا ربيع العمر وليت

وما عاد ينفع معك اللو والليت

يا ريتك قبل ما وليت وليت

على قلبي وقلب ولفي والأحباب

ويبدو ذكر الأغنيتين بنصهما مناسبًا لسياق السرد ومعبرًا عن الفضاء الروائي وصانعًا له.

وواضح أن القيمة الفنية للشعر لاتكمن فيه بحد ذاته إنما تكمن في مناسبته للسياق ودخوله في بنية العمل من غير أن يكون مجلوبًا أو متكلفًا، ويبدو أكثر

قبـــولا عندمـــا يكـــون استـدعـــاؤه بالإشـــارة اللطيفة.

* * *

وتستدعي الرواية في مواضع كثيرة حكايات شعبية وأقاصيص وطرائف، منها ما هو مروي على ألسنة الأبطال في سياق الحوار كاستشهاد من المتكلم على فكـرة أو كدعم لرأيه، ويبدو بعضها ممثلاً لحالة ذهنية أو مقـحـمًـا على السيـاق، ومنها مايشار إليه مجرد إشارة سريعة، ومن تلك الحكايات الأمثلة التالية:

١- يتحـدث السارد عن جشع أبي دياب وطمعه في أن تقفز أمواله وأرباحه وتتكاثر بسرعة كبيرة وفق تكاثر انشطاري أو وفق متوالية هندسية ويتابع السارد حديثه فيقول: «وهكذا تسير المتوالية الهندسية إلى أن تصبح أرقامًا خيالية، أليس هذا ما طلبه مخترع الشطرنج؟ حبة قـمح واحـدة في مـربع الشطرنج الأول تتزايد وفق متواليـة هندسيـة، مكافـأة بسيطة طلبهـا من ملك الهند، ذلك الملك ضحك في البداية من مخترع الشطرنج البسيط الساذج الذي لم يطلب ذهبًا ولافضة بل قمحًا ثم اكتشف في النهاية أنه هو البسيط الساذج، فغلال بلاده كلها من القـمح لاتكفي مكافـأة لذلك المختـرع» (ص٦٢).

والحكاية يرويها السارد ليتحدث عن جشع أبي دياب وتبدو ذات طابع ذهني وهي مقحمة على السياق وليست من سرد إحدى الشخصيات. ومن المعروف أن الشطرنج ابتكار صيني والحكاية تروى عن ملك صيني لاعن ملك هندي.

٢- يتحدث السارد عن طلاق شاهة من سمير الأدهم وما كان من كيد أمه وأخته لها وهي تذكر ذلك وتسترجعه، ثم يذكر السارد أنها سمعت ذات مرة طرفة، ويورد الطرفة بنصها الذي هو التالي: «يروى أن رجـلاً رأى إبليس يسـوق أربعـة حمـير على ظهـر كل منها حمل، سـأله الرجل: مـا هذا الحـمل؟ فـقـال إبليس: الجشع، قال: ومن يشتريه؟ قال: التجار. وهذا؟ سأل الرجل مشيرًا إلى الثاني، قال إبليس: الجور. ومن يشتريه؟ قال: الحكام. والثالث؟ سأله الرجل، فأجاب: الحسد. ومن يشتريه؟ قال: العلماء. والرابع؟ سأل الرجل إبليس، فرد: الكيد. ومن يشتريه؟ المرأة. ومن يتعامل بالكيد والتآمر غير المرأة؟» (ص١٧٣) والطرفة طويلة، وهي مقحمة على السياق، وروايتها لاتغني الموقف في شيء.

٣- يتحدث كبير التجار صدر الدين أبو الرمحين في نادي الذروة وقد التف من حوله أعوانه عن حق الحكماء والعقلاء في أن يطاعوا ويضرب لهم مثلا على ذلك بالقصة التالية: «يحكى أن حكيمًا صينيًا

وضع فيلاً في ساحة ثم غطاه بخيمة، بعدئذ جاء بطلابه ليعرفوا ما تحت الخيمة، مدّ أولهم يده فلمس خرطومه فقال هذا خرطوم ماء، الثاني لمس جذعه فقال: هذا جذع شجرة، الثالث لمس ذيله فقال: هذا بعير ... وهكذا الحقيقة يا إخوان، كل منا يرى جزءاً منها فيعدّه الحقيقة كلها، لكن الحقيقة لايعرفها إلا الحكيم، والحكماء قلة، فاسمعوا حكماءكم وأطيعوهم، إنهم رسل المعرفة، ظل الله على الأرض» (ص٢١٥).

والقصة مروية على لسان صدر الدين كبير التجار، في تضاعيف حوار منقول، وهي موظفة لصالحه، إذ إنها تروى في الأصل عن نسبية المعرفة، وتبدو القصة منسجمة مع شخصية صدر الدين، ولكنها تظل نافرة وغير منسجمة مع البنية العامة للرواية.

٤- يتحدث السارد عن مضايقة سمير الأدهم لأميرة وعرضه الزواج منها ولجوئها إلى التسويف والمماطلة، مثلها مثل جحا وحمار السلطان، ويروي السارد هنا الطرفة المعروفة فيقول: «طلب السلطان من جحا أن يعلم حماره القراءة والكتابة، وافق جحا وأخذ العربون، عشر ليرات ذهباً، وحين سألوه: ويحك ماذا فعلت؟ كيف تورطت؟ أجاب جحا ضاحكاً: لاعليكم، أخذت مهلة عشر سنوات، ألا تحل عشر سنوات المشكلة؟ كيف؟ سألوه فأجاب ضاحكاً: خلالها إما أن يموت الملك أو يموت الحمار أو أموت أنا» (ص٢٧٨).

وتبدو الطرفة مناسبة للموقف، ولكن مجيئها على لسان السارد جعلها تبدو محايدة فهي مروية من الخارج ولوجاءت بطريقة ما على لسان أميرة نفسها لكانت أكثر حرارة.

٥- ترجع أم دياب من ألمانية بعد زيارتها لولدها دياب وقد حكم عليه بالسجن هناك عشرين عاماً، لتحدث ابنتها أميرة: «لقد خسرت كل شيء، زوجي ضاع مني، ابنتي فقدتها، ابني رهين الحبس.. مذ بدأ أبوك طريقه الأعوج علمت أنه سيأتي يوم نخسر فيه كل شيء، لم أبق سوى جلد وعظم، هذا ما سيحدث لنا في كل شيء، أم أنك لم تسمعي قصة ذلك الثعلب؟»، ثم تأخذ في سرد حكاية الثعلب، قائلة: «يحكى أن ثعلباً جائعاً دخل كرم عنب من ثغرة صغيرة في سياج، هناك وجد العناقيد وافرة والخير كثيراً.. أياماً وليالي ظل يأكل ويسمن، حتى إذا ما أتخم وسئم العنب جاء إلى الثغرة كي يخرج، لكنه وجدها أضيق بكثير من أن تسمح له بالخروج، حاول القفز على السياج لكن السياج كان عالياً، حاول أن يجد مخرجاً لكنه لم يجد، فقبع في الكرم حزيناً يذبل ويذوي إلى أن فقد كل ما جناه من الكرم

وعاد أهزل مما كان، حينذاك فقط سمحت له الشغرة بالخروج» (ص٢٨٩). وتبدو الحكاية واضحة الدلالة على حالة أم دياب وقوية الارتباط بالسياق الروائي بسبب ورودها على لسان أم دياب نفسها في أثناء حوارها مع ابنتها وهي منسجمة مع شخصيتها الريفية لأن الحكاية نفسها ذات طابع ريفي.

٦- وفي مواضع أخرى يكتفي السارد بالإشارة إلى الحكاية من غير أن يضطر إلى تلخيص الحكاية أو روايتها، ومن ذلك حديثه عن الثروة الكبيرة التي هبطت على أبي دياب فذهبا هو وزوجته وأمضيا الليل يعدان النقود ويعيدان عدها ثم يقول مصورًا حالتهما: «كان الزمن كله كأنه حلم من الأحلام حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، هما بطلاها، لفظ الرجل عبارة افتح يا سمسم فانفتح باب كنز لايستطيعان عدّ ذهبه وفضته» (ص٢٦) وواضح أن السارد في أثناء وصفه غنى أبي دياب المفاجئ إنما يستدعي حكاية علي بابا والأربعين حرامي، وهو استدعاء يقوم على الإشارة الموجزة من غير سرد ولااسترسال وقد جاءت الإشارة رشيقة موحية وكانت منسجمة مع الحالة والوقت ولم يكن فيها شيء من تكلف أو افتعال.

٧- وتتكرر الإشارة نفسها على لسان الأخ مصباح وهو يرى ثروة أخيه سيف الدين حيث يقول له: «نزلت لك قفة ذهب من السماء أم انفتحت لك مغارة علاء الدين؟» (٣٠).

٨- وفي موضع ثالث يرى فهد أخاه دياب يحاول اصطياد إحدى الفتيات في نادي الذروة فينبهه إلى ضرورة أن يضرب ضربة واحدة والا يثنّي الضربة وإلا خسر، ويقول له: «فهد، بماذا أوصيك؟ كن كالشاطر حسن، بضربة واحدة من سيفك اقطع رأس الغولة أو قطعت هي رأسك» (ص١٧٨) والإشارة واضحة الدلالة وتمتاز بالذكاء والإيجاز ولطف الإشارة وهي واسعة الإيحاء ومنسجمة مع الموقف والشخصية وملتحمة ببنية العمل الروائي بسبب مجيئها على لسان الشخصية في سياق الحوار من غير إسهاب ولاإقحام.

إن الاستدعاءات الثقافية لعنصر الحكاية لم تكن كثيرة فقد جاءت في ثمانية مواضع معظمها كان في سياق السرد وعلى لسان السارد نفسه مع إيراد نص الحكاية كاملاً مما أرهق السرد وأوحى بالتكلف، في حين كان أقلها في سياق الحوار وعلى لسان الشخصية مع الاكتفاء بالإشارة إلى الحكاية من غير سردها وهو ما جعلها أكثر انسجامًا مع السرد الروائي وأكثر التحامًا به.

❖ ❖❖

وتستدعي الرواية بعض الأساطير

في مواضع عدة بطرق مختلفة بعضها يقوم على الإشارة العابرة بكلمة وبعضها الآخر برواية الأسطورة، وهو في الحالات كلها استدعاء قليل لبضع أساطير. ومن ذلك:

١- يسافر أبو دياب إلى سيريلنكا بحثًا عن ابنته شاهة الضائعة هناك وتشير الرواية إلى أن سرنديب هو الاسم القديم لتلك الجزيرة وتصفها ثم تستدعي أسطورة آدم وحواء وترويها على لسان السارد وهويقول: «كان اسمها سرنديب والتي تقول الأساطير إن أبانا آدم نزل فيها أول ما نزل مطرودًا من فردوس السماء وإنه فتح عينيه أول ما فتحهما على الخوف والهلع وهو لايرى شيئًا مما ألفه في ذلك الفردوس حتى حواء لم يجدها بجانبه، هي التي أغوته أن يأكل من تفاح المعرفة فتمزق شملهما شر ممزق وكما راح آدم يبحث عن حواء هناك بين الأدغال والغابات كذلك راح أبو دياب يبحث» (ص٢٦٤) ويبدو استدعاء الأسطورة هنا ضربًا من الاستطراد وخروجًا عن النسق الروائي وهو لايخدم الرواية في شيء، بل يثقلها بحشو لامبرر له.

وتسمية قصة آدم في هذا النسق أسطورة لايعني في جملة ما يعني كل ما أضاف إليه الخيال البشري وحوله إلى أسطورة سواء أكان من الواقع أم التاريخ أم الدين، وواضح أن قصة آدم كما سردتها الرواية شكل من أشكال الأسطورة وليست القصة التي وردت في القرآن الكريم الذي لم يذكر سرنديب ولاتفاحة المعرفة ولااسم حواء.

٢- يتحدث السارد عن حث العم مصباح لابنة أخيه أميرة على أن تعيش حياتها بعد لقائها بالدكتور حسان مؤكدًا لها أن «الحياة جميلة لكن أجمل ما فيها أيام الشباب والحب» وتسأله عن الحب فيحدثها قائلاً: «الأساطير تقول إن الإنسان كان كلاً واحدًا ثم انشطر نصفين: ذكرًا وأنثى، لهذا لايمكن للإنسان أن يعيش إلا إذا وجد نصفه الثاني» (ص٢٩٢) وما يقوله العم هو خلاصة لنظرية أفلاطون في الحب، وقد جاء في حوار مسرود ويبدو منسجمًا مع شخصيته ومع طبيعة العلاقة الودية بينه وبين ابنة أخيه.

يصف السارد هياج العريس الذي استيقظ فوجد فهد قد ضاجع عروسه «فإذا به قد تحول إلى ثور هائج ينطح يضرب برفس.. حاول فهد أن يمنع عن نفسه الرفس لكنه لم يستطع، فالثور ذو قوة خارقة لعله هو نفسه ذاك الذي هاجم تموز حبيب عشتار فأودى به إلى باطن الأرض» (ص٨٨) وواضح أن السارد قد أسهب في وصفه واسترسل ثم أقحم الحديث عن الثور الذي قتل دوموزو كما تروي الأسطورة وهذا الاستدعاء للأسطورة نافر ومباشر ولايخدم الرواية في شيء.

٤- يصف السارد ممارسة إميليا الجنس فيقول: «إميليا راهبة بارعة في معبد عشتار.. مؤدية طقوس عبادتها البابلية عارفة جيدًا كيف تمضي بشريكها إلى الذروة» (ص٢٠٨) ويستدعي الوصف أسطورة عشتار استدعاء رشيقًا قوامه الإشارة العابرة من غير شرح ولاتفصيل وقد جاء الاستدعاء عفويًا مناسبًا للسياق من غير تكلف وهو ملتحم بالموقف ومعبر عنه ولايثقل البناء الروائي.

٥- يؤسس أبو دياب وشـوكـة الداهوك وأبو سامي وصدر الدين وعبد الفتاح شركة مساهمة ويقترح أبو سامي تسميتها: «عشتار، شركة عشتار للإنتاج الزراعي» ويعلق عبد الفتاح: «إذن، نخب عشتار إلهة الخصب والحب» (ص١٨٣) ويبدو استدعاء الأسطورة في تضاعيف الحوار وعلى لسان الشخصيات المتكلمة مناسبًا كل المناسبة وقد جاء منسجمًا مع الموقف والشخصيات وخلا من أي شرح أو تعليق.

٦- يغري حسام صديقه فهد باقتحام عالم المرأة مؤكدًا له سقوط معاني العفة والشرف وسيطرة الحاجة إلى المال، فيقول: «إنها المهنة الأقدم في العالم، وكما كانت فتيات بابل يذهبن إلى المعبد ليقدمن أجسادهن قربانًا للربة عشتار إلهة الخصب والخير، هكذا تذهب الآن الفتيات والنساء ليضحين بأعز ما يملكن على مذبح يهوه رب اليهود: المال»(ص١٧٢). ويبدو استدعاء الأسطورة في هذا السياق مقحمًا من السارد على السياق وهو ناتئ وغير منسجم من البنية الروائية وقد جاء تعليقًا من السارد ولم يكن في سياق الحوار على لسان حسان مثلاً وقد ظهر الاستدعاء متكلفًا بما فيه من شرح وتفسير ومقارنة مما يدل على وعي عقلي.

٧ - يصف الترف في نادي الذروة فيقول: «نساء ينزلن بالسلال من السقف، وحسبك أن تقارب واحدتهن حتى تلمس حرير الهند وتشم عطور باريس وتتذوق خمور أدونيس»(ص١٤٩) ويستدعي هذا الوصف أسطورة أدونيس استدعاء عفويًا رشيقًا من خلال إشارة سريعة لا إثقال فيها ولاتكلف وتبدو مناسبة للسياق والموقف وبها يغتني الوصف لما تمتلك من قدرة على الإيحاء وإثارة الخيال.

٨ - يغري شوكة الداهوك شريكه أبا دياب بالزواج في حوار يبدؤه أبو دياب: «شهريار يعني ؟» ويعلق شوكة: «ولم لا؟ المال يجعلك خيرًا من ألف شهريار» ويسأل أبو دياب: «صحيح، لكن القتل صعب علي، فكيف أكون شهريار آخر يتزوج المرأة في الليل ليقتلها في النهار؟ »ويرد شوكة: «تزوج شهرزاد أخرى تلهيك عن قتلها»(ص١٠٩) ويمتاز هذا الحوار بالذكاء والرشاقة

والإيجاز وهو حوار حي مباشر بين الشخصيتين لاقطع فيه من السارد ولا تدخل ولاتعليق وقد قام في جملته على استدعاء أسطورة شهريار وبني عليها من إضافة لمسات جديدة مبتكرة لمعاني الأسطورة وعناصرها وهو استدعاء مناسب للموقف وللشخصيتين وقد أغنى بنية الرواية وأكسبها العمق والحرارة.

٩ - يتحدث السارد عن رغبة كامنة لدى فهد في تبديل النساء فيقول: «كان ذلك في دمه قبل أن تطلع لهم ليلة القدر، وبعد أن طلعت وعرف النساء والمال كان بوده أن يكون شهريار يبدل كل ليلة امرأة دون أن يبتلى بشهرزاد أبداً» (ص٣٠٥) يستدعي هذا الوصف أسطورة شهرزاد استدعاء رشيقاً سريعاً لا إسهاب به ولاتكلف ويبدو منسجماً مع الموقف مع أنه جاء على لسان السارد وبأسلوب الوصف.

١٠ - ترى أم ديبو ابنتها أميرة في زي تدريب الفتوة فتعلق: «فتيات يتدربن على الأعمال العسكرية لكأن البلاد خلت من الرجال، لو سمع أبو زيد الهلالي بذلك لفقع ضحكاً» (ص٨) ويبدو التعليق عفوياً وقد تضمن استدعاء شخصية تاريخية تحولت إلى شخصية أسطورية وهو استدعاء عفوي بسيط يناسب الموقف وقد جاء في صيغة تعليق حي من إحدى الشخصيات وهو منسجم معها ومعبر عنها.

١١ - تتصل أم دياب بابنتها أميرة فتخبرها بعزم أبيها على طلاقها وهي تقول لها: «أعمته النساء لم تعد تشبعه أربع يريد خمسين وستين مثل هارون الرشيد» (ص٢٢١) وكلام أم دياب يستدعي الصورة الأسطورية لهارون الرشيد، وهي بخلاف صورته التاريخية، وهو استدعاء عفوي بسيط يناسب شخصية أم دياب ويعبر عن جهلها بحقائق التاريخ وينسجم مع الموقف، وقد جاء الاستدعاء في حوار حي وبقدر كبير من الإيجاز ومن غير تكلف ولا افتعال.

١٢ - يمدح أبو دياب كبير التجار صدر الدين أبا الرمحين فيقول له: «أنت أكرم من حاتم الطائي» فيرد صدر الدين معلقاً: «حاتم الطائي؟ مسكين، وما حاتم ذلك البدوي البائس الذي لم يكن يملك غير شويهات وفرس؟» (ص١٤٦). وواضح أن استدعاء شخصية حاتم مناسب للموقف ومنسجم مع الشخصيتين وهو استدعاء يقوم على الإشارة السريعة من غير تفصيل وقد جاء في سياق الحوار الحي فاكتسب الحيوية، ويكشف الاستدعاء غرور الشخصيتين وجهلهما وبذلك يقوم بوظيفة أخرى تؤكد تلاحمه مع البنية الروائية.

لقد استدعت الرواية من الأساطير في معظم الحالات ماهو معروف لدى

العامة ومتداول مما يناسب شخصيات الرواية التي هي في معظمها شخصيات غير مثقفة ، وكان الاستدعاء ناجحًا حيث اعتمدت على الإشارة والإيحاء وكان بخلاف ذلك حيث اعتمدت على الشرح والتفصيل، ومهما يكن فإن عنصر الأسطورة جاذب شديد الإغراء وقد تعاملت معه الرواية بقدر مقبول من الحذر والوعي.

❖❖❖

واستدعت الرواية كثيرًا من الأمثال العربية القديمة والحديثة ويمكن القول باطمئنان إن الأمثال هي العنصر الأكثر استدعاء في الرواية، وقد جاء بعضها في سياق الحوار بين الشخصيات في حين جاء بعضها الآخر في سياق السرد بصوت سارد، ومعظم الأمثال جاءت بصيغتها المحفوظة والمتداولة بين الناس في حين أعيد صياغة القليل منها، ومن الأمثال القديمة التي أعيدت صياغتها:

١ - تلوم أم دياب ابنها دياب وهو راقد في المستشفى على عمله في تهريب المخدرات، ويعلق السارد: «ولكن مانفع العذل وقد سبقه السيف»(ص٢٨٨) والتعليق يستدعي المثل العربي القديم: «سبق السيف العذل» وقد أعيدت صياغته وهي إعادة لاتخدم المثل ولاتطورفيه إذ لاتضيف شيئًا، والاستدعاء نفسه لايخدم الموقف وقد جاء في تعليق من الخارج وفيه قدر كبير من التعقل والوعي مما لايتفق والموقف.

٢ - يلح شوكة الداهوك على خطبة أميرة لنفسه كما يلح عليها سمير الأدهم ويعلق السارد فيقول: «وكانت خطبتها لحسان قد قطعت قول كل خطيب»(ص٢٩١) يستدعي التعليق المثل العربي القديم «قطعت جهينة قول كل خطيب» وقد قام الاستدعاء على إعادة صياغة المثل، وتبدو الصياغة مناسبة للموقف ومعبرة عنه، ولكنها لم تكسبه قيمة جديدة.

٣ - تفتتح شاهة محلاً لبيع الألبسة ويتزوج مأمون زميلته المهندسة وتتزوج نور طبيبًا فيعلق السارد «اكتملت الأثافي الثلاث بزواج نور من طبيب»(ص١٥٨)، يستدعي التعليق المثل العربي القديم: «ثالثة الأثافي» ويقوم على إعادة صياغته ، وتبدو الصياغة مناسبة للموقف، ولكنها لم تكسبه قيمة جديدة.

٤ - ترزق شاهة بالبنت الثانية فتحقد عليها حماتها، ويعلق السارد «كانت البنت الثانية قد جاءت ضغثًا على إبالة فلم تعد حماتها وبنت حماتها تخاطبانها إلا بوجه النحس»(ص١٠٢) التعليق يستدعي المثل العربي القديم، «ضغثًا على إبالة» والضغث قبضة من حشيش مختلطة

الرطب باليابس والإبالة الحزمة من الحطب، ويضرب لوقوع مصيبة إثر أخرى، وقد صيغ في صلب الجملة ولكن مع ذلك يبدو نافرًا لوعورة ألفاظه، وماهو من الأمثال العربية القديمة المتداولة إلى اليوم، ويبدو مجلوبًا لا روح فيه ولا دفء وقد ورد من الخارج في تعليق السارد.

٥ - يفر شوكة الداهوك بأربعة عشر مليار ليرة سورية هي أموال الشركة المساهمة ويتجمع المودعون يطالبون أبا دياب بأموالهم فينصح له أبو سامي بالهرب قائلاً: «فرَّ إذن، انج بنفسك سعد»(ص٧٢٣) ويستدعي القول المثل العربي القديم: «انج سعد فقد هلك سعيد» والاستدعاء يقوم على صياغة جديدة موجزة ويبدو مناسبًا للموقف وقد جاء في حوار حي بين أبي سامي وأبي دياب، ولكن يظل المثل غريبًا لأنه غير متداول، وأنّى لأبي سامي غير المثقف أن ينطق به؟، وأنّى لأبي دياب أن يفهمه، وهو الأمّي؟.

٦ - تحاول أميرة أن تعزي أمها بعد أن طلقها زوجها فتجيبها الأم«لكن ما ينفع المرأة أن تربح الدنيا كلها وتخسر رجلها؟»(ص١١٤) يستدعي جواب الأم المثل القائل: «ماذا ينفع المرء أن يكسب العالم ويخسر نفسه؟» ويقوم الاستدعاء على صياغة جديدة لاتخلو من ذكاء وهو مناسب للموقف وقد جاء في حوار حي متبادل بين أميرة وأمها، ولكن أنى لأم دياب الفلاحة الأمية أن تنطق بهذا المثل؟؟ وبذلك يبدو المثل مجلوبًا وعلى قدر غير قليل من النتوء.

٧ - سمير يلح على أميرة يريد خطبتها لنفسه وهي تراوغه محاولة التخلص منه بلطف، وهو يصبر متعلقًا بالأمل، ويعلق السارد «الزمن لايهم ما يهم أن ينجح.. أن يضحك أخيرًا ومن يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا» (ص٢٧٨) يستدعي تعليق السارد مثلاً أجنبيًا وهو «من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا» ويعني العبرة بالخواتيم، وقد تم استدعاء المثل بنصه من غير تحوير وهو مناسب في معناه للموقف ولكن يبدو مجلوبًا ويؤكد ذلك مجيئه في تعليق السارد.

٨ - تقول أميرة لأمها: «في زمن السماسرة إما أن تكون سمسارًا أو لا تكون»(ص٩٧) والأوضح أنها تعيد صياغة قول هاملت الذي غدا مثلاً وهو قوله: « أن تكون أو لا تكون تلك هي المعضلة» واستدعاء أميرة لقول هاملت مناسب للموقف ومعبر عن شخصيته وقد قام الاستدعاء على صياغة جديدة لقول هاملت وهي صياغة ذكية رشيقة فيها إضافة فنية وفكرية، وقد جاء الاستدعاء في حوار حي منطوق أكسبه غنى وعمقًا.

وفي الأمثلة السابقة ما يدل على أن

استدعاء المثل ولاسيما العربي القديم أمر لايخلو من صعوبة سواء استدعي بنصه أم عدلت صياغته، وسواء أجاء في حوار حي أم في تعليق السارد، ومن الصعب في الحالات كلها تفضيل حالة على حالة فالقيمة في مدى انسجام المثل مع المواقف والشخصية وقدرته على الانسجام مع بنية العمل الروائي وأن تكون قيمته نابعة من موضعه في الرواية لامن داخله هو وحده، ويستوي في ذلك المثل القديم والحديث العربي والأجنبي.

وثمة أمثال شعبية كثيرة مما هو متداول في الحياة اليومية تم استدعاء أكثرها كما هي منطوقة مع قليل من التعديل لتكون قريبة من الفصيحة ولكن من غير تعديل في صيغتها أو دلالتها، وقد جاء بعضها في السرد وبعضها الآخر في الحوار وتبدو في أكثر الحالات منسجمة مع بنية العمل، ومن الأمثال الواردة على لسان الشخصيات في الحوار:

١- تقول أم دياب لولدها دياب وهو يغريها بالدار الجديدة: «من ليس له جديد ليس له قديم» (ص٤٩)

٢- يعترض أبو دياب على دراسة أميرة فيقول: «هل شهادتك ستخرج لك الزير من البير» (ص٥٢)

٣- تنصح أم دياب لابنتها شاهة بالصبر فتقول: «اصبري، الصبر مفتاح الفرج» (ص٨٢)

٤- يسمع مصباح بالزواج الثالث لأخيه فيعلق ضاحكًا: «شرّ البلية ما يضحك» (ص١٢٠)

٥- يستيقظ أبو دياب ضحى فتقول له زوجته: «مكتوب على ورق الخيار ساهر الليل ينام النهار» (ص١٥٢)

٦- يوصي صدر الدين أعوانه بمزيد من الطغيان فيقول: «إن رأيت الأعمى طبّه» (ص١٨٠)

٧- يتصادف خروج أميرة من النادي مع دخول توليب وأختها دارينا، فتبادرها توليب قائلة: «جاءت الشياطين تهرب الملائكة» (ص٢٥٥).

٨- يسرع أبو دياب إلى أبي سامي ليخبره بهرب شريكه شوكة بالأموال وهو غير مصدق قائلاً: «الماء كان يجري من تحتي وأنا لاأعلم» (ص٣٢٦)

٩- يرسل دياب ثلاثة من أعوانه لضرب ابن عمه مأمون، فيقول له أبوه مشجعًا: حسنًا فعلت، الجوز لايؤكل إلا بعد كسره» (ص١٢٥).

١٠- يدعو شوكة الداهوك أميرة إلى المقعد الأمامي في سيارته، ولكنها تؤثر أن تتركها لأبيها وتختار المقعد الخلفي وتعلق: «العين لاتعلو على الحاجب» (ص٢٤٤)

وتبدو الأمثال السابقة في موضعها من حيث مناسبتها للموقف ودلالتها على الشخصيات الناطقة بها وقد جاء استدعاؤها في الحوار الحي المباشر مما أكسبها الصدق والعفوية وهي بعد ذلك مروية بنصها مع تعديل بسيط ارتقى بها إلى الفصيحة وجعلها تدخل في نسيج البناء الروائي من غير تكلف ولااصطناع، وهي بعد ذلك تؤكد طواعية العربية الفصيحة وقبولها أشكال التعبير الشعبية، وتدل على واقعها ومجتمعها، وتكسب الرواية بعداً واقعيّاً واجتماعيّاً، وتضفي عليها إيحاءات ودلالات اجتماعية ونفسية.

وثمة أمثال أخرى تأتي في حوار مسرود وهي لاتختلف بصورة عامة في نجاحها عن الأمثلة السابقة، ومن تلك الأمثال ماتستخدمه أم سمير في السخرية من كنتها شاهة، فإذا أرادت زيارة أهلها قالت«جينا على سارة لقيناها دوارة» وإذا رأتها مقبلة وهي حامل قالت: «مثل الوز تمشي وتهتز» وحيثما التفتت قالت لها: «رضينا بالبين والبين ما رضي بنا» وإذا ذكر الأولاد قالت: «مسكينة لاجالست النسوان ولا حشت مصران» (ص١٠٣) وقد جاء استدعاء الأمثال كثيفًا ليدل على شخصية الحماة الراغبة في قهر كنتها والكيد لها وهي مرتبطة بالسياق ومنسجمة مع الموقف تغنيه وتغتني به إذ تمثل حالة اجتماعية نابعة من داخل الرواية.

وثمة أمثال أخرى ترد على لسان السارد نفسه في سياق روايته الحدث أو وصفه الموقف أو تعليقه عليه أو تعريفه بالشخصية، وهي أمثال كثيرة أيضًا يروي السارد معظمها بنصها مع تعديل بسيط لتكون قريبة من الفصيحة ولتناسب السياق، ومنها:

١- يروي السارد أن والد سيف الدين كان غنيًّا عندما تزوجت ظفيرة ابنه سيف الدين، ولكن عند وفاة الأب تبين أنه لايملك شيئًا، ويعلق السارد: «لكن ما الفائدة؟ والفاس وقعت في الراس» (ص٦).

٢- يتحدث السارد عن مصباح وأخيه سيف الدين فيقول: «كان كلا الأخوين حريصًا على إبقاء شعرة معاوية بينهما» (ص١٥).

٣- يعلق السارد على التوافق بين زوجة مصباح وزوجة سيف الدين معبرًا عن دهشته فيقول: «مركب الضرائر يمشي ومركب السلايف لا يمشي» (ص٥٧).

٤- يعلق على الموقف السابق نفسه بصورة أخرى فيقول: «من يدري: الذهب يحتاج إلى النخالة والأخ يستغني عن أخيه» (ص٥٨).

٥- يصف السارد حال أسرة سمير الذي تزوج شاهة وما الأسرة عليه من زيف فيقول: «من الخارج رخام ومن الداخل سخام» (ص٧٩).

٦- تكتم أم دياب ما رأت من وصال زوجها مع الخادمة مارينا مؤثرة، كما يروي السارد، «أن تدعها في القلب تجرح ولاتخرج فتفضح» (ص٩٥).

٧- أرادت شاهة أن تردّ على حماتها فضربها زوجها فباتت تعلم، كما يروي السارد معنى الحكمة: «إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» (١٠٣)

٨- تقبل غادة ابنة الأربعة عشر ربيعًا بالزواج من أبي دياب وقد تجاوز الخمسين، فقد تعلمت في مدرسة الحريم، كما يروي السارد، أن « زوجًا من عود خير من قعود» (ص١١٠).

٩- يزور سمير حماته بعد ضياع شاهة ابنتها المطلقة منه فتدهش ثم يتبين لها سبب الزيارة فقد جاء يطلب ميراث الأولاد من أمهم، ويعلق السارد: «وأخيرًا ذاب الثلج وظهر المرج» (ص٢٦٥).

١٠- يرسل دياب بعض رجاله لضرب سمير زوج أخته شاهة فيعلق السارد « من يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه» (ص٢٨٠) كناية عن طاعة أولئك الرجال لولي نعمتهم فهد.

ويبدو استدعاء الأمثلة الشعبية في سياق السرد موظفًا توظيفًا ناجحًا لخدمة الوصف أو تحليل الشخصية أو تقديم الخبر أو التعليق عليه وهي أمثال منسجمة مع بنية العمل الروائي ذي الطابع الاجتماعي وقد جاء أكثرها بصيغته الشعبية مع تعديل بسيط جدًا في بعض الحالات ليكون بالعربية الفصيحة وبقدر كبير من الرشاقة واليسر، ويلاحظ أن معظم الأمثال المستدعاة كانت ذات دلالة على عادة سلبية وقد وظفها السارد للسخرية أو الانتقاد وقد أكسبها هذا التوظيف قدرًا غير قليل من الحيوية وحس اليقظة وكانت في معظم الحالات ملتحمة ببنية العمل الروائي.

❖ ❖ ❖

وتستدعي الرواية في مواضع كثيرة حكمًا وأقوالاً وتعابير وصيغًا شعبية مما هو شائع على ألسنة العامة وتسوق معظمها في أثناء الحوار على ألسنة الشخصيات وتبدو مثل تلك الأقوال معبرة عن الشخصيات وممثلة لبنية المجتمع، وهي في معظمها ذات دلالات سلبية على الواقع، وبعضها وهو القليل يرجع إلى ما هو شائع، ومن الأمثلة على الأقوال القديمة:

١- تحاول نور شي ابنة عمها أميرة عن عزمها على دراسة الطب في أوربة كما تحاول إقناعها بدراسة الصيدلة في دمشق ثم تقول لها وهي تحاورها: «إن أردت أن تطاع فاطلب المستطاع» (ص٧٣) والرواية تسوق القول بنصه من غير تعديل لافي المبنى ولافي المعنى ويبدو مناسبًا في

موضعه وفي قدر جيد من الحيوية والقدرة على الإقناع.

٢- توافق أم دياب زوجها على رفضه دراسة أميرة في الجامعة ثم تخلو بابنتها لتخبرها أن ذلك كان مراوغة منها، وتقول لها: «خشيت أن تشتد العاصفة أكثر فحنيت رأسي لها إلى أن تمر» (٧٠) وكلام أم دياب يستدعي قولاً معروفًا بعد إعادة صياغته، وهو: «إذا هبت العاصفة فاحن رأسك لها» ويبدو المثل مناسبًا في موقعه.

٣- يصف السارد انتظار أم دياب زوجها بأنها كانت: «تنتظر على أحرّ من الجمر» (٢٧) وهو قول فصيح شائع ورد على لسان السارد وهو مناسب للسياق ولكنه يدل على شيء من الوعي.

٤- يصف السارد الغنى الفاحش الذي هبط على أسرة أبي دياب فيقول: «انفتحت لهم أبواب السماء تمطرهم ذهبًا وفضة» (ص٥٠)، والوصف على لسان السارد وهو يعيد صياغة قول شهير لعمر بن الخطاب حين رأى رجلاً في المسجد يدعو الله أن يرزقه فأمره بالنهوض إلى العمل ثم قال له: «إن السماء لاتمطر ذهبًا ولافضة» واستدعاء القول يفضح البنية الاقتصادية للمجتمع وينسجم مع البنية الفنية للرواية.

٥- يصف السارد الغرفة التي قتل فيها فهد حيث الشرطة ورجال التحقيق ثم يقول: «الكل ساكن كأنما على رأسه الطير» (٣١٠) وهو تشبيه يدل على السكون وقلة الحركة وقد ذكر في خبر قريش لما جمعت رجالاً من القبائل لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وربطوا له أمام باب منزله ولكن غشيهم النعاس ولما خرج مر بهم ولم يشعروا به كأن على رؤوسهم الطير.

٦- يزور سمير حماته أم دياب ليطالبها بإرث أولاده من أمهم شاهة، وتعلم أميرة بمطالبته، فتعلق قائلة: «كلمة حق يراد بها باطل» (٢٢٦) ويبدو التعليق مناسبًا للموقف ولشخصية أميرة المثقفة.

إن استدعاء تلك الأقوال القديمة يدل على استمرار الثقافة العربية حية ومتواصلة خلال أكثر من خمسة عشر قرنًا كما يدل على طواعيتها للفنون الأدبية الجديدة كالرواية مثلاً ويدل استدعاؤه على أن الكاتب يبدع من خلال لغته وثقافته قصد إلى ذلك أم لم يقصد.

وثمة أقوال وتعابير أخرى مما هو شائع على ألسنة العامة، استدعتها الرواية ودخلت في نسيجها اللغوي وشكلت عنصرًا بارزًا في بنيتها الفنية ومنحتها ملمحًا محليًا يميزها وكان استدعاؤها في أشكال مختلفة، في السرد تارة وفي الحوار أخرى، وبتغيير بنية القول أو روايته ببنيته الشائعة ولكن كان الاستدعاء يتم غالبًا بلغة عربية

فصيحة رشيقة، لاتقعر فيها ولاإسفاف، ومن تلك الأقوال والعبارات والتراكيب الشعبية الأمثلة التالية:

٧- تستحث نور ابنة عمها أميرة على إبداء رأيها منكرة عليها صمتها، وتقول: «تكلمي.. أم أن القطة أكلت لسانك» (ص٧٤) كناية عن الصمت.

٨- يحرض دياب أخته شاهة على زوجها سمير الأدهم وحين تحذره منه، يقول: «ليبلط البحر» (ص١٧٤) كناية عن تحدي الآخر والوثوق بأنه أعجز من أن يستطيع فعل شيء.

٩- يطلب دياب من أخيه فهد فجأة أن يسدّد له مبلغًا ضخمًا كان قد أقرضه إياه فيعلق فهد: «لايمسكني إلا من اليد التي توجعني» (ص٢٦٠) كناية عن الإحراج بأمر مزعج جدًا.

١٠- يعرض سمير على أميرة الزواج منه بعد فقد أختها في سيريلنكا ثم يهددها ويتوعدها، فيطمئنها أخوها دياب قائلاً يصف سمير: يظن أنها مقطوعة من شجرة؟!» (ص٢٨٠) كناية عن وجود من يحميها ويدافع عنها.

١١- يتحدث السارد عن ذهاب مصباح إلى بيت أخيه ليصارح زوجته بزواج أخيه من امرأة أخرى» وفي نيته أن يجعل كل شيء بينهما بساطًا أحمديًا» (ص١١٦) يكني السارد بالبساط الأحمدي عن الصراحة والبساطة والعفوية والوضوح.

١٢- ينكر أبو دياب حاجته لأخيه قائلاً في حوار مسرود: «أنا لم أعد بحاجة إليه بل هو سيكون بحاجة إليّ وسوف أرد له الصاع صاعين» (ص١١٧).

١٣- يصل مصباح إلى بيت أخيه أبي دياب وقد فرغ للتو مع أسرته من الطعام حتى إنه لم يبق على الخوان شيء فيقول له أبو دياب: «حماتك لاتحبك» (ص٢٩) كناية عن عدم إدراكه شيئًا من طعام.

١٤- ترى أميرة أنه من الضروري الجمع بين العلم والمال فتتكر ذلك أختها شاهة قائلة: «تريدين بطيختين بيد واحدة؟!» (ص٢٦) كنايةعن عدم إمكان الجمع بينهما.

١٥- يعتب أبو دياب على زوجته شكواها منه قائلاً: «لكأنه ينقصك شيء أنت ملكة، بيتها قصر سياج نياح خدم وحشم» (ص١٢٤) وقد تضمن وصفه البيت أربع صفات شائعة على ألسن العامة.

١٦- يتحدث السارد عن تغير المفاهيم فيستدعي ما هو شائع على الألسن من أقوال حيث يقول: «شعارات العالم الحديث.. اللهم أسألك نفسي، هذا لايعنيني، لاعلاقة لي بالأمر» (ص١١٦).

١٧- كذلك يعبر مصباح عن المفاهيم السائدة فيقول: «معك قرش تساوي قرشًا معك مليون تساوي مليونًا» (ص٧١).

١٨- يصف السارد إعجاب سمير بشاهة فيقول: «لم يكن يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، أعجب منذ النظرة الأولى بشاهة» (ص٧٥) كناية عن غروره وإعجابه بنفسه وعدم رضاه عن أي شيء.

١٩- يحاول أبو دياب إقناع أم دياب بقبول الطلاق ليتزوج أخرى واعداً بعدم التخلي عنها فتجيبه قائلة: «تأكلني لحمًا وعند العظم ترميني» (ص٢١٩) كناية عن تخليه عنها عند تقدمها في العمر.

٢٠- تدهش أميرة لدى سماعها عن الأموال التي يملكها أبوها وشركاؤه وتسأل كيف جمعوها فيجيبها أخوها فهد مرددًا القول الشعبي «هذه حارة كل من يده له» (ص٢٥٦) كناية عن التسلط والبغي.

٢١- نقلت أميرة ببراءة وعفوية ومن غير قصد أو سوء نية بعض كلام زوجة عمها إلى أمها فكنى عن ذلك السارد بقوله: «حملته أميرة باردًا ساخنًا إلى الشقة الجديدة» (ص٢٧).

٢٢- يفخر دياب بأنه نال امرأة بعد أن دفع لها خمسين ألف مارك فيقول معبرًا عن ذلك «أردت أن أكسر رأسها أمرغ أنفها في التراب» (ص٢٢٧).

٢٣- يتخلى مصباح لأخيه أبي دياب عن حصته من الأرض التي ورثاها من الأب قائلاً له «هي حلال زلال لك فقط أريدك أن تقف على رجليك» (ص١٤) مستدعيًا عبارتين متداولتين على الألسن تكني الأولى عن التنازل الكلي والتسامح المطلق كما تكني الثانية عن القدرة على الانطلاق ومباشرة العمل للكسب.

٢٤- يتحدث السارد عن سداد فهد القرض الذي كان عليه لأخيه دياب ويكني عن انتهاء الخصومةالتي كانت بينهما بسببه فيقول: «وصافي يالبن» (ص٢٨١)

٢٥- يكني سمير عن رغبته في الزواج من أميرة مستخدمًا تعبيرًا شائعًا فيقول لها «نضع جبناتك على خبزاتي» (ص٢٧١).

والأمثلة بعد ذلك على الألفاظ والجمل والعبارات والأقوال المتداولة على ألسن العامة في الحياة اليومية التي استدعتها الرواية كثيرة جدًا وهي تشكل ملمحًا بارزًا في الرواية، وقد استطاعت الرواية توظيفهاأحسن توظيف فأدخلتها في النسيج اللغوي بمهارة محطمة الفرق بين الفصحى والعامية فهي ألفاظ وتراكيب وعبارات عامية وشائعة ولكن الرواية قدمتها في صيغ فصيحة لاتكلف فيها ولامبالغة وقد جاءت معبرة عن مجتمع الرواية ودالة على تركيبته الاجتماعية

والأخلاقية والثقافية ومنسجمة مع الشخصيات وكان استدعاؤها من سبل شتى تارة في الحوار الحي أو المسرود وتارة أخرى في كلام السارد، وبصورة عامة كان استدعاؤها في الحوار أكثر نجاحًا من استدعائها في السرد، وبعض تلك الجمل والتعابير ترجع إلى أصول عربية فصيحة قديمة وهي تؤكد استمرار الثقافة العربية واتصالها عبر القرون والأجيال، كما تدل على إمكان توظيفها بنجاح في جنس أدبي جديد كذلك تدل على إمكان تعبيرها عن قضايا معاصرة مما يعني عمق دلالاتها واتساعها الإنساني، ومن جهة أخرى تدل على ثقافة السارد واتصاله بطبقات الشعب كما تدل على قدرته على توظيفها بنجاح في عمله الروائي.

ولئن دلّ ذلك كله على شيء فإنه يدل على خدمة التراث الشعبي للعمل الروائي وإمكان دخوله في بنية الرواية ليكسبها بعدًا واقعيًا ويمنحها ملمحًا من ملامح الأصالة ويساعدها على الانتماء إلى الشعب في ثقافته ومشكلاته وقضاياه، ولكن مما لاشك فيه أن هذا لايتم تلقائيًا ولاآليًا إذ لايكفي أن يحشد الروائي في روايته أشكالاً من الثقافة الشعبية ليحقق الأصالة ويحوز عمله بالانتماء إلى الأمة والتاريخ، بل لابد من تلاحم العناصر كلها بعضها ببعضها الآخر ضمن رؤية إبداعية واعية وخلال أنساق من الفكر والفن والتوهج والإبداع متواشجة متلاحمة، ويمكن القول إن قدرًا جيدًا من هذه الشروط قد توافر في رواية أفراح ليلة القدر.

❖ ❖ ❖

ويمكن أن تعدَّ الرواية كلها بصورة من الصور استدعاء لقصة قابيل وهابيل، فإذا كان قابيل المزارع قد بغى على أخيه هابيل الراعي فقتله وأخذ دوره التاريخي فإن سيف الدين أبا دياب السمسار والمتاجر بأموال الناس قد بغى على أخيه مصباح المثقف والأستاذ الجامعي فسلبه مكانته الاجتماعية وأخذ دوره ونافسه حتى في لقب دكتور عندما اشتراه أبو دياب بماله، كما حظي مثله مثل قابيل بالمتع والملذات من المرأة، والمصير في الرواية لايختلف عن المصير في قصة قابيل وهابيل، فلقد عرفت حقيقة قابيل وهو مكروه إلى اليوم وقد غدا رمزًا للمجرم الأول وأصبح هابيل رمزًا للنقاء والطهر والصفاء، وكذلك كان مصير أبي دياب فقد سقط سقوطًا مروعًا وغدا مثالاً للتهالك على المال والمتع وسوء العاقبة والمنقلب والمصير، ولن يتمنى أحد أن يكون مثله، وظل أخوه مصباح بنعمة لم يمسسه ضر، وسوف يظل مصباحًا يعلم الأجيال قيمة العلم والتعقل وحب الآخر، ولن يفقد دوره التاريخي والحضاري، وكُثُرٌ هم الذين سيتخذونه قدوة وليس ابنة أخيه إلا واحدة من هؤلاء ولكنها لن تكون الوحيدة.

قراءة في تجربة اعتدال رافع القصصية

د. يوسف حطيني ❖

«الإنسان كلمات.. يمشي ويضحك بالكلمة ويغني ويكبر بها.. ويُقتل أيضاً» رحيل البجع، ص١٥. اعتدال رافع واحدة من أهم كاتبات القصة القصيرة في سورية والوطن العربي، ماتزال تجتهد في تقديم رؤيتها للعالم، من خلال الكلمات التي تكبر بها وتغني وتعيش لها، من خلال خمس مجموعات قصصية، هي حصيلة إنتاجها حتى كتابه هذه السطور(١)، وهي في كلماتها توزع رؤاها، على الفرد والمجتمع، على الرجل والمرأة في برهتي الانتصار والانكسار، على الاجتماعي والسياسي: الوطني والقومي، وهي فيما تكتب تنتقد المظاهر السلبية التي تمتهن كرامة الإنسان، وتعزّز الإيجابي فيه.

(❖) د. يوسف حطيني: باحث من فلسطين، يكتب القصة والنقد الأدبي، له عدة أعمال منشورة

الموضوع الاجتماعي:

تكشف اعتدال في قصصها عددًا من العيوب الاجتماعية، فتبين الانحياز الاجتماعي للمولود للذكر، وتقدم في قصة «النذر» شخصية الجد الذي كان يهنئ الجدة على ولاداتها الأنثوية بطريقة مبتكرة: «مسكينة جدتي سارة.. أنجبت سبع بنات، وعقب كل إنجاب كان جدي ينهال عليها ضربًا بهراوته الغليظة، لأنه كان يريد صبيًّا ذكرًا يحمل هويته وهمومه ومعوله »مدينة الاسكندر، ص١٥.

ولاتتساق القاصة وراء اتهام الرجل وحده في تكريس وضع اجتماعي يعوّق تحقيق كرامة المرأة وتميزها، بل تتهم البنية الاجتماعية بشرائحها المختلفة، حتى إنها تتهم المرأة بالخضوع للسلطة الاجتماعية، وممارسة دور المرأة المقموعة القامعة في الآن ذاته، فالمرأة التي قمعتها السلطة الذكرية ترتضي لنفسها أن تلعب دور القامع لأحلام الفتاة الصغيرة، التي ستكبر في يوم من الأيام لتمارس الدور ذاته، فالأم/المرأة الكبيرة في قصة «عندما كانت صغيرة» تمنع الصغيرة من ركوب الدراجة مثل الأولاد، وتضع حدًّا للحد الأدنى من المساواة الذي تتيحه مرحلة الطفولة:

«صادفتني المرأة الكبيرة وأنا أهم بالركوب، شدتني من أذني وجرتني إلى البيت، كانت تسرع في مشيتها، وأنا أحاول اللحاق بها مثل جرو صغير يئن من الألم.

زجرتني بقسوة:

- لا حق للبنات في اللعب »رحيل البجع، ص٥.

ولا تتوانى القاصة عن انتقاد شعور المرأة بالدونية نتيجة عقدة البلوغ، إذ تخافه الأنثى على عكس الذكر الذي يتلقاه باعتزاز بالغ. وفي قصة «رقية» تفاجأ البطلة بطوفان الدم، فتشعر أنها أمام موتها، وإظلام حياتها الذي لا ينقذها منه منقذ:

«ذات صباح قبل أن انطلق إلى يومي، وجدت بقع دم على سروالي، أخافني الدم! وأظلمت الدنيا في عيني». امرأة من برج الحمل، ص٩١.

وثمة لعنة أخرى ترافق لعنة البلوغ، أو الاتجاه نحوه، خاصة عند الفقراء الذين لا يستطيعون شراء الثياب وغيرها من مستلزمات الحياة الكريمة، قصة »رحيل البجع« تقدم صبحة التي تنحدر من أسرة فقيرة وتضيق عليها صدريتها المدرسية، ويصبح جسدها الذي كان صديقًا حتى وقت قريب، كائنًا آخر يطالب بحقه في التمرد على الثياب التي ضاقت على تفتحاته واستداراته:

«دائمًا تذهب صبحة إلى مدرستها (عالريق). وهي تلبس صدريتها على لحم جسمها (...) لم يكن لها صديق وفي غير جلدها، يلمها ويضمها دون مقابل، يستر جوعها وصراخها، وأحلامها، ولكنه في الأيام الأخيرة تمرد» رحيل البجع، ص١١٩.

وإذ تعطيها معلمتها قميصًا وسروالًا وكنزة وجوارب صوفية وقضامة وملبسًا، تخاف الأم على الفتاة المتجهة نحو النضج وتستقبل صبحة بـ: «أيـن كنت ياعاهرة؟» ص١٢٢.

وفي قصة «رعاف القرابين» تطرح القاصة قضية البلوغ من وجهة نظر أخرى، وتفضح أولئك النساء اللواتي يسهمن في الإساءة إلى إنسانية المرأة، إذ يبدو البلوغ مناسبة للاهتمام بجسد الفتاة حتى تصبح بضاعة رائجة في سوق النخاسة الذي ينتظرها، مؤكدة على أن رأس المال الوحيد للمرأة هو جسدها، وتقف المرأة في ذلك ضد نفسها وإنسانيتها:

«وأذابت لها ملعقة كبيرة من أضراس النشاء في كأس ماء، وأرغمتها على تجرعه:

- اشربيه حتى تصير بشرتك في نصوع الثلج (...)

- تأرجحي بحافة السقيفة كي تسرقي من النخلة طولها» رحيل البجع، ص ص١٣٨-١٣٩.

غير أن اتهام بعض نماذج المرأة بالانكفاء عن الإسهام في معركة التحرر الاجتماعي لا يعني تبرئة ساحة الرجل بأي حال، إذ كثيرًا ما تفضح الازدواجية التي يمارسها خلال ضبط سلوك الآخرين والدخول في ازدواجية السر والعلن والانسياق وراء البغاء السري بأشكاله كافة، إذ لا يرعوي الرجال المحترمون في قصة «هستيريا من الزهري» عن التمتع بجمال جسد شمسة قبل أن يضربوها:

«يومها ظهرت (شمسة) عارية في ساحة القرية وعلى الأسطحة. عرضت قدها وطولها وعرضها ومفاتنها على الملأ من الرجال الذين، بعد أن تمتعوا، استغفروا الله وأخذوها إلى الجرد، وأوثقوها بالحبال، وانهالوا عليها ضربًا بالبلطات لطرد الأرواح الشريرة منها» الصفر، ص١٠٨.

وفي قصة «طقوس الجسد» يمارس عبد الله ذلك النوع من البغاء السري إذ لايتوانى عن مشاهدة الأفلام الجنسية، وتحصيل المتعة الحرام، وفي حين أن المتعة الحلال ليست أمرًا بعيد المنال:

«بحلول المساء يذهب إلى محل

الفيديو، يستأجر أفلامًا من النوع الثقيل، يدسّها في جيوبه وعبه ويتورّم من الانتفاخ! وفي حلكة الليل حيث يعلو نباح الكلاب ومواء القطط، يكون عبد الله غارقًا حتى شوشته مع بطل الفيلم، وهو يلهث مع شاشة التلفاز ويقّبشها!

وعبيدة زوجته، تغط بشخيرها في الغرفة المجاورة» يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٧٨.

وقد تصل في انتقادها إلى السلفي الذي يتعامى عن العيوب الاجتماعية كافة، ويبرئ الجهل والمرض والعجز، ولا يتهم إلا المرأة التي يجعلها المجتمع في قصة «البصمات الدامية» مشجبًا يعلق عليه هزائمه المنكرة:

«تسلل غرباء، أضرم الوهجُ نيرانًا، وقتل الغرباء النواطير، ونهبوا الأراضي والمحاصيل. علل الناس ما حدث بغضب الآلهة عليهم، ولا موا أنفسهم لتقصيرهم في عبادته (...) وحمّلوا سياق النساء الوزر الأكبر: لو لم تكشف المرأة عن ركبتها، وتظهر بطة ساقها، لصانهم الله وحفظوا أراضيهم وأعراضهم وغلالهم» الصفر، ص٩٨.

❖ ❖ ❖

الموضوع الوطني:

وثمة موضوع يشكل إيقاعًا سائدًا من إيقاعات قصص اعتدال رافع غير الموضوع الاجتماعي، ونقصد هنا الموضوع الوطني وتجلياته القومية في الماضي والحاضر، ويمكن في الموضوع الوطني أن نشير إلى قصة «الدرب إلى المجرة» التي تؤرشف لجزء من القمع الذي كان يمارسه المستعمرون الفرنسيون ضد المواطنين السوريين، وضد لقمة عيشهم، كما تؤرشف للبطولات الوطنية، إذ يستذكر الراوي قصة كيسي الطحين اللذين كان أبوه ينقلهما عبر الحدود السورية اللبنانية:

«اعترض طريقه عساكر الفرنساوية، وعاملوه بقسوة وشراسة. ولم يحترموا حبه ونخوته. صادروا بغله والطحين (...) استل خنجره وطعن عسكريًا وأرداه قتيلًا. ولم يتمكن أبي من طعن بقية العساكر وإيصال الطحين لنا لأنه كان وحيدًا وصرعوه بأكثر من بندقية» امرأة من برج الحمل، ص ٢١-٢٢.

وحين تتصدى القاصة للحروب التي شهدتها الساحة اللبنانية تكشف جانبًا مهمًا من القمع الذي يمارسه الإسرائيليون ضد أبناء الشعبين الفلسطيني واللبناني. وفي الواقع إن مجموعة «الصفر» تضم

أكثر من قصة حول الحرب اللبنانية، والمآسي التي عاناها لبنان على يد المحتلين الإسرائيليين، وعلى يد الطوائف التي أرادت أن تحتكر الدين، وفي قصة «الروزنامة» إدانة مزدوجة للذين ذبحوا في مرحلة سابقة كل ما هو إنساني ودافئ:

«أخذت المرأة جسدها إلى النافذة التي شلع درفيتها الغزو وحروب الطوائف» الصفر، ص٧٩.

❖ ❖ ❖

الموضوع الإنساني:

والموضوع الرئيس الثالث الذي شغل القاصة في سنوات خصبها الإبداعي كان الإنسان الذي تنفث بآلامه وآماله، صورت فقره وتجليات هذا الفقر المختلفة التي يمكن أن تبلغ حداً من الوجع الذي يفوق احتمال المخيلة. في قصة «الجنين الذي ذبح أمه» تطرح الكاتبة تجلياً قاسياً من تجليات الفقر، إذ تضطر الأمّ التي تعيل خمسة أطفال، أن تجهض حملها السادس، عن طريق زرع بيت رحمها بشروش الخبيزة، وشرب مغلي الكينا، ثم - إثر عناد الجنين - استخدام سيخ اللحمة للتخلص منه، وحين يلتقط الأولاد أخاهم القتيل ليدفنوه يعودون على صراخ جارتهم وعويلها ليفجعوا بموت أمهم:

«كانت فاطمة تطفو فوق بركة دم، شاحبة» امرأة من برج الحمل، ص٧٣.

وتقترب القاصة من فكرة وحدة الوجود التي رسخها عدد من المبدعين على مر العصور الأدبية، إذ تقيم علاقات مميزة مع الكائنات الأخرى من مثل هذا النسق الإنساني الذي يختزل المقولة السابقة:

«لما غاب الصرصار عن ناظري شعرت بالوحشة»، ص٤٧.

وتقدم القاصة بعض اللقطات الإنسانية الجميلة، وتظهر لنا خلال ذلك براعة الالتقاط، إذ تقدم أدق العواطف الإنسانية وأرقها، كما فعلت في قصة «الإصبع» التي تتحدث عن عامل تنظيفات ينتظر إحالته على التقاعد، ومن ثم إحالة أحلامه على التقاعد أيضاً:

«لو تأخر مجيء العقد السادس لاستطاع أن يحقق الحلم، ويكمل بناء الغرفة التي بدأها منذ زمن»، مدينة الاسكندر، ص٢٧.

وعلى الرغم من سمة التشاؤم التي تسم غالب إنتاجها فإن القاصة لا تفقد فيما تقدمه تلك السمة التفاؤلية التي تؤكد إيمانها بحتمية انتصار الإنسان على مايجابهه، لأنها تؤمن بمقولة التجدد التي تستمدها من الطبيعة، ومن البشر أيضاً،

ولعل قصة «الروزنامة» تجسد هذا الإيمان. إذ تملأ الطفلة الصغيرة المشرقة فضاء الأم العجوز الآفلة بالماء الذي هو رمز الأمل والحياة:

«ضمت رنا الأبرة وقصرت خيطها، عقدت المرأة الخيط عند نهايته، وعندما شكّت أول غرزة في ثوب رنا الجديد، تسربت إلى مهجتها قطرات ماء». الصفر، ص٨٠.

❖ ❖ ❖

الزمن القصصي:

إن القصص التي تقدمها اعتدال رافع قصص محشودة بالزمن - والمكان أيضًا -، وهي تسعى إلى تأطير ذاتها وقصصها، في مكان ضيق نسبيًا لا يخرج عن حدود الواقع العربي والهموم العربية، وزمن يعشق الالتفات الحاد نحو الماضي، وكأن الالتفات إلى الماضي قدر قصصها، بل وقدر النثر الحكائي والأدب العربي عمومًا، إنها قصص زاخرة بالاسترجاعات الكثيرة، المحددة وغير المحددة، زاخرة بالأحلام التي يجسدها الـ (ما وراء)، أما الروزنامة التي تؤرخ للحاضر والمستقبل، فهي غير ذات فائدة في ظل واقع الحرب والاستلاب، تقول الراوية في قصة «الروزنامة»:

«لا ضرورة إلى الروزنامات في توقف الضحك والمواعيد وغياب الأحلام. في نضوب سيولة المهج والضوء، يبطل الزمن وتغادرنا الأمكنة». الصفر، ص٧٤.

وباستثناء صورة المستقبل التي تمثلها رنا في هذه القصة، فإن المرء قل أن يعثر على مثل هذا التوجه نحو أي شكل من أشكال الاستشراف.

وكثيرًا ما تلجأ القاصة إلى الاسترجاعات الخارجية المحددة التي تعود إلى ما قبل زمن الحكي الأول من مثل الاسترجاع الذي يسوقه بطل «الدرب إلى المجرة» وهو يستحضر ذكريات والده الشهيد:

«في تلك الليلة البعيدة عني والمحفورة على جبيني وعظم الجمجمة، تسلل أبي مع كيسين من الطحين ويفله عبر الحدود السورية إلى لبنان. اعترض طريقه عساكر الفرنساوية...» امرأة من برج الحمل، ص٢١.

ويبدو الحنين إلى الماضي تشوقًا للذاكرة الشعبية وانطلاقًا نحو البراءة الأولى، فالماضي على الرغم من قساوته يبقى جميلًا، وحين تغيب صورته الواقعية تستحضر اعتدال صورته الوجدانية التي تخبئها بين خفقات قلوب شخصياتها، وفي الذاكرة الموغلة في القدم:

«لو كان بيتنا حقلًا ياعبد السميع، لا أبواب له ولا حيطان كان يستيقظ النبات فينا ويكسونا الندى، ويكبر الأولاد على راحتهم وهم يخوضون في السواقي والجداول والأنهار، يعدون مع الظباء والأرانب، ويصطادون الثعالب والذئاب، ويتدثرون بفرائها، اقطع سُرّة جنيني بالحجر إذا ما داهمني المخاض، وأنا في الحقل...» الصفر، ص١٤.

وفي محاولة منها لتنويع تقنيات الأداء الزمني تلجأ القاصة إلى تجزيء الزمن، عبر التلخيص اليومي الذي تلجأ إليه الشخصية الرئيسة في قصة «المخاض» إذ يبدو مطلع يومها مقسمًا على النحو التالي:

«بدأت طقسك اليومي بخزي الشيطان والبسملة، وأنت ثقيلة بجنينك التاسع يحبو إلى شهره التاسع، انسللت إلى المطبخ لإعداد الترويقة» الصفر، ص١٢.

كما يبدو التبئير الزمني واحدًا من الخيارات التنويعية التي تلجأ إليها، ويغدو زمن الحرب واحدًا من الأزمنة التي تؤرق القاصة على مدى مجموعتها الصفر:

«زمن الحرب بلا نهاية.

والعمر محصور بين طلقة وشهقة.

المدينة التي كانت تمنحنا الحياة كلها والضجر كله باتت تسرقها منّا بطرفة عين». الصفر، ص٤٨.

❖ ❖ ❖

المكان القصصي:

وإذا كانت اعتدال رافع لا تعير بناء المكان الأهمية الكافية، ولا تعول عليه إلا ما ندر في بناء الشخصيات وتطورها ونهاياتها، فإن من حقها أن يشار إلى أنها – حين تقدم المكان – تهتم بألوانه اهتمامًا بالغًا ومثيرًا كما تهتم بأثاثه وبنائه بناء متميزًا، وتعمد خلال ذلك إلى التشويق بطرق مختلفة، كالإيحاء بإمكانية فتح المغلق في قصة «وصية القوقعة البيضاء»:

«صفعت الريح باب مخدعها وفتحته على مصراعيه. شرد الثلج إلى داخل المخدع وابتل الحصير والبساط وتحللت ألوانه. كما أصاب البللُ الصندوق الذي كانت لطيفة قد وضعته في صدر المخدع من زمان، وخبأت فيه أسرارها وحنينها» الصفر، ص٤١.

ولعل استخدام الألوان أن يكون أبرز إبداعات اعتدال في التأطير المكاني والتأثيثي، ويمكن هنا أن يشار إلى قصة «الكيمونو الأخضر» التي يرمز فيها هذا اللون إلى الحياة حتى إن القارئ يحس بعبوس الحياة لدى احتراق الكيمونو أكثر

معا يحس به لفقد الأم، لأن موت الأم لايعني انتهاء الحياة، بل تجددها من خلال ابنتها:

«ماتت أمي وبقي كيمونوها الأخضر معلقًا في الخزانة». يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٧٣. أما عندما احترق في نهاية القصة، فإن هذا الاحتراق جاء مؤكدًا موت الاخضرار رمز التجدد في الطبيعة والكائنات.

وتؤكد القاصة كذلك الدلالة الموروثة للون الأخضر، في قصة «البصمات الدامية» إذ يرد النسق القصصي التالي:

«وأحس بأهميتي من خلال ورقتي الخضراء التي قبضت عليها أحلامي يومًا، وعرشت في الذاكرة والقلب». الصفر، ص١٠٠.

وكذلك فإن القاصة تشير إلى دلالة اللون الأسود، وإن كانت لا تخرج أيضًا عن دلالته المألوفة، فالأسود في قصة «حارس القطيع» يعني الموت لذلك الكلب المخلص الذي كوفئ لدى هرمه بقلب أسود وبارودة سوداء:

«قرّب صاحبه فوهة البارودة السوداء من صدغه ثم ضغط على الزناد». الصفر، ص٨٦.

وتعدّ قصة «بكاء الحواس» قصة الوان بامتياز، إنها قصة اللون الأبيض بشكل خاص، ذلك اللون الذي يصبغ بداية القصة ونهايتها، فالنسق الابتدائي يجيء على النحو التالي:

«الحليب أبيض والفل والياسمين والثلج ثوب العروس أبيض... والكفن.

الغيوم الصيفية بيضاء، وعبق الوديان وأجنحة الملائكة وحيطان بيت جدي». يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٦٩.

وتأتي النهاية بيضاء، والرؤية ناصعة تمامًا فيما يتعلق بالأيديولوجية الاجتماعية التي تحملها القاصة التي اعتادت أن تنكأ الجرح وتضع عليه ملحًا، حتى تقوّي الإحساس به، إذ تتهم المرأة أنها تقف ضد نفسها في كثير من الأحيان حين ترضى بالمرتبة الأدنى منذ الطفولة المبكرة، على الرغم من المساواة التي يوفرها المجتمع الشرقي، إلى حد ما، بين الذكور والإناث في تلك المرحلة العمرية:

«عندما طلبت مني معلمتي وأنا في الأول الابتدائي أن أذكر لها مثالًا عن البياض - كان درسنا الأول عن الألوان - قلت لها وأنا أغمض وأتذكر:

- رِجْلُ أبي أكثر بياضًا من وجهي». يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٧٠.

أما فيما يتعلق بالتشكيل النصي الطباعي فإننا يمكن أن نشير إلى الاختيار الناجح لمعظم عناوين قصصها ، وربما كان عنوان قصة «الفطام»، من أكثر عناوين القصص نجاحًا في قصصها، فهذا العنوان المتوتر القصير لا يختصر حكاية القصة فحسب، بل يخلقها خلقًا جديدًا، ويستطيع ببراعة أن يصور لنا مأساة الفطام القسري الذي تعرض له منير، في باحة المدرسة، إثر قصف المدرسة بالقنابل الإسرائيلية:

«في هذه الأثناء تمرّ طائرة وتلقي بثلاث قنابل على القرية، كان نصيب المدرسة واحدة منها:

رأس منير الصغير كان منكسًا إلى الأرض، وأسنانه «تكز» على اللهاية بقوة» مدينة الاسكندر، ص٢٣.

وكذلك فإن عنوان «موت نافذة» – الصفر، ص٥٥ – ٦٤ – فهو عنوان ساحر ومناسب ومركز، ويبدو ذا دلالات متعددة، إذ إنه يعني نورًا وشمسًا وحرية، تمثلها بطلة القصة التي أغلق زوجها يوسف النافذة عليها وعلى أحلامها.

❖ ❖ ❖

بناء الشخصيات:

تسعى اعتدال رافع إلى خلق شخصية مقنعة في قصصها، وتعمد إلى جميع الطرق الممكنة لإضاءتها، ويشار هنا إلى أن عماد بناء الشخصية عندها هو تقديم الشخصية من الداخل، ورصد أحلامها وآلامها وتحولاتها النفسية، في حين تبدو الطريقة المباشرة لتقديم الصفات الجسدية للشخصيات قليلة نسبيًا ويمكن أن نأخذ من هذا القليل شخصية مروان، حيث بدا في قصة «عندما كنت صغيرة » على النحو التالي:

«الأستاذ مروان كان مليحًا على العموم، بشرته تميل إلى البياض مع شحوب طفيف. عيناه سوداوان وواسعتان، ونظراته لا تستقر على شيء محدد، فهي دائمة الذوبان، مثل عيون العصافير، وشعره أسود». رحيل البجع، ص١٧.

كما تلجأ القاصة في بعض الأحيان إلى تقديم الشخصية مباشرة دون رتوش ودون مقدمات،وقد تحتل مثل هذه الشخصيات صدر القصص، مثل قصة «وكان اسمي الشاطر حسن» التي تفتتحها بالنسق التالي:

«اسمي الشاطر حسن.

عمري عشرون.

علاماتي الفارقة: تغضن في الجبين، وشرخ في القلب.

عيوبي: الأحلام.». امرأة من برج الحمل، ص٤١.

وقد تلجأ إلى تقديم الشخصية من خلال الحدث دون أن تتعثر اللغة، حتى لكأن دخول صفات جسدية أو نفسية للشخصية يتم بوصفه مفرزًا من مفرزات لغة القصة، لا عنصرًا واجب الحضور في القص، فهي حين تقدم شخصية الأم في قصة «الخوف» لا يبدو تقديم الصفة الجسدية والنفسية هدفًا بحد ذاته، إذ تظهر هذه الصفات من خلال ترابط الحبكة السببي:

«وأحب أمي بشغف، فالفقر والترمل والإجهاد جعلت منها امرأة عصبية تصب نقمتها على رأسي وتحملني خطايا العالم وسوء الحظ الذي يلازمها» مدينة الاسكندر، ص٠٨.

ومثل هذا النجاح في تقديم الشخصية يمكن أن نلمحه في تقديم شخصية «رقية»/ الهبلة في القصة نفسها، إذ يأتي وصفها من خلال الحدث، ويخلص القارئ من الإحساس بوطأة الوصف المجاني للشخصية، وهنا تغدو القامة النحيلة والثياب البالية من ضرورات الحدث ذاته:

«عرفت أنهن يضحكن من قامتي النحيلة، ومن ثيابي البالية المرقعة». مدينة الاسكندر، الخوف، ص٠٩.

وحتى تأتي الشخصيات مقنعة يتم تقديمها من خلال تبرير حبكوي سابق، كما نرى في قصة «الشرخ» إذ يغدو خوف الشخصية الرئيسة مبررًا، وتأتي الصفات النفسية تتويجًا لحدث يدفع بهذه الصفات إلى السطح:

«الطريق إلى حي الصبار كان يمرّ عبر القبور الدارسة وأشجار الصبار الهرمة بدا موحشًا وكئيبًا، وهذا ما حدا بأبي ياسين العائد إلى بيته أن يشهق نفسًا عميقًا ويكلم نفسه بصوت جهوري ليؤنس وحشة خطواته، ويطرد عنه الأرواح الشريرة التي يمكن أن تعترض طريقه» الصفر، ص٦٧.

غير أن هذا لا يعني أن شخصياتها نجت دائمًا من مشكلات البناء، فمشكلة الشخصية في قصة «الخوف» - وهذا ينطبق على معظم بداياتها - أن البطلة «هبلة» ولكنها راوية من الطراز الأول، تفهم ليس في أنماط السلوك الاجتماعي فحسب، بل في علم النفس التحليلي أيضًا، إذ تحلل وتصف عقدتها، وتحلل عقدة أمها، وتفسر تصرفات الطالبات بشكل لا يخلو من ذكاء/ مدينة الاسكندر ص٧-١٢.

أما مشكلة شخصية الحبيب في قصة «البصمات الدامية» فتتجلى في أنها تبدو حينًا رقيقة وخاضعة، فيما تبدو حينًا آخر قاسية، فالكاتبة تبدأ بتقديمها على أساس كونها نموذجًا اجتماعيًا، يفتقر إلى الرومانسية، إذ يقول لها - ولننظر في دلالة التشبيه -:

«- لو كنت مركبة فضائية لخطفتك كما تختطف الشوحة صغار العصافير». الصفر، ص٩٥.ثم تنحرف الشخصية انحرافًا خطيرًا وتغدو نموذجًا من نماذج القمع السياسي الذي تخترق صدره رصاصة صامتة في فوضى الوضع اللبناني، ولاأدري لعل الكاتبة قصدت الصورة: كما تختطف الشوحة صغار العصافير» دون الأخذ بعين النظر لما يمكن أن تثيره هذه الصورة في المخيلة من آفاق تبتعد كل البعد عن الرومانسية.

ويلفت النظر، في تقديم الشخصيات، أن الكاتبة تفيد كثيرًا من الاسم في تقديم الحدث القصصي ورؤى الشخصيات، كما نجد في قصة «آدم لايحب البرتقال»، حيث تكره أسرة عبد الباسط الولادات الأنثوية المتكررة، ويذكر هنا أن مثل هذا الاختيار للأسماء ليس جديدًا كل الجدة، فقد سبقها جمال ناجي إليه في رواية «وقت» (٢)، وإن كنت أفترض أن هذا التشابه يمكن أن يكون من باب توارد الخواطر:

«لأنني البنت الأولى في أسرة عبد الباسط، سموني «بداية» (...) وأختي التي جاءت بعدي بثلاثة بطون، سموها كفى»، وزجروا بطن أمي بشكل غير مباشر ليتوقف عن إنجاب «الأناتي». يوم هربت زينب وقصص أخرى،ص ٩٥.

وفي قصة «نحول الرماح» تذكر القاصة أن والد «راكعة» روى لها عن سبب تسميتها «فهو قد أطلقه عليها لأنها كانت راكعة في بطن أمها، وعندما خرجت إلى الدنيا نزلت من ركبتيها وسقطت على الأرض وهي في وضعية الراكع الذي يتأهب للسجود». الصفر، ص ٩٠.

وواضح هنا أن القاصة تسحب مفهوم الركوع ليشمل جميع أشكال المواجهات المحتملة مع الواقع، إذ إن هذه الحالة رافقتها إلى حياتها، خلال مواجهتها مع السائد الاجتماعي والثقافي والأيديولوجي.

وفي «كنوز الخجل» تطلق القاصة على البطلة اسم امتثال، وهو اسم يوافق مسماه، إذ «صارت امتثال تدلّي برأسها إلى الأرض كلما خرجت من البيت، حتى إن ذقنها كانت تدخل في تجويف نحرها...».رحيل البجع، ص ٢٣.

وتلجأ القاصة أحياناً إلى اللعب بالاسم، وتدليعه، بما يناسب جو القصة العام، وآفاق رؤية الشخصيات ومن قصة «حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج» تغير الأسرة اسم سعيد إلى ديدو، وتعرض اعتدال أسباب هذا التدليع كما تراه الأم بأسلوب لا يخلو من الطرافة:

«قالت أمي اسم ديدو ذو رنة موسيقية محببة. وتدليعي به له فوائد جمة وعظيمة:

أولاً: إنه تدليع مجاني لا خسارة من ورائه.

ثانياً: هو تقليد للذوات الذين يحبون تدليع أبنائهم وكلابهم بنفس الأسماء.

ثالثاً: اسم ديدو يوحي أن صاحب هذا الاسم من الشبعانين المتوردي الوجوه.

رابعاً: إن وقع اسمي الجديد على أذني سوف يبهج نفسي ويفرحها ويجعل حواسي خدرة ومسترخية». امرأة من برج الحمل، ص ٧٨ - ٧٩.

ويلفت النظر في قصص اعتدال ظاهرة بعض الأسماء المكررة مثل اسم يوسف واسم شمسة الذي يتكرر في قصتي «هستيريا من الزهري» - الصفر - ص ١٠٥ - ١١٠، «الجرد الحنون» - امرأة من برج الحمل، ص ٢٩ - ٣٧.

وإذا حاولنا نمذجة الشخصيات التي تقدمها القاصة في قصصها أمكننا أن نجد بعض النماذج الاجتماعية والسياسية، إذ يمكن أن نطالع نماذج مختلفة للرجل والمرأة، غير أن هناك مشكلة في نمذجة بعض شخصيات القصص، إذ تكون هذه الشخصيات هي مجرد نماذج ذهنية غير مقنعة، كما في قصة «الصفر» على سبيل المثال، حيث تبدو الشخصيات / القطط أفكاراً أكثر منها شخصيات تحيا في البيئة القصصية. الصفر، ص ٢٧ - ٣٥.

ومن أشهر النماذج المتكررة في قصصها:

١ - نموذج المرأة المستسلمة:

ولها أمثلة كثيرة جداً تمثل انسحاق المرأة تحت وطأة السلطة الذكرية، وتفانيها في خدمة تلك السلطة، من مثل أم حدو في قصة «العروس» حيث كانت تعد خدمة زوجها عبادة، كما أفهمها شيخ الجامع، حتى عندما كان يرتكب أنواع الموبقات قبل أن يذهب إلى الحج، فهي «تغسل له رأسه وقدميه، تجففه بمنشفة حنانها، كأنه حدو، يتحلل تعبه ويتورد، تلبسه جلابيته بسرعة، لأنها تخاف عليه من لفح الهواء». رحيل البجع، ص ١٠٦.

٢ - نموذج المرأة المتمردة:

ونجد العديد من الأمثلة أيضاً لهذا النموذج، من مثل ما نجد في قصة «الجرد الحنون»، إذ يرد النسق اللغوي التالي:

«تناولت حجرًا وضربت به أبي «القبضاي» لأنه لم يقبلني قبلة واحدة في طفولتي، ولم يبتسم لي في صباي. صفقت من الفرح عندما رأيته يسقط على الأرض مغشيًا عليه من الألم». امرأة من برج الحمل، ص ٣٤.

والجدير بالذكر هنا أن القاصة تصور جرأة الأنثى في طلب حقها في المتعة الجسدية، ولعل قصة «آدم لا يحب البرتقال» التي ترفض فيها البطلة شروط الزواج الأخوي، تمثل هذا النموذج المتمرد خير تمثيل: «أغريه بشتى الوسائل.. لاقتراني، ويذكرني بشروطه قبل زواجه مني:

– نامي إلى جانب أمي.. أو ضعي كيسًا من الماء الساخن بين ساقيك.

أتونات العالم وجمرها.. لاتوازي لمسة من يده!» يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص ١٠١.

٣ - نموذج الأم:

وتظهر صورة الأم في معظم قصصها نموذجية، لا تريد أن تصدق أن الأبناء يمكن أن يكبروا وأن يستغنوا عن أمهاتهم، كتلك الأم التي تتذكر ابنها في قصة «حدث ذات صباح»:

«عشرون عامًا تفصل طارق عن ملابسه المعلقة على الجدار (...) لم ينفصل عن مشيمة روحها، وإن كان لا يبعث لها بالرسائل، أو يهاتفها، تختلق له الأعذار، ولا تلومه على جفوته...» رحيل البجع، ص ١٢٣.

٤ - نموذج الرجل المتسلط:

ثمة نموذج يرصد الرجل في تسلطه وتحكمه، وهو يمكن أن يكون مستعمرًا طاغية، أو بنية اجتماعية منحازة للجنس الذكري كما نلاحظ في قصة «سونيا والجنرال»:

«لأن رغبات الجنرالات أوامر فورية، يدخلون في لب الموضوع مباشرة، لا يلجؤون إلى اللف والدوران عبر مقدمات وديباجات منمقة كتلك التي يلجأ إليها المستلبون لإثبات جداراتهم وأهميتهم. مدّ الجنرال يده إلى صدرها وقرص حلمتها من فوق الفستان» رحيل البجع، ص ٨٧ – ٨٨.

غير أن القاصة التي كثيرًا ما تنتصر للعواطف النبيلة تمكّن سونيا بما تملك من إرادة ومواجهة، من هزيمة الجنرال الطاغية في عقر داره:

«نهض مترنحًا مبهوظًا بإرثه، تناول من مكتبته كتاب «فتوحات خالد بن الوليد»، وكتب عليه: إلى سونيا» رحيل البجع، ص ٨٨.

٥ - نموذج الفارس الشرقي:

ويبدو هذا النموذج قادرًا على كبح عواطف المرأة، وكبح تقلباتها النفسية وحتى عشقها له والاشتياق إلى جسده، إذ يرفض أن يكون وليمة في الفراش، حتى، وإن نامت عارية إلى جانب زوجها الذي يقابل فيض اشتياقها بشخيره، كما حدث في قصة «موت نافذة» إذ إن الزوج المشخر ينام باطمئنان إلى جانب ذلك الجسد الملتهب، ولكنه - حين تقفز زوجته مذعورة إلى النافذة، وهي تصيح حرامي... حرامي، ينتبه إلى أن زوجته عارية، فيمود لممارسة دور «الرجل» المستعد للدفاع عن «الشرف الرفيع»:

«حملتني اليقظة بأهوالها إلى النافذة، أدليت قدمي من بين قضبانها، وناديت:

- حرامي.. حرامي. (...)

نهض يوسف وأدار مفتاح الضوء. شاهدني عارية أدير وجهي للنافذة وثدياي يبرزان من بين قضبانها .. كقمرين.

سحبني من شعري وصفعني:

- ياعاهرة.

وغاب فورًا لمطاردة الحرامي». الصفر، ص ٦٤.

٦ - نموذج الرجل النظيف:

... وفي الحقيقة فإن اعتدال رافع تقدم في قصة «رجل دافئ في موسم البرد» صورة إيجابية للرجل، وتجد المعلم خير معبر عنها لأنه يرفض أن تُخدش صورته وهيبته، كنموذج لا كفرد، وتستخدم طريقة جد مألوفة لكشف أحلامه وآلامه، وإذ تبدأ رحلته إلى المدرسة على الدراجة، بينما يستمر تدفق وعي الشخصية من الداخل، وتنتهي القصة بوصوله إلى المدرسة:

«وصل الأستاذ محمود إلى مدرسته وهو يرشح بالماء.. وكرازيس التلامذة، جافة ودافئة في عبه. ترجّل عن دراجته، وسوى هندامه بيديه. نزع ملقطي الغسيل عن كُمّي بنطاله...» رحيل البجع، ص٧٤- ٧٥ .

❖ ❖ ❖

الحدث والحبكة:

في رصد أشكال تقديم الحدث يمكن أن نتناول أشكال تقديم عناصر الحبكة، مركزين على البدايات والنهايات، كما يمكن أن نشير إلى مدى التوفيق الذي أصابته القاصة في اختيار الأحداث ذات الطابع التشويقي الطريف، ومدى توفيقها في الإقناع بالترابط السببي للأحداث، ومناسبة اللغة للتعبير عن الحدث، وتأثير

أسبقية الفكرة وخضوع القص لها، ولجوء الكاتبة إلى الموازاة بين أكثر من حدث واحد، أو مجموعة أحداث، إضافة إلى استخدام الصيغ الحكائية القديمة والأحلام للتنويع في أشكال تقديم الحدث القصصي.

في تنويع تقديم عناصر الحبكة المختلفة، تلجأ القاصة إلى إقحامنا في نصها القصصي عبر افتتاحيات متنوعة، فقد تلجأ إلى الاعتماد على استهلال استرجاعي، يضع المرء أمام تصور مبدئي لرؤى البطل ومنطق شخصيته وتبرير أحداثه اللاحقة، مثل ما يمكن أن نجد في «الدجاجة» إذ تلجأ القاصة إلى الاستهلال الاسترجاعي التالي:

«مرت ثلاثون.. ولا زلت أتذكّر المشهد:

غرفة في قبو مظلم، لا أثر فيها للنسمة التي تحدثها رائحة الرجل». امرأة من برج الحمل، ص٩.

كما تفيد من المقدمة في تأطير حدود الزمانية والمكانية، فتقدم افتتاحية تستثمر، إلى حد بعيد، البيئة القصصية لإعطاء جو نفسي صالح للدخول في الحدث، وفي تقديم شخصيات ذات صفات محددة، مثلما نجد في افتتاحية قصة «وصية القوقعة البيضاء»، إذ ثمة برد وكانون وثلج، وقرية متداعية تناسب جو الكآبة الذي يحكم النص:

«أنفاس كانون ثلجية.

والقرية كانت عالية عن سطح البحر، بيوتها متداعية وتعدّ على الأصابع، وأشجارها كثيفة وغزيرة مثل شعر الرأس» الصفر، ص ٣٩.

وقد تعتمد الكاتبة على اللغة، وعلائقها المتشابكة في تقديم افتتاحية ناجحة، إذ تبدأ في قصة «هستيريا من الزهري» بافتتاحية جيدة تقوم على التضاد في اللغة، لتقديم الشخصية التي ستشغل الفضاء الطباعي وتحدد رؤى الشخصيات الأخرى من خلالها: «قضى وديع عشرين عامًا في دير الصليب، وتذكرته القرية.

اليوم مات وديع في دير الصليب، وتذكرته القرية» الصفر، ص ١٠٧.

ولا تبدو اعتدال مضطرة دائمًا إلى إيجاد طريقة مناسبة للدخول في الحدث، إذ إنها في بعض الأحيان تكسر هذه القاعدة، وتقحمنا في الحدث مباشرة، كما نجد في قصة «شائعة» التي تبدأ بالحديث عن تلك الشائعة التي سرت بين الناس سريان النار في الهشيم، وراحت تتقاذفها الأفواه:

«منية القلب مجنونة، جنونها خطر،

لا تقربوها لأنها ممسوسة، يوم الخميس وهو موعد حمامها دلقت ماءً مغليًا على الأرض دون أن تتعوذ من الشيطان الرجيم وتبسمل وتستأذن الأسياد، تضايق الجن الذين يسكنون تحت بلاط من حمامها وغضبوا من عبثها وقلة اكتراثها.. ولطشوها» الصفر، ص ٢١.

وتقدم القاصة أحداث قصصها مقترحة ترتيبات مختلفة لعناصر الحبكة، فهي تلجأ أحيانًا إلى الترتيب التقليدي، **وتخترق هذا التقليد** أحيانًا أخرى، وتبدأ، **في عدة نماذج، من نهاية القصة**. وقصة «**الصبية والأخطبوط**» مثال جيد على هذا النوع من الاختراق إذ تبدأ من الحدث الأخير الذي سيأتي تبريره لاحقًا:

«في صباح شاحب من الخريف. وجدت صبية جثة هامدة بين صخور الشاطئ. عرفت من سروالها «الشيت» بأنها هند بنت أم هند». امرأة من برج الحمل، ص ٤٩.

ثم ينتقل الحدث في نسق استرجاعي إلى عمها الذي كانت تناديه بابا، وهو «يستغل غياب أمها، يحاصرها ويقرص حلمتيها. ثم يبطحها أرضًا ويعتليها، وهي تلبس سروالها «الشيت»، ويشخر، ويبقعه باللزوجة والدم»، ص ٥٠.

وتأتي النهاية اللغوية أخيرًا صلة وصل بين الحدث النهائي واللغة الابتدائية:

«تغوص. رغبة ملحة تشدها إلى **القاع، تهبط رويدًا.. رويدًا تأوي إلى كهف** من اللؤلؤ والمرجان، وتنام فوق فرشة من الإسفنج، رخوة.. رخوة.. مثل رغوة الصابون» ص ٥٢.

وهنا يبدو دخول هند إلى حضن البحر نوعًا من التطهير الذي يضمن الموت **النقي هروبًا من أي أخطبوط يسعى إلى** تلويثها بعد ذلك. وتلجأ **القاصة إلى التقنية** ذاتها في قصة «رقية» **إذ تبدأ من السجن**، حيث رقية وحبيبها، وهو ما يمثل الحدث الأخير في القصة:

«كبرت إلى الأربعين. عدت لتوّي من المشوار وأنا ألهث، مسكت أنفاسي، وتذكرت أنني عشت. ياسين في زنزانة. وأنا في زنزانة». امرأة من برج الحمل، ص ٨٧.

أما فيما يتعلق بالنهايات التي تقترحها القاصة لقصصها فهي غنية بالدلالات وهي في أغلب الأحيان تتويج لغوي ودلالي لما يسبقها من قص، غير أنها في بعض نهاياتها تلجأ إلى النهايات المفتوحة، ويلفت النظر في هذا المجال قصة «الشرخ»، قصة تلك النهاية المفتوحة

على أكثر من احتمال: أبو ياسين يسير في المقبرة، وثمة موت، وثمة احتمال موت، وهواجس، وخسوف، وصوت، قد يكون منطلقًا من أحد القبور: «انقذوني أنا حيّ. والسياقات النهائية لا تقدم حلًا، ولا تلوّح بحل:

«ازداد أبو ياسين إصرارًا على سماع صوت عبد الله. استلقى على تراب القبر ونفخ فيه بكل قوّته:

- عبد الله ياصديقي الوفي واللدود أنا أبو ياسين رد علي.

شقّ صوت أبو ياسين سكون الموت مثل مزامير الريح، وهو يكرر رجاءه إلى أن بُحّ. وعبد الله عازف عن الجواب» الصفر، ص ٧١.

ومما يثير المخيلة في أحداث قصص اعتدال رافع ذلك الإصرار على تقديم أحداث طريفة، غنية بالتفاصيل الإنسانية، فعامل التنظيفات في قصة «الإصبع» مدينة الاسكندر، /ص ٢٥ - ٣١ / يحمل كثيرًا من العواطف الإنسانية النبيلة، وفي قصة «تصبحين على خير يامريم» يخاطب أبو حرب زوجته الراحلة مريم، وأكثر ما يثير التعاطف الإنساني مع البطل، كون الموت متجليًا على شكل حيلة جديدة، إذ يعطي الغياب لمريم حقيقة

الحضور الخالدة التي لا يستطيع الواقع أن يلغيها. وفي قصة «تاج من شوك» نطالع حدثًا غير اعتيادي، إذ ترفض الشخصية الرئيسة أن يصبح شعرها الطويل بديلًا عن كل مفاتنها، وترفض أن تختصر مفاتنها به، وأن تصبح امرأة أجمل ما فيها شعرها، وتكره تلك اللازمة اللعينة التي يكررها الجميع، الأم والأب والأصدقاء، وحتى عبد المنان الذي جاء لخطبتها: «أجمل ما فيك شعرك» رحيل البجع، ص ٣٣. لذلك يبدو التصرف الغريب - قص شعرها الذي يحسدها عليه الجميع - مسوّغًا فنيًا ورؤيويًا، على الرغم من جدته وغرابته.

وإذ تلجأ القاصة إلى التقديم الضروري لتبرير منطق الحدث وتصرف الشخصيات فإنها تطيل في بعض الأحيان في هذا التقديم، من مثل السياق الذي يحدد الأشياء التي تتفاعل بها البطلة والأشياء التي تتشاءم منها في قصة «الروزنامة» إذ يستغرق نحو اثني عشر سطرًا حتى تبني عليه سياقًا آخر يستغرق نحو خمسة أسطر:

«سقطت المرآة من يدها إلى الأرض وانطحنت. ومن يومها كرهت الأيام كلها، والرقم (٥) ما عاد يشبه الكعكة. صار جمجمة.. والمدينة الرياضية[3] صارت مقبرة الأنفاس الراكضة إلى الحرية. هذا

ما كان: انكسار النظارات والمرايا، مقدمة لفجائع قصوى لا نهاية لها». الصفر، ص٧٧ - ٧٨.

وكان من الممكن، في تقديري، أن تحذف القاصة نصف الأسطر التي قدمت لهذا المقطع، وتكتفي بالأشياء التي سينبىء عنها، من مثل السياق التالي المأخوذ من القصة نفسها، والذي يجتزئ من ذلك المقطع الطويل، ويستطيع في الوقت ذاته أن يبرر تطور الحكاية:

«في الماضي كانت تتشاءم كثيراً وتتفاءل أكثر (...) وكان تشاؤمها يصل إلى أبعد حدوده في انكسار النظارات والمرايا. وبالمقابل، كانت هناك أشياء جمة تدعوها للتفاؤل، مثل طنين أذنها اليسرى، ورفة هدب عينها اليسرى، (...) ورقم (٥) الذي يشبه الكعكة». ص ص٧٦-٧٧.

وفي بعض الأحيان تغل الفكرة بناء القصة، ويكون ذلك حين تولد الفكرة في ذهن القاصة، ثم تقوم بتفصيل قصة على قدّها، في حين تفترض أن فكرة القصة ولغتها تولدان ولادة متزامنة، أو ملتبسة في أقل تقدير، وهنا تمكن الإشارة إلى قصة «الحب والحرب» حيث يكثر الحوار الذهني الذي يحول الشخصية إلى مجرد فكرة:

«- وإذا لم تقع الحرب؟

- لا بد أن يحدث أي شيء!

- ما رأيك أن تقتلني؟

- سأقتلك قبل أن أذهب إلى الحرب.

- هل تحبني إلى هذا الحد؟

- ربما» الصفر، ص١٠٣.

وتنشط القاصّة خيال القارئ حين تقيم نوعًا من الموازاة بين مجموعة من الأحداث المتشابهة، غير المتزامنة، كما نجد في قصة «النذر» إذ تقوم هذه الموازاة بين شخصية الراوية أم وديع التي نذرت كبشًا للشيخ محيي الدين في حال حملها، وبين الجدة التي تعيش مأساة الولادات الأنثوية السبع، ثم تعيش مأساة موتها المريع، إذ تموت وهي زاحفة في طريقها إلى مقام الست، لوفاء نذرها بعد أن جاءها الغلام الذي عاش يتيم الأم. ومن خلال هذه الموازاة تسعى القاصة إلى إقحام القارئ في توقّع النهاية المأساوية للراوية ذاتها بينما هي تسحب الكبش:

«أحسست رفرفة في بطني شبيهة بالاحتضار، ينقصم ظهري وأصرخ من الألم. يسقط جنيني على الأرض صغيراً بلا صراخ.

يقول الكبش: ماع.. ماع..» مدينة الاسكندر، ص ص٢٠.

وتلجأ القاصة في أحيان قليلة إلى التجديد في بنية النمط الحكائي المألوف عبر تجريب صياغات غير معتادة، كاستخدام الصياغة الشعبية الحكائية القديمة للحكاية، وفي هذا تطوير لطريقة تقديم الحدث، وتطوير للغة السائدة، وتستخدم مثل هذه الصياغة القديمة في قصة «المخاض» التي تحمل حكايتها التالية انتماء شرعيًا إلى نوع أدبي طريف هو القصة القصيرة جدًا، وكأن هذا النص يبدو حكاية داخل الحكاية:

«كان يا ما كان في جنون هذا الزمان صبي في العاشرة من عمره، اسمه مصعب، أرسله أهله إلى الفرن ليشتري لهم خبزًا، كان الفرن معجوقًا بالناس، فاستغل مصعب هذه الفرصة وفرد (دحاحلة) تحت الشجرة وراح ينقفها.. وبينما كان نشوانًا بالأصوات الصادرة عن تدحرجها، تدحرجت إليه شاحنة كبيرة واستقرت دواليبها الأمامية على قسمه السفلي بعدما كسرت الشجرة.. وبقيت يداه في الهواء تنقفان (الدحاحل)». الصفر، ص١٨.

أما في قصة «أبطال من ملح» فإن القاصة تستعين بمحفّز مختلف للأحداث، بالأحلام التي هي خبز الفقراء، إذ تقدم أماني الفقراء محققة على طبق من ذهب، من حلم بالرغيف والسمكة والخاتم السحري:

«ذهب عبد الله في منامه إلى البحر، واصطاد سمكة، عانقته حياة وزرعته بالقبل (...) بينما كانت حياة تنظف السمكة وتنزع أحشاءها، قفز خاتم السلطان من بين أصابعها، وكرج مع الماء. نطّ عبد الله والتقطه من حلاوة الروح قبل أن يسقط في البئر» يوم هربت زينب وقصص أخرى، أبطال من ملح، ص٨٩.

ولأن القاصة لا تعوّل كثيرًا على الحلم، ولأن الواقع لا يعترف بالأحلام توجّه اعتدال نداء ضمنيًا إلى الذين يقتاتونه، لأن الحلم لا بد له من نهاية:

«نهضت في الصباح، أخرجت دفتري من تحت وسادتي، كانت تلون صفحاته بقعة دم متناثرة الشموس». يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٩٢.

وربما نجد أنفسنا مضطرين لتجاوز نص مهم من نصوص الكاتبة، وهو نص «يوم هربت زينب»، يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص ص٧-٦٦. وعذرنا في ذلك أن بناء الحدث، والشخصية فيه هو بناء روائي مليء بالتفاصيل وغير ذلك مما لا يحتمله فن القصة القصيرة، وهو يقع، لذلك، خارج حدود هذه الدراسة.

❖ ❖ ❖

اللغة القصصية:

وتستخدم اعتدال رافع لغة صورية جميلة في معظم ما تكتبه من قصص، وتقيم علاقات تجاور غير متوقعة بين المفردات من خلال الوصف والتركيب الإضافي، وغير ذلك، وفي قصة «المخاض» تقيم مثل هذه التجاوزات اللغوية التي سرعان ما تحدث الألفة على الرغم من كونها غير مألوفة:

«ضجيج الأولاد يافاطمة يشبه ضجيج محطات سكك الحديد، ترقص له الأرض والجدران وصدغيك. وعندما ينام الأولاد يغفو ضجيجهم على وسائدهم». الصفر، ص١١.

وقد تتخذ اللغة عندها طابعًا ساخرًا، ولكن هذه السخرية لا تكون مجانية، بل تأتي لتعري وتكشف وتنكأ الجراح المندملة، ويمكن أن نلمح مثل هذه الروح الساخرة، في قصة «الخوف» حيث تحمل السخرية التي تفرزها الشخصية كثيرًا من هموم رقية التي عاشت تربية الخوف من المواجهة بجميع أشكالها:

«اســـمي «رقـيـــة» وأمي تناديني «ياهبلة» مع أنني ساعدها الأيمن في تربية إخواتي الثمانية، وفي كل أعمال البيت، حتى تعودت اسمي الثاني وأحببته أكثر من اسمي الأول!!» مدينة الاسكندر، الخوف، ص٠٧

وحين تنتقد الممارسات القمعية للاستعمار الفرنسي ضد أبناء الشعب العربي السوري تستخدم لغة ساخرة، قادرة على تصوير مدى القهر الاستعماري، وتستخدم في قصة «الدرب إلى الهجرة» مزاوجات طريفة، وإحالات، واستدعاءات تستجلب الرصيد الثقافي لدى القارئ وتحاوره:

«صادروا شقيقاتي الثلاث (هند، ومريم. ومفيدة) واستثنيت من المصادرة لأنني كنت يومها مختبئًا في بطن أمي. وزعت شقيقاتي على بيوت القادة للخدمة والترفيه.

وألزمت أمي بخدمة المسيو ديكارت.

أنا أغضب إذن أنا موجود». امرأة من برج الحمل، ص٢٢.

أما الحوار الذي تجربة القاصة على ألسنة شخصياتها فهو على الأغلب الأعم حوار يناسب منطق الشخصيات وثقافاتها وبيئتها الاجتماعية، وكثيرًا ما يأتي قصيرًا مركزًا محاطًا بمبرراته الحبكوية، وأبعاده الدلالية، دون أن يعاني القسرية والافتعال. كما يبدو في افتتاح قصة «الفطام».

«سأل المعلم التلاميذ:

- من يحمي الإنسان؟

أجابوا بصوت واحد:

- البندقية

إلا منير الصغير فقد تلكّأ في الإجابة.. نزع اللهاية من فمه وقال:

- اللّه». مدينة الاسكندر، ص٢١.

وقد تحتال القاصة على الأفكار الجاهزة وتخلصها من ذهنيتها كالسياق التالي المقتبس من قصة «الإصبع» والذي ينجح في التخلص من ذهنية الطرح الأيديولوجي عبر الاعتماد على فتنة السرد:

«الأحلام بعيدة المنال مثل النجوم بالنسبة لعمال التنظيفات، وعمال التنظيفات بشر ومن حقهم أن يحلموا. اللّه عندما خلق الناس، خلق معهم الهموم والأحلام». مدينة الاسكندر، ص٢٨.

غير أن اعتدال تقع في بعض الأحيان في ربقة الذهنية والتعبير المباشر، من مثل السياق التالي الذي تحمله الأيديولوجية النضالية التي تدين الاحتلال وتكشف زيف ادعاءاته:

«بعد استشهاد أبي تعرضنا لتحديات وانتهاكات عديدة من قبل أولئك الذين يدعون الحضارة ويتهموننا بالهمجية والوحشية». امرأة من برج الحمل، ص٢٢.

كما تقع الكاتبة أحيانًا في فخ التعبير المباشر عن الأيديولوجية الاجتماعية، من مثل قصة «وحشة» التي تبدو بعض سياقاتها فجة، تفتقر إلى جمال اللغة، وتصويرية التعبير، من مثل السياق التالي:

«ولكن ما مصير أمة يستمد أقوياؤها قوتهم من قهر الأطفال والضعفاء، وقيمهم وشرفهم من مكان التبول». امرأة من برج الحمل، ص٥٧.

وفي قصة «عندما كنت صغيرة» تقدّم لنا القاصة الأيديولوجية على طبق من لغة، يفترض أن تكون أدبية في المقام الأول:

«ترى ما هي العلاقة بين نُطقي والخبز؟؟ لا بد أن معلمي على حق، لو نطق الجياع وأشهروا جوعهم.. لرخص، وأصبح متوفرًا لكل فم» رحيل البجع، ص١٢.

غير أن القاصة تحاول من خلال لغتها ذات البعد الاجتماعي الانتماء للمجتمع الذي تعيش فيه، وتحيل من أجل ذلك على المثل الشعبي، والعادات والتقاليد، وعلى الأغاني التي تجري على ألسنة الشخصيات. ففي قصة «المخاض» يرد السياق السردي التالي:

«وكنت سرعان ما تتغبش وتظلم بسرعة وتقول لي قول الواثق:

يأتي الطفل ويأتي رزقه معه، لاتكفري يا آمنة». الصفر، ص١٥.

وهذا القول الشعبي الذي يقوله عبد السميع لزوجته، هو في حقيقته انتماء لرؤية مفروضة على الأسرة في بعض المجتمعات، وفي القصة تؤكد القاصة على استخدام المثل الشعبي إذ تحدث آمنة نفسها:

«لا تهولي الأمور، وتقولي عن سُرّتك: كأنها مذبوحة ببلطة من مهووسي المذابح [1]، وتكدرين عبد السميع، أنت تحبينه يا آمنة مَهْمَا بدا لخاضك شكل ذقنه.. والرجل في البيت رحمة لو كان فحمة». ص١٣.

وتبرر العادات الشعبية التي تلجأ إليها الرجال والنساء في مجتمع القصة، كما يمكن أن نقرأ في قصة «موت نافذة» التي تشير إلى الدعاء لجميع الولايا بالستر: «كانت تقول أمي، تكشف عن صدرها وترفع يدها إلى السماء:

- يارب استر على جميع الولايا». الصفر، ص٦١.

وفي قصة «آدم لا يحب البرتقال» تصور القاصة جانبًا من عادة الخطبة حيث تقدم الخطيبة القهوة، وترتبك في حضرة خطيبها، وقد استطاعت القاصة أن ترفع في توتر القصة حين دلقت بدايةُ القهوة على بنطال خطيبها:

«دخلت على أبي ومهدي أحمل صينية القهوة، كنت أرتعش من الخجل، دلقت القهوة على سروال مهدي من شدة اضطرابي». يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص٩٩.

وعلى الرغم من أن حظ الأغاني لم يكن وفيرًا في قصصها إلا أن القارئ يستطيع أن يجد بعض الأمثلة، فحين تستحم منية القلب في قصة «الشائعة» تتسرب أغنية فيروزية إلى لغة القصة عبر السياق التالي:

«امتطت منية القلب جوادًا وعانقت خاصرتيه بجسدها وصوتها، وانطلقت في مدى السحب، وكانت تغني (يلبقلك شك الألماس دروب دروب)». الصفر، ص٢٣.

أما عجوز «الروزنامة» التي ترى المستقبل من خلال رنا، فإنها تردد ترانيم عتيقة، تجسد انتماءها للماضي، وإن كانت لا تلغي علاقتها مع المستقبل:

(نيّمتك في المرجوحةخفت عليك من الشوحة

نميّمتك في العليةخفت عليك من الحيّة) الصفر، ص٨٠.

إضافة إلى ذلك فإن القاصة تعتمد على الرمز على صعيد الحدث والمفردة والتركيب،فالتراكيب في قصة «عندما كنت صغيرة» تتجه اتجاهًا رمزيًا، وثمة رموز كثيرة فيها، والقمع الممارَس ضد الشخصية

الرئيسة، ينتج لغة تركيبية معبرة عن حالة الإحباط التي تعيشها الشخصية، فالتبول الليلي، مثلًا، يشغل مساحة واسعة على مستوى اللغة والرؤية، وهذا مجرد مثال صغير:

« في الليل أبول تحتي وأغرق ملابسي وفراشي، تسحّ الرطوبة إلى نقرتي، أنهض في الصباح ملجومة الأحلام..» رحيل البجع، ص٧.

ولأن القاصة تعرف تمامًا ما تريد من هذا النص، ولأنها تتقن أصول اللعبة الفنية، فقد جعلت النهاية مبنية بناءً محكمًا يعزز إحساس القارئ بهذا الرمز، كما يتوج الحدث واللغة في آن معًا، فالحلم الملجوم بفعل التبول الليلي، يكون دواء ناجعًا حين تفتح الشخصية الرئيسة لقلبها كوة الأحلام:

«حلمت بحقول فسيحة، وجياد بيضاء تندفع الرياح من أنوفها، وزرافات تسابق أعناقها طول الأشجار، وأيائل تستعرض رشاقتها وتعدو.

في الصباح، كان فراشي جافًا، ولم تجلدني أمي». ص ٢٠.

وثمة رموز أخرى تبدأ من مقدمة قصة «حارس القطيع»:

«على مدى عشر سنوات أو أكثر كان «زغران» يمشي وراء القطيع ويحميه من الذئاب والواوية، وخلال هذه المدة التي تولى فيها زغران الحراسة لم ينقص القطيع ولا رأسًا» الصفر، ص ٨٣.

ويتضح الجنوح الرمزي لهذه القصة من خلال تقديم الكلب على أساس أنه نموذج الوفاء الذي يقابل نموذج الخيانة، إذ ثمة قطبان متجابهان فيها: الكلب الذي يمثل البراءة الأولى، والإنسان الذي يدّعي التحضّر، وهو على هذا القدر من الغدر والخسة:

«غريب أمر هؤلاء البشر الذين لايخجلون من لصق صفاتهم بالكلاب» ص ٨٥.

وتمضي الكاتبة شوطًا أبعد في جنوحها الرمزي حين تؤكد المقولة ذاتها، من خلال النهاية التي أكدت أن الكاتبة، والشخصية الرئيسة: الكلب، والبراءة الأولى كانوا جميعًا على حق في توجساتهم:

«حاول زغران أن ينسلّ من شيخوخته ومرضه ويلحق بالقطيع.

رأى صاحبه مقبلًا عليه وهو يدكّ بارودته بالخرطوش. برك زغران في مكانه مستسلمًا لقدره الزغراني، قرّب صاحبه فوهة البارودة السوداء من صدغه ثم ضغط على الزناد»، ص ٨٦.

وثمة قصة رمزية أخرى تعتمد فيها القاصة على الحيوان، وتنحو فيها منحى رمزيًا ، هي قصة «خرافة» التي تتحدث عن فتاة تتعاون مع خالتها من أجل قطع أذني

الجرو الصغير، لكي يستذئب عندما يكبر، وفي المحة ذكية إلى ضرورة الاعتماد على القوة الذاتية، تعرض اعتدال نتائج الاعتماد على الخرافة والآخرين:

«سطا الحــرامــيـــة على طرشنا وبيادرنا وكرومنا، وأكلت الواوية دجاجاتنا وصيصاننا. امتلأت البيادر بالهشيم وروث البقر الطحلبي، والقن بالريش، والسلحات. بقي ســعــران كلبًــا ...» يوم هربت زينب وقصص أخرى، ص ١٠٨.

وفي قــصــة «وديع والكلب» تؤكــد الكاتبة، في نسق ذهني أن «خيـر وسيلة للدفاع هي الهجوم» عبر حكاية طريفة تتحدث عن وديع الذي انتقلت إليه عدوى الخــوف من والده عــبــر سلسلة مــن العلاقات الطريفة:

«في الماضي كان يخافــهــا، وهي تخــاف أباه، .. وأبوه يخـــاف من الكلب! عدوى الخوف سريعة الانتقال كالحريق، وقلب الخائف ضامر كاليباس، بعد وفاة أبيه رق حال أمه، وهو ظل خائفًا». رحيل البجع، ص ٩٣.

ثم تمضي القــاصــة نحــو تأكــيــد مــقــولتــهــا، حين يسقط الخــوف، وتبـدأ الخطوة الأولى:

«تناول حجرًا وراح يتقدم نحو الكلب بخطوات ثابتة وقــامــة مــشــدودة، وزبد القسوة يكسو ملامحه (...) يتراجع الكلب خطوة كلما تقدم وديع خطوة، ولا يصدق وديع عينيه!! كل هذا مغطى بالنبـــاح؟..» ص ١٠٠.

وعلى صعيد زاوية النظر تستخدم القــاصــة أسلوب المتكلم والغــائب بشكل غالب، وقلما تستخدم أسلوب المخاطب الذي يبتعد عنه القاصون عامة، على الرغم من أنه يضع القارئ أمام نسق غير مألوف، ويقيم علاقة وحوارًا طريفًا بين الشخصية ونظيرتها على الورق، ومن الأمثلة القليلة التي تستخدم فيها أسلوب المخاطب المثال التالي من قصة «المخاض»، وهو يصور آمنة في رحلة بحثها المحموم عن جوارب زوجها:

- «لماذا لا تحبين الجوارب والمناديل يا آمنة».

فتحت الجوارير، قلبت محتوياتها، وفي شــرودك كنت تبــعــدين الجــوارب والمناديل عن يديك!

لعنت الشيطان الذي يسرق جوارب عــبــد الســمــيـع ومناديله من الجــوارير!» الصفر ص ١٠.

ها نحن أيضًا فتحنا أدراج قصص اعتدال رافع، قلبنا محتوياتها، وبحثنا بجد وإخلاص عن أسرارها، وكل ما نرجوه أن نكون قد وجدنا بعض هذه الأسرار.

الهوامش:

(١) - صدرت للقاصة المجموعات القصصية التالية:

- مدينة الاسكندر، قصص، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٠.

- امرأة من برج الحمل، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٦.

- الصفر، مطابع أرابيا، بيروت، ١٩٨٨.

- يوم هربت زينب وقصص أخرى، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٦.

- رحيل البجع، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٩٨.

(٢) - في رواية (وقت) يستفيد جمال ناجي كثيرًا من الأحداث في إطلاق التسميات، فحتوم الممرض الذي يتمنى أن يرزق بذكر يسمي ابنته الأولى كفاية:

«قال الناس الذين ذهبوا لتهنئته بأنه يريد بهذه التسمية أن يقول: «كفاية... لا أريد بنات بعد هذه. وعندما رزق بأربع فتيات أُخر سماهن ختام، وكفى، ونهاية، ومنتهى. وكلّ هذا أملًا في أن تكون أي منهن آخر العنقود الأنثوي». يمكن النظر في: جمال ناجي، وقت، دار ابن رشد، عمان، ط١، ١٩٨٤، ص ٢٨.

(٣) - الاجتياح الإسرائيلي لبيروت - ٥ حزيران ١٩٨٢ - بدأ بقصف المدينة الرياضية. والهامش من الأصل.

(٤) - في مذابح صبرا وشاتيلا بقروا بطون النساء الحوامل بالبلطات. والهامش من الأصل.

❖ ❖ ❖

نافذة على الوطن العربي

عبد الرحمن الحلبي

أفكار علميّة

الحماية ضدّ السرطان

منذ بداية البحث في الخليّة حلم العلماء بقدرتهم على فهم الساعة البيولوجيّة الغامضة، التي تحدّد متى تموت الخلايا العادية، وتفسّر لماذا لا تموت الخلايا السرطانية. وخلال السنوات القليلة الماضية اكتُشفت هذه الساعة ليفتتح بذلك حقل بحث جديد تماماً للقرن الحادي والعشرين.

لقد عرف العلماء منذ الستّينات أنّ الخلايا التي تربى من أطفال حديثي الولادة ستنقسم 80-90 مرّة، بينما تنقسم الخلايا من أشخاص في سن الأربعين من 20-30 مرّة، ولكن إذا كانت الخليّة تحتوي على فتيلة موقوتة فما «فتيلها»؟ إننا نعرف الآن ذلك، لقد لوحظ في السبعينات أن لنهايتي صبغياتنا «غطاء» دُعي «تيلومر»، يشبه كثيرًا الأغطية البلاستيكيّة لشرائط الأحذية التي تمنعها من أن تتنسل. وإذا ضاعت هذه التيلومرات فإنّ الصبغيات تلتصق ببعضها وتموت الخليّة في النهاية. وفي خليّة طبيعيّة يصبح فتيل التيلومر أقصر فأقصر حتى تنتحر الخليّة. فعندما ينتهي الفتيل تنتهي الخليّة، ولكنّ بعض الخلايا غير العادية، كما نعرف اليوم تمتلك المقدرة المميّزة على إبقاء فتيل التيلومر طويلاً بشكل دائم. وبهذا تصبح غير فانية، وتدعى مثل هذه الخلايا بالخلايا السرطانية.

لقد أظهر الفحص الدقيق للتيلومرات أنّها تتألف من السلسلة الجينية TTAGGG مكررة مرة بعد مرة إلى 2000 مرة. ووجد أيضًا أنّ الخليّة الأقدم تحتوي على تيلومر أقصر، وتفقد الخليّة حوالي 10-20 ٪من هذه القطع كلما انقسمت، أي أن الفتيل يصبح أقصر بعد كل انقسام، لذلك فقد وضعت نظرية اختفاء التيلومر وموت الخليّة عندما يصبح الفتيل أو التيلومر قصيرًا جدًا بعد انقسامات عدّة للخليّة.

وفي العام 1984 اكتشف الإنزيم تيلوميراز Telomorase الذي يستطيع أن يعكس العمليّة ويطيل التيلومرات، وبالتالي يمنع انتحار الخليّة، ومع ذلك، فإنّ إنزيم التيلوميراز غير موجود في معظم الخلايا في جسم الإنسان. وفي العام 1994 توصل بعض العلماء إلى اكتشاف حاسم. لقد أظهروا أن التيلوميراز موجود في تشكيلة واسعة من السرطانات التي لديها تحوّلات جينيّة تسمح لها بتصنيع التيلوميراز، ولقد منع هذا بدوره التيلومرات الموجودة فيها من الاختفاء، وبالتالي جعل الخليّة غير فانية.

وبهذه الاكتشافات فإن ثمة فرضية ناجحة، لدى العلماء، حول شيخوخة الخليّة وموتها والسرطانات: فـ «التيلومر» يعمل مثل ساعة تقيس عملية شيخوخة الخلية وموتها، وكلما كان التيلومر قصيرًا كانت الخليّة أقدم سنًا، أما الخلايا السرطانية فلأنها تستطيع صنع التيلوميراز الذي

يجمّد انكماش التيلومرات، فقد «نسيت كيف تموت» على حدّ تعبير أحدهم(1).

إن هذا الاكتشاف يفتح أبوابًا جديدة للكشف عن السرطانات ومعالجتها في القرن الميلادي الراهن، وستكون إحدى الطرق اكتشاف «التيلوميراز» في الجسم، وبما أنّ الخلايا الطبيعيّة لا تحتوي على التيلوميراز: فإن هذا الأنزيم - بوجوده - الرئيسي يشير إلى وجود خلايا سرطانية تنمو، كما يمكن أيضًا تحييد أو تعدي التيلوميراز بحيث تشيخ الخلايا السرطانية بشكل عادي، وبما أنّ التيلوميراز غير موجود في الخلايا العادية، فإن هذه المعالجة ستستهدف الخلايا السرطانية فقط.

السرطان عام 2020

لأنّ السرطان طائفة مجنونة مؤلفة من حوالى 200 نوع مختلف على الأقل من الأمراض، بحيث أن هناك نوعًا واحدًا لكل نوع من أنسجة البشر، فإنه لن يعالج بشكل كامل بحلول 2020 ومع ذلك فمن المفترض أن يمتلك العلماء بحدود 2020 تصنيفًا كاملاً تقريبيًا للتحوّلات الداخلة في الـ200 نوع من السرطانات هذه، وسيفجّر هذا نموًا هائلاً في كشوف جذرية جديدة للسرطان ومعالجته، بما في ذلك أنواع من الاستراتيجيّات الجديدة المذهلة، لمهاجمة النقاط الجزيئيّة الضعيفة للسرطان، وهناك طرق جديدة متعدّدة تولّد اهتمامًا شديدًا من المفترض أن يعطي العديد منها أُكُله مع حلول العام 2020، ويتعلق أوّلها «بالكشف عن السرطان».

وإذا ما أمكن الوصول إلى هذا الكشف، وهذا ممكن في العشرين من السنوات القابلة حسبما رأى العلماء، فهذا يعني القدرة على الكشف عن مستعمرة صغيرة جدًا من الخلايا السرطانية قبل أن يتشكل ورم ظاهر بعشر سنوات، وتصمم الآن اختبارات حساسة جدًا (في طريقها إلى السوق الآن) يمكنها اكتشاف كميات صغيرة جدًا من البروتينات تصدر عن بضع مئات من الخلايا السرطانية فقط، عندما تنمو وتشكل في النهاية أوعية دمويّة، ويمكن الكشف عن هذه البروتينات بتحليل البول أو الدم، وبالمثل سيتمكن الأطباء من الفحص المباشر عن وجود الجينات السرطانية في تكويننا الجيني. ويوجد حوالى نصف السرطانات في أعضائنا المفرّغة - الصدر، القولون، المثانة - التي تحتوي غالبًا على الجين (ras) المتحوّل، وبتصميم اختبارات بسيطة على هذا

الجين ras في بولنا أو دمنا - التي يمكن إجراؤها في المنزل مستقبلاً - ستتمكن من كشف، أو اكتشاف، معظم السرطانات قبل تشكيلها أورامًا وقبل انتشارها في الجسم البشري بسنوات.

ولقد بدأ العلم يفهم، على المستوى الجزيئي، لماذا تساعد بعض المنتجات والفيتامينات الطبيعيّة في الوقاية ضدّ السرطان: لقد وجد أن «الجينستاين» في كلّ من الملفوف، الكرنب، وفول الصويا، كائن بتركيز عال في الوجبة الغذائية اليابانية، ومن المعروف أنه يكبح تشكل الأوعية الدموية في الأورام السرطانية، ومن المعروف علميًا أن مضادات الأكسدة في الأغذية (مثل فيتامين C وE) والليمونين في البندورة، والكاتشين في الثمار العنبيّة، والجزريات في الجزر، تقلل معدّل التحوّل في الخلايا بكبح الجزئيات الحرّة.

وتحتوي خضراوات أخرى على مواد كيميائية تولّد أنزيمات تحمي ضدّ السرطان كـ«أندول» في الملفوف و«اليمونويد» في الحمضيات، و«الآيزوثلوسيانيت» في الخردل.

ويسعى العلماء إلى تقوية جهاز المناعة، حيث أن الأجسام المضادة التي تصنع من قبل جهاز المناعة ليست قوية، عادة، بما يكفي لمهاجمة خلية سرطانية، وقد عانى المجتمع ا لعلمي ما عانى في هذه السبيل حتى توصل أحد العلماء إلى القول «إن مدّة تقوية جهاز المناعة تبقى صحيحة، ويُحرز لأجلها تقدم بطيء، ولكنه مستمر في تطوير المعالجة بالأجسام المضادة».

أما في مسألة المعالجة الجينيّة والاتجاه العلمي الداعي إليها باستهداف جينات السرطان فيمكن حقن الجين السليم واستبدال الجينات المعطوبة التي تسبب السرطان، وفي حقن العلماء بنجاح جين P53 السليم إلى خلايا سرطانية في مزارع خلايا، وبالتالي أوقفوا تكاثرها. ويجرون تجارب على الإنسان أيضًا، وبصورة أخرى يمكن للعلماء أن يطوّروا مثبطات تقوم بإيقاف البروتين المعطل، الذي يُصنّع من قبل الجين السرطاني. ويمكن، على سبيل المثال، إيقاف البروتين المنتج من مسرّع الجينات ras بواسطة مثبطات من نوع فارنيميل ترانسفيريز.

وأما فيما يتعلّق بالتركيز الذي يراه

آخرون من العلماء على لقاحات السرطان فإن هذا الاتجاه جُرِّب من قبل ثم تمّ التخلي عنه، بيد أن الثورة البيوجزيئيّة أثارت اهتماماً جديداً به. وبواسطة التكنولوجيات الحديثة يمكن للمرء أن يتتبع بدقة فعالية بعض اللقاحات، والذي كان أمرًا مستحيلاً تقريبًا من قبل.

ثم إن من يرى العلماء - الأطباء منهم بخاصة - ضرورة التركيز في العمل على إغلاق مصادر الدم عن السرطان؛ فمن أجل أن ينمو السرطان إلى أكبر من حجم حبة البازلاء، عليه أن يحرّض نمو الأوعية والشعيرات الدّموية لتزويد الورم بالغذاء، وتدعى عملية نمو الأوعية الدموية بـ«نشوء الأوعية» Angiogensis. وتتلخّص استراتيجيّة إيقاف نمو الأوعية الدموية هذه في تطوير موقّفات لهذا النمو، والعمل قائم الآن في هذا الأمر.

وبعد إذا ما استطاع العلماء تحييد التيلوميراز أمكن جعل الخلايا قابلة للموت مرة أخرى، مثلها مثل باقي الخلايا، ولا أحد يعلم بالضبط ما المعالجة الأكثر فاعلية ضد السرطان، ولكن المهم هو أن الثورة البيوجزيئية قد حطمت سرّ السرطان اليوم، وقدّمت لنا ثروة من المسارات الجديدة الواعدة جدًّا لمهاجمته التي ستحل محلّ الأدوات البدائية للمعالجة الكيميائية والجراحية والإشعاعية المتوافرة اليوم، ويعتقد العديد من العلماء أن أصنافًا كاملة من السرطانات قد تكون قابلة للعلاج بحدود 2020.

أفكار فنيّة

البحث عن الممثّل العربي

إلى اين يتوجّه الممثّل العربيّ اليوم، بغية اكتشاف، أو إعادة اكتشاف، إمكاناته وتطويرها في ظل الهيمنة الضاغطة لمنطق السوق، من ناحية، والاغتراب النقدي، من ناحية ثانية، وفي مثلث القهر القديم: السّلطة، الجسد، القدرة، من ناحية ثالثة؟

سؤال كان قد طرحه، بجدية وبمعاناة فعلية، الباحث والكاتب والمخرج المسرحي العربي المصري د. صالح سعد منذ النصف الأول من تسعينيات القرن الماضي[2]، ويرجئه حتى قرابة نهاية العام الفائت ليجيب عنه من حيث أنه السؤال الذي يكمن وراءه التساؤل القديم، والمُعاد،

فمن إمكانية التأسيس أو التأصيل في الفن الدرامي العربي، وهل يكون ذلك بإحداث قطيعة مع الأصول التراثية (الكامنة تحت أعتاب الوعي العربي الذاتي)؟ أم القطيعة لابد من أن تكون مع الآخر - الغربي، الناهض أمام الذات، كمرآة خرافية تتحدى غرورنا بصورة المتفوّق، الأكثر رقيًا والأجمل دائمًا؟.

هذه الأسئلة المتتالية إنّما تعبّر في مجموعها، حسب الباحث - عن القلق الوجودي الإيجابي الفعّال، شرط الاستمرار والحياة لأي فن، أو لأي ثقافة ترفض الموت، أو الجمود النهائي، وهي، أيضًا، الأسئلة التي تفرضها الجماهيرية، أو الحميميّة، التي تتمتّع بها الفنون الدراميّة، وقوّة تأثيرها على القيم الاجتماعيّة تدعيمًا أو تغييرًا، نتيجة لما تمتاز به من قدرة فائقة على الإيحاء والإيهام، وعلى تحقيق المشاركة الوجدانية، ويبدو أنّ ما يتمتّع به الفن الدرامي من طابع استهلاكي فوري، إلى الحدّ الذي يجعل منه صناعة تخضع لمنطق السوق من عرض وطلب وما إلى ذلك، قد ساعده على الاستمرار لوقت طويل دون حاجة للمراجعة النقدية المعمّقة.

فالشرط الضروري للسوق هو تلبية الاحتياج الجماهيري، وبالتالي فإننا قد لا نجد في الأدب والفنون الأخرى هذا الكم الهائل، المضاعف بصورة مخيفة، من الممثلين والمخرجين، وأيضًا من النقد والنقاد العابرين الذين يقومون بعملية ترويج، أو تسويق، للمفاهيم التسطيحية الشائعة حول طبيعة عمل الممثل، أثناء قيامهم بالترويج للأعمال الفنيّة وأصحابها، عبر الصفحات الفنية والوسائط الإعلامية، وفق مؤشرات السوق وقواعد التسويق التجاري.

ولعلنا لا نجانب الصواب، كما يرى الباحث، عندما نقول: إنّ أي محاولة لفتح ملف فن الممثل العربي، نظريًا وتطبيقيًا، قد تبدو للبعض غير ضرورية بالمرّة، وخاصّة إذا كانت هذه المحاولة ستدعونا لإعادة النظر فيما نستهلك كل يوم من عروض وأفلام ومسلسلات درامية تزخر بالألوان، وألوان من طرق التمثيل، أكثرها مجهود شخصي أو قفزات اعتباطيّة، وأقلها قائمة على أساس منهجي علمي محدد. فالحديث عن فن الممثل العربي وقضاياه يبدو ثرثرة غير مرغوب فيها، أو سفسطة غير مجدية، على الأقل من جانب أهل الحرفة، فما دام الممثلون

يمثلون، وما دام الجمهور يحبهم ويتقبل كلّ ما يقدمونه له. وهكذا فإنه من الطبيعي أن يظلّ هذا الفن ضائعًا بين ضباب العموميّة والسطحية، وأن تظل التعبيرات المستخدمة لتقييم عمل الممثل هي مجرد كلمات انطباعيّة عامّة مثل: أجاد الممثل فلان، أو برز علان، أو لم يكن موفّقًا في أدائه لدوره، دون أن يستطيع القائل أن يشرح لنا كيف، أو لماذا، كانت ا لإجادة، أو البروز، أو حتى عدم التوفيق؟ ولهذا السبب نفسه ستظل حيّة بين أوساط الممثلين والمخرجين مفردات الصنعة الشائعة، وهي المفردات التي ساهمت، وتساهم في تكريس وتثبيت قوالب تمثيليّة معيّنة، اتورث من جيل إلى جيل، على ما فيها من نمطيّة، وتكرار، في الوقت الذي تعاني فيه خريطة الفن التمثيلي العربي - بأسف - من تباينات شديدة. حسب الباحث؛ ففي الوقت الذي نشهد فيه ردةً وانحسارًا كيفيًا، وزحامًا كميًا على الساحة المسرحية، والسينمائيّة المصريّة، أطاحا بكل ما قد تمّ الإعداد له خلال سنوات الستينيات والسبعينيات، بحيث منح حق السيطرة والسيادة إمّا للمهرجين المضحكين محترفي فن «التقفية»، أو صناعة «الإفية»، أو للخطباء المفوّهين من محترفي الإلقاء؛ في حين تتلاعب في الظل أعداد متزايدة من الشباب الذين حمل إليهم «مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي» حقوقًا مكتسبة، واسعة، في التجريب ولو على غير أسس أصيلة. بينما يظلّ الباب مغلقًا أمام أي محاولة حقيقيّة، جادة، للتماس مع التجارب العالمية في الشرق أو الغرب إلاّ أن هذا لا يعني فراغ الساحة العربية تمامًا من الممثلين المبدعين الذين دربوا أنفسهم على العمل بطرق منهجيّة مع أدوارهم وشخصياتهم، وكذلك من بعض معلمي التمثيل الخارجي عن عباءة «الملقن» التي ترتديها غالبية مسيطرة. وهؤلاء - حسب الباحث - هم من نراهم في تزايد مستمر على الساحة المسرحية التونسية، والسورية بصفة خاصّة. ولا يعني هذا أن مثل هؤلاء وأولئك غير موجودين بالفعل في مصر. ولكنهم يعانون، بالطبع، صعوبة الموقف الذي نعاني، ويعانيه الفن نفسه. ما بين مطرقة تجار الضحك وسندان جهابذة الخطابة.

الممثّل الفاعل أم نائب الفاعل

لعلّه ليس بجديد القول إننا ما زلنا نستخدمه، حتى اليوم، الكثير مثلاً من المصطلحات اللاتينيّة المعرّبة، نتيجة

لرواجها واستقرارها بين الجمهور على الصورة التي تمّ استنساخها بها في البدايات، مثل كلمة «دراما» التي تبقى - بسبب التعريب - معزولة عن معناها الباطن، والمرتبط بأصل اشتقاقها عن كلمة إغريقية بمعنى فعل أو عمل، غير أنّ الأمر يزداد صعوبة مع اشتقاقاتها المتداولة في مجال العرض، وبخاصّة فيما نحن بصدده هنا، أي مع كلمة "ACT" ومشتقاتها: ACTOR, ACTRESS, ACTING (حرفيًا: تفعيل، فاعل، فاعلة...) وهو ما تعرفنا على ترجمته في البدايات بكلمة موحية، دالة، هي «تشخيص»، قبل أن نستبدلها بكلمة «تمثيل» المستعارة من حقل الدراسات الاجتماعية والنفسيّة. فخاصيّة التمثيل PLAY أو لعب الأدوار هي مفهوم متداول على بساط البحث في العلوم المتخصصة في السلوك الإنساني الفردي والاجتماعي، وكما هو معروف فإنّ اللغة هي وعاء الفكر، وتلك بدهية، إلا أن هذه البدهية بالذات تمثل.. للأسف.. إحدى التناقضات الرئيسيّة في فن المُمثّل العربي، تلك التناقضات المتعددة والمركبة تعقيدًا التي تحول بيننا وبين تطوّر هذا الفن! مصاف العالمية، سواء باقتفاء آثار فن التمثيل الغربي، أو بالبحث في تراثنا القومي الخاص!

والتسمية العربية «ممثل»، التي نستخدمها نظرًا لشيوعها ولضمان جودة التوصيل، تبدو - لدى الباحث - وكأنها عنوان خاطئ لرسالة مجهولة المصدر، وهي قد تشير إلى دور اجتماعي يلعبه - مثلاً - نواب، أو نائب في البرلمان (ممثل الشعب)، أو قد تشير إلى وظيفة بعينها: وكيل النيابة (ممثل الادّعاء)... ومن ثمّ فهي قد تحمل في ذاتها معنى «العرض» أي أنها تسبغ نفسيًا طابعها السلبي على «عملية المعايشة عند الممثل العربي، موحية إليه بعلاقة سطحية، وظاهرية بينه وبين دوره».

فهذه الكلمة / المصطلح تحمل في ذاتها التباسًا ذهنيًا، يؤثّر بالضرورة ليس على نظرة الممثل العربي لفنه، بل أيضًا على المتفرج في نظرته لهذا الفن، ولما ينتظره من ممثليه. صحيح أن الكلمة أخذت تحمل مع الوقت بعض مضامينها الأصلية، كأن تشير إلى معنى التظاهر، والكذب أحيانًا، إلاّ أنها لا تزال تحمل إرث الميلاد التعسفي، بعيدًا عن رحم المعنى الدال. ويبدو أنّها قد اشتقت عن أحد مصادر ثلاثة:

1- المماثلة، أو التماثل.. بمعنى المشابهة، أو المحاكاة / التقليد.. فيكون

الممثل هو المحاكي، المقلد (المقلّداتي بتعبير توفيق الحكيم)، وهو ما يضعنا على الفور أمام التناقض القديم الذي ينهض ما بين معنى التقليد الحرفي المباشر، ومعاني المحاكاة الأدبية في التراث العربي، وحتى المحاكاة فهي وإن كانت تفتح المجال للنشاط الخيالـــي (على طريقة: إن كنت رأيــت ما ذكرت، فقد رأيت عجبًا.. وإن لم تكن قد رأيته فقد وضعت أدبًا..) إلا أنّها تضعنا في ظلال الحكي / الســـارد، بديلاً عن صورة المشخص / الفاعل (الحكواتي - شاعر الربابة - راوي السيرة.. في مقابل أصحاب المساخر، السماجة، المقلدين، المحبظين، لاعبي العرائس...) ومن ناحية أخرى فهي تشي بقرابة إلى معنى اللعب؛ لعب الأدوار، حيث يتضح نوع مـــا من الارتباط الشرطي بين مفهوم التمثيل، وبين التشخيص الكوميدي بصفة خاصّة.

2- المثل.. بمعنى الضارب بالأمثال، الواعظ، وهي صيـــغـــة للأداء الخطابي المباشر الذي قد لا يستلزم معايشة، أو تجسيدًا، من أي نوع، فالمهارة الأساسيّة هنا هي مهارة الإلقاء، بما تتطلبه من قدرة على التلوين الصوتي، والانفعال الخارجي الصرف، وهي تشترط أيضًا حضورًا شخصيًا مؤثرًا، وليس حضورًا افتراضيًا لشخوص خيالية في ظروف متخيلة، أي أنها تنفي عن المؤدي أي شبهة ازدواج، فحضور الشخصية الخيالية، ومن ثم وقوع الإزدواج، هنا يبطل مفعول ضرب الأمثلة، ويؤكد حالة الإيهام التمثيلي.

3- المثول، أو الإنابة.. حيث يصبح الممثل هنا نائبًا عـن الفاعـل الأصـلي أو وكيلاً عنه. وهو مفهوم قريب إلى علم الاجتماع منه إلى الدراما، وقد يشير أيضًا إلى دور الراوي (نائب الفاعل)، أكثر مما يشير إلى الممثل / الفاعل.

وفي كل الأحوال فإن المحصّلة النهائية لما يتشكل من معان مختلفة، بل متناقضة، لكلمة ممثل والمستقرة في اللاّشعور الجمعي العربي (لدى الممثل والمتلقي) يظلّ - غالبًا - متمحورًا حول واحدة من تلك الصور الثلاث، أو حول صورة مركبة، مختلطة، منها جميعًا، صورة الناسخ، المقلد، الخطيب الذي لا يتورّع عن القيام بدور الواعظ، أو المصلح الاجتماعي الذي يقدم لنا الصور والأشكال الخارجية للشخوص، دون أن يناله منها شيء، والنسخ، أو التقليد، بهذا المعنى، يعتمد بالدرجة الأولى على نمطيّة مقررة، مكررة،

هدفها الأساسي هو الحكاية عن أناس معيّنين، وليس تصوير أفعالهم، وبالتالي فهي تعمل على رسم صورة الشخصية المسرحية بطريق أقرب إلى رسم الملصقات الدعائية الجادة، أو الكاريكاتورية على حدّ سواء، منها إلى طريقة التجسيد الدرامي.

ومن ناحية أخرى فإنه، وفي حين لم تتعارض الصورة الكاريكاتورية، أو الجرو تسكيّة تحديدًا، للتعبير الجسدي مع الذوق العربي (مثلما لم تتعارض صورة الرّمية مع ذلك الذوق) فإن التعبير الجسدي الطبيعي، ظلّ لمدّة طويلة متعارضًا بشدّة مع صورة الجسد في الذهنية العربية، ومع التقنية المعتادة، والمقبولة، لاستخدام هذا الجسد، فالجسد هو بيت الشهوات - كما هو في اللاهوت المسيحي أيضًا - وهو العورة التي يجب سترها، وكبح جماح حرّيتها وازدهارها (شرطي لوجود المسرح واستمراره).

ومن هنا، حسب براد لي بترجمة توفيق الأسدي، «فإنّ المسرح لم يظهر في العالم العربي إلاّ كتقنية جديدة للجسد(*)، تمامًا كما حدث في أوربا عصر النهضة. وهكذا فقد حمل المسرح الوافد معه تصوّرات مستحدثة للجسد وتقنياته في حال العرض، وهي وإن كانت تؤكد على حرّيته وازدهاره، كضرورة شرطية للتعبير الدرامي، إلاّ أنها - للأسف - لم تجد سوى مرجعية بدائية فقيرة، تمثلت فيما قد ترسّخ منذ أجيال، بالنسبة إلى العقل العربي، من سيادةلونين من ألوان العرض الجسدي هما: الرقص الشرقي بأنواعه «الغوازي، البلدي، التركي..» والنمر التهريجيّة المرتجلة، في الوقت الذي كان على الفنان المسرحي العربي أن يحلّ إشكالية التعبير وفقًا للمنظور الغربي، ما دام لا يقدم إلا نصوصًا وشخوصًا مقتبسة من المسرح الغربي، في ظلّ اختلاف التقنيات الجسمية».

ثم يرى الباحث أن الجزء الأكبر من انشغال فنان المسرح العربي عن قضايا إبداعه الحقيقيّة يرتبط بالدرجة الأولى بالظرف الموضوعي الذي يعيشه، فهو قد يجد نفسه مضطرًا للدفاع عن وجوده بإزاء الاتهام بالتمرد والعصيان من جانب الرقابة السياسية، أو بالفساد الأخلاقي في ظل معايير أخلاقية معينة، أو بالمعصية والكفر أمام الرقابة الدينية، وذلك بدلاً من الدفاع

(*) ج. م برادلي. مقال: أوجينو باربا ومسرح أودين. دمشق، مجلة الحياة المسرحية، عدد 11 و12.

عن وجوده الفني في عملية صراعه مع مادته الإبداعية، أو مع تغيير ميول واتجاهات جمهوره، في ظل ظروف المنافسة الشرسة مع وسائط العرض والتسلية الحديثة. فمثلت التحريم الذي يضم أضلاع الاستبداد الشرقي يظل عقبة كأداء في مسار فن التمثيل العربي، رغم أنها مصاعب ايديولوجية قبل أن تكون تقنية، ويظل حجر عثرة، عبر العصور، أمام التطلعات الفردية والديمقراطية التي لا غنى عنها لأي فن، وبالذات فن المسرح الدرامي، بوصفه «تدريبا شعريا على الحرية» مهما اتخذت قوى القهر لنفسها مسميات وأشكال.

❖ ❖ ❖

أفكار نقدية

مكونات الخطاب السردي

يقوم الحكي، بعامة، على دعامتين أساسيتين، أولاهما: أن يحتوي على قصة ما، تضم أحداثا معينة. وثانيتهما: أن يُعيِّن الطريقة التي تُحكى بها تلك القصة. وتسمى هذه الطريقة «سردا»، ذلك أنّ قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، ولهذا السبب فإن السّرد هو الذي يُعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل أساسي، حسبما يراه الباحث العربي المغربي، د. حميد لحمداني (4).

إن كون الحكي هو، بالضرورة، قصة محكية يفترض وجود شخص يحكي، وشخص يُحكى له، أي وجود تواصل بين طرف أول، يدعى راويًا أو ساردًا Narrateur، وطرف ثان يدعى مرويًا له أو قارئًا Narrataire، والمبدأ الذي ينشأ عن علاقة الراوي بالقارئ هو مبدأ الثقة، لأن القارئ ينقاد مبدئيًا نحو الثقة المتبادلة في رواية الراوي، فإذا ما تجاوزنا مجمل القضايا التي تناقشها البنائية في هذا المجال مطلقة، مثلاً، بالتمييز بين الكاتب والراوي، أو القصة، بعدّها محكيًا أو مرويًا تمرّ عبر القناة التالية:

الراوي ـ القصة ← المروي له

وأن «السرد» هو الكيفيّة التي تروى بها القصة عن طريق هذه القناة نفسها، وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالقصة ذاتها.

القصة، إذن، لا تتحدّد بمضمونها فحسب، وإنما بالشكل أو الطريقة التي يُقدّم بها ذلك المضمون، والشكل بعامة هو

مجموع ما يختاره الراوي من وسائل وحيل كي يقدّم القصة للمروي له.

وزاوية الرؤية عند الراوي متعلقة بالتقنية المستخدمة لحكي القصة المتخيّلة. وأن الذي يحدّد شروط اختيار هذه التقنية دون غيرها، هو الغاية التي يهدف إليها الكاتب عبر الراوي، وهذه الغاية لا بد أن تكون طموحة، أي تعبّر عن تجاوز معين لما هو كائن، أو تعبّر عمّا هو في إمكان الكاتب، ويُقصد من وراء عرض هذا الطموح التأثير على المروي له، أو على القراء بشكل عام.

يميّز الشكلاني الروسي (توماتشفسكي، بين نمطين من السرد «سرد موضوعي Objectif وسرد ذاتي Subjectif، ففي نظام السرد الموضوعي يكون الكاتب مطّلعًا على كلّ شيء، حتى الأفكار السرية للأبطال، أما في نظام السرد الذاتي، فإننا نتتبّع الحكي من خلال عيني الراوي (أو طرف مستمع) متوفرين على تفسير لكل خبر: متى وكيف عرفه الرواي أو المستمع نفسه».

ففي الحالة الأولى (السرد الموضوعي) يكون الكاتب مقابلاً للراوي المحايد الذي لا يتدخل ليفسّر الأحداث، وإنّما ليصفها وصفًا محايدًا كما يراها، أو كما يستنبطها في أذهان الأبطال، ولذلك يُسمّى هذا السرد موضوعيًا لأنه يترك الحرية للقارئ، ليفسّر ما يُحكى له ويؤوّله، ونموذج هذا الأسلوب هو الروايات الواقعية.

وفي الحالة الثانية لا تُقدّم الأحداث إلاّ من زاوية نظر الراوي، فهو يختبرها، ويعطيها تأويلاً معيّنًا يفرضه على القارئ، يدعوه إلى الاعتقاد به، نموذج هذا الأسلوب هو الروايات الرومانسيّة، أو الروايات ذات البطل الإشكالي.

ثم يرى الباحث - بالاستناد إلى تودوروف وسواه - أن معرفة الراوي تكون، هنا، على قدر معرفة الشخصية الحكائية، فلا يُقدّم لنا أيّ معلومات أو تفسيرات، إلاّ بعد أن تكون الشخصية نفسُها قد توصّلت إليها، ويُستخدم في هذا الشكل ضمير المتكلّم أو ضمير الغائب ولكن مع الاحتفاظ دائمًا بمظهر الرؤية مع، فإذا ابتدئ بضمير المتكلم وتمّ الانتقال بعد ذلك) ضمير الغائب، فإن مجرى السرد يحتفظ مع ذلك بالانطباع الأول الذي يقضي بأن الشخصية ليست جاهلة بما يعرفه الراوي، ولا الراوي بجاهل فيما

تعرفه الشخصية. والراوي في هذا النوع إمّا أن يكون شاهدًا على الأحداث أو شخصية مُساهمة في القصة.

إنّ الرؤية مع، أو العلاقة المتساوية بين الراوي والشخصية، هي التي جعلها (توماتشفسكي) بعنوان «السرد الذاتي»، والواقع أن الراوي يكون هنا مصاحبًا لشخصيات يتبادل معها المعرفة بمسار الوقائع، وقد تكون الشخصية نفسها تقوم برواية الأحداث، ويتجلّى هذا بشكل واضح في روايات الشخصيّة، سواء في الاتجاه الرومانسي أو في اتجاه الرواية ذات البطل الإشكالي.

ويرى الباحث أن دراسة مظاهر حضور الراوي تعني اقتفاء أثر صوت الراوي داخل الحكي، ويقتضي الكلام عن ذلك الإجابة عن السؤال: من يتكلم في الحكي أو في الرواية؟ ثم الإشارة ثانيًا إلى تدخّلات الراوي في الحكي، وأخيرًا الحديث عن تناول عملية السرد في القصة، أي في الحديث عن الحالة التي يتناوب فيها السرد عدد من الرواة، إمّا أن يكونوا أبطالاً في الوقت نفسه، أو رواة لا علاقة لهم بالحدث الحكائي أي مجرّد شهود.

المتكلّم والحكي

هنا تبرز حالتان: إمّا أن يكون الراوي خارجًا عن نطاق الحكي، أو أن يكون شخصية حكائية موجودة داخل الحكي، فهو إذن راوٍ ممثَّلٌ داخل الحكيّ، وهذا التمثيل له مستويات، فإما أن يكون الراوي مجرّد شاهد متتبع لمسار الحكي، يتنقّل أيضًا عبر الأمكنة، ولكنه لا يشارك مع ذلك في الأحداث، وإمّا أن يكون شخصيّة رئيسيّة في القصّة.

وعندما يكون الراوي مُمَثّلاً في الحكي، أي مشاركًا في الأحداث إمّا كشاهد أو كبطل، يمكن أن يتدخل في سيرورة الأحداث ببعض التعاليق أو التأمّلات، تكون ظاهرة وملموسة إذا ما كان الراوي شاهدًا لأنها تؤدّي إلى انقطاع في مسار السرد، وتكون مُضمرة ومتداخلة مع السرد بحيث يصعب تمييزها إذا كان الراوي بطلاً.

وفي بعض الحالات التي يكون فيها الراوي غير ممثَّل في الحكي ويلجأ إلى التدخّل والتعليق على الأحداث، فإن الأمر قد يؤدي إلى تصديع البناء الخيالي الذي أقامه الراوي نفسه، إذ يصعب بعد هذا على القارئ أن يُصدّق بأن الأبطال لديهم حرّية الحركة والتصرف.

ثم إن الحكي يسمح باستخدام عدد من الرواة، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطة عندما يتناوب الأبطال أنفسهم على

رواية الوقائع واحدًا بعد الآخر، ومن الطبيعي أن يختصّ كلّ واحد منهم بسرد قصته، أو على الأقل بسرد قصة مخالفة من حيث زاوية النظر لما يرويه الرواة الآخرون، وهذا ما يسمّى عادة بـ«الحكي داخل الحكي»، وعلى مستوى الفن الروائي يؤدي هذا إلى خلق شكل متميّز يُسمّى «الرواية داخل الرواية».

إن تعدد الرواة يؤدّي غالبًا - كما يخبرنا الباحث - إلى تعدد وجهات النظر حول قصة واحدة، وتنتمي إلى هذا النوع «الروايات الرسائلية»، وليس من الضروري أن تكون الرواية داخل الرواية مشروطة بتعدد الرواة، حيث بإمكان راوٍ واحد أن يَعْقِد علاقات بين مقاطع حكائية مختلفة من حيث زاوية الرؤية، وهكذا يُوَلّد الراوي الواحد زوايا متعدّدة للرؤية.

الشخصيّة الحكائيّة

إذا كان النقد الشكلاني، ممثّلاً بممارسيه ومنظّريه، قد حاول تحديد هوية الشخصية في الحكي بشكل عام من خلال مجموع أفعالها، دون صرف النظر عن العلاقة بينها وبين مجموع الشخصيات الأخرى التي يحتوي عليها النص، فإن هذه الشخصية قابلة - حسب الباحث - لأن تُحدَّد من خلال سماتها، ومظهرها الخارجي، ولم تغفل الأبحاث الشكلانية والدلالية هذا الجانب، وإن كنّا نلاحظ أنها توسّعت في الجانب الأول، أي جانب الوظائف التي تقوم بها الشخصيات في الحكي، ولقد كان التصوّر التقليدي للشخصيّة يعتمد أساسًا على الصفات مما جعله يخلط كثيرًا بين الشخصية الحكائية (Personnage) والشخصية في الواقع العياني (Personne)، وهذا ما جعل بعض المنظرين يميّز بين الاثنين، عندما عدّوا الشخصية الحكائية علامة فقط على الشخصية الحقيقيّة؛ وقد تمثّل ذلك في قول (ميشال زرافا): «إنّ بطل الرواية هو (شخص) في الحدود نفسها التي يكون فيها علامة على رؤية ما للشخص».

يضاف إلى هذا كله أن هوية الشخصيّة الحكائية ليست ملازمة لذاتها، أي أنّ حقيقتها لا تتمتّع باستقلال كامل داخل النص الحكائي؛ أوّلاً لأن بعض الضمائر التي تحيل عليها إنّما تحيل في الحقيقة على ما هو ضد الشخصية، حسبما يرى (إميل بنفنيست)، أي على ما هو ليس بشخصية محدّدة؛ مثال ذلك: ضمير الغائب. هذا الضمير في نظر

صاحبنا (بنفنيست) ليس إلاّ شكلاً لفظيًا، وظيفته ان يعبّر عن اللاشخصية، لأن القارئ نفسه يستطيع أن يتدخّل، برصيده الثقافي وتصوّراته القَبْلِيّة، ليقدّم صورة مغايرة عمّا يراه الآخرون عن الشخصيّة الحكائية. وهذا ما عبّر عنه منظّر آخر الذي رأى أن الشخصية في الحكي هي تركيب جديد يقوم به القارئ أكثر مما هي تركيب يقوم به النص(*).

وعندما قال (رونالد بارت)، في معرض تعريفه الشخصية الحكائية، إنها «نتاج عمل تاليفي» كان يقصد، حسب الباحث، أن هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى اسم «علم» يتكرر ظهوره في الحكي.

ثم إن الشخصية في الرواية، أو الحكي عامّة، لا ينظر إليها من وجهة نظر التحليل البنائي المعاصر إلاّ على أنها بمثابة دليل له وجهان أحدهما دال والآخر مدلول، وهي تتميّز عن الدليل اللغوي اللساني من حيث أنها ليست جاهزة سلفًا، ولكنّها تحوّل إلى دليل، فقط ساعة بنائها في النص، في حين أن الدليل اللغوي له وجود جاهز من قبل، باستثناء الحالة التي يكون فيها منزاحًا عن معناه الأصلي كما هو الشأن في الاستعمال البلاغي مثلاً، وتكون الشخصية بمثابة دال من حيث أنها تتخذ عدة أسماء أو صفات تلخّص هويتها. أما الشخصية كمدلول، فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص أو بواسطة تصريحاتها، وأقوالها، وسلوكها، وهكذا فإن صورتها لا تكتمل إلاّ عندما يكون النص الحكائي قد بلغ نهايته، ولم يعد هناك شيء يُقال في الموضوع.

ولهذا ا لسبب لجأ بعض الباحثين إلى طريقة خاصة في تحديد هوية الشخصية الحكائية تعتمد محور القارئ لأنه هو الذي يكوّن بالتدريج - عبر القراءة - [illegible]، ويكون ذلك بواسطة مصادر إخبارية ثلاثة:

1- ما يُخبِّر به الراوي.

2- ما تُخبِر به الشخصيات ذاتها.

3- ما يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات.

ويترتب عن هذا التصوّر أن تكون الشخصيّة الحكائية الواحدة متعددة الوجود، وذلك بحسب تعدّد القراء، واختلاف تحليلاتهم.

(*) PH. Hamon. J.L. Dumortieret F. Plasanet: Pour lire le récit. Ed. Duepot 1980. P. 12.

ويَعُدّ البنائيون هذا مزيّة من مزايا التحليل الذي يأخذون به لأنه، في نظرهم، يجعل الحكي غنيًا بالدّلالات ما دام يرفض النظرة الأحادية التي تقترحها المناهج «التقليدية» ذات الأساس الاجتماعي أو السيكولوجي، ومع ذلك فقد وجد الباحث أن ثمة حقًا مشروعًا له في أن يتساءل:

- إذا كان تعدد معاني الشخصية يُغني النص الحكائي، فهل يتلاءم كل هذا مع الهدف العلمي الذي تنشده البنائية، وهو إخضاع النص الحكائي لدراسة منهجيّة تُمكّن من الوصول إلى نتائج واضحة ودقيقة يقبلها أغلب المهتمين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل فإنّا سنجدنا أمام عنوانات متنيّة وفرعيّة متعدّدة، منها: «مفهوم الشخصيّة في النموذج العاملي»، وسيلاحق الباحث هذا المفهوم لدى بعض المنظّرين، فيقدّم لنا ما قالوا فيه دون أن نتبيّن موقف الباحث منه.

ثم «الفضاء الحكائي»، بادئًا بمستوى البحث النظري في هذا الفضاء الذي نجم عن منظرين آخرينَ، مضيفًا إليه عنوانًا فرعيًا جديدًا، هو: «مختلف التصوّرات الموجودة في الفضاء الحكائي»، ليسأل: ما هو المقصود بـ«الفضاء في الحكي؟».

ويخبرنا أن الدراسات الموجودة حول هذا الموضوع، لا تقدّم مفهومًا واحدًا للفضاء، حيث منها ما يقدّم تصوّرين أو ثلاثة، ومنها ما يقتصر على تصوّر واحد.

ثم يمضي الباحث ليحصر الآراء المختلفة في هذا الفضاء: منطلقًا من توصيف «الفضاء كمعادل للمكان» ومتوقفًا عند اصطلاح «الفضاء النصّي» ذي الفقرات السبع التي هي: الكتابة الأفقية، الكتابة العمودية، التأطير، البياض، ألواح الكتابة، الشكل التيوغرافي، التشكيل وعلاقته بالنص.

لاشك في أن الباحث بذل جهدًا مشكورًا فيما قدّم من تنظير أوروبي إلى القارئ العربي؛ بيد أنّي أرى أن فائدة هذا التنظير محدودة التأثير في قراءة النص الإبداعي العربي، بل إنّها قد تزيد الأمر بلبلة. ذلك أن التنظير الذي أورده لم ينشأ في البيئة الثقافية العربيّة، وانما استورد استيرادًا ليقسر النصّ العربي الإبداعي

فيجعله على مقاسه ضغطًا أو مطًا. وهذا ما نلحظه، بأسف، في جل أعمال النقاد العرب في المغرب العربي بخاصّة، وإلاّ فما معنى البحث في «القارئ المحلل»، أي المتلقي للنص، والفاعل فيه، هذا القارئ العربي الذي يرزح تحت وطأة الأميّة، بشقيها الأبجدي والثقافي التي لما تزل تبلغ نسبة مؤسفة في الوطن العربي؟!

❖ ❖ ❖

إحالات

1- ساموبل برودر. رؤى مستقبليّة. تر: سعد الدين خرفان، مراجعة: محمد يونس. عالم المعرفة /ع 270/ ص 220 /ط1/ 2001، الكويت.

2- صالح سعد. تقاليد الكوميديا الشعبية، مطبوعات ملتقى القاهرة العلمي لعروض المسرح العربي، وزارة الثقافة المصرية 1994.

3- صالح سعد، الأنا - الآخر. ازدواجية الفن التمثيلي، عالم المعرفة /ع 274/ 2001.

4- بنية النص السردي. ط2. المركز الثقافي العربي 1993 بيروت والدار البيضاء.

كتاب الشهر

المدرسة وتربية الفكر

عرض وتقديم : ميساء نعامة *

يقول الشاعر الألماني أرنيم: «كل إنسان يكرر تاريخ العالم، وكل إنسان يختم سيرة هذا التاريخ».

بمعنى أن حياة كل إنسان هي رهن ما يقدمه المجتمع عبر مؤسساته المختلفة، ومن خلال تلك المؤسسات يستطيع صياغة النظام المعرفي والعملي لحياته.

(*) ميساء نعامة: إجازة في علم الاجتماع. دبلوم الدراسات العليا. تكتب في مجال الصحافة.

ومن أهم المؤسسات الاجتماعية المدرسة، ويبقى السؤال: هل تقدم المدرسة أرقى أنواع التعلم وهو القدرة على التفكير والمحاكمة المنطقية في حل المشكلات التعليمية؟

الحقيقة أن هذا السؤال يثير الكثير من الاشكاليات، وللرد عليها لا بد من الاطلاع على كتاب المدرسة وتربية الفكر لمؤلفه ما ثيو ليبمان والمترجم إلى العربية من قبل الدكتور إبراهيم يحيى الشهابي. والكتاب من إصدارات وزارة الثقافة سلسلة دراسات اجتماعية(٣٤)، يضم الكتاب ٤٠٨ صفحات، مقسم إلى ثلاثة أجزاء تبحث في أهمية التفكير كأسلوب للتعليم.

❖ الجزء الأول التربية من أجل التفكير

❖ ١ - النموذج التأملي للممارسة التربوية

في الفصل الأول للجزء الأول يعرفنا الكاتب على أهم المؤسسات الاجتماعية وهي: الأسرة والدولة، والمدرسة التي يراها المؤلف ساحة المعركة لأنها، أكثر من أية مؤسسة اجتماعية أخرى، صانعة لمجتمع المستقبل، لأنّ كل جماعة أو طائفة اجتماعية في واقع الأمر تطمح إلى السيطرة على المدرسة من أجل تحقيق غاياتها، فالمدرسة تعكس القيم المعترف بها في زمانها. لذا يعد الجانب الاجتماعي للتعليم في المدرسة عند كثير من الأطفال نعمة مُقيّدة. أما الجانب التربوي فهو محنة مرعبة، فالطفل يتوقع من المدرسة أن تكون بيتًا بديلاً، وأسرة بديلة.

لأن بيئة البيت تحتوي على الكثير مما ينبغي تعلمه ومما ينبغي أن يمارس ويجرب بحيث تشكل تحديًا مستمرًا للطفل الصغير بالذات. أما الذي يكتشفه الطفل في المدرسة الأولى فهو بيئة ذات بنية مستكملة تمامًا، وسوف يكتشف أيضًا أن التعليم في المدرسة موهن ومثبط للهمم بدلاً من أن يكون منشطًا ومثيرًا للذهن، ومن جهة أخرى فإن المعلمين لديهم إصرار دائم على أن النظام والانضباط يمكن أن يكون مفسدًا ومدمرًا للعفوية التي يرغبون في تهذيبها ورعايتها. ويضيف الكاتب قائلاً: إن الحل لايكمن في الأوقات المتناوبة في الصرامة والعشوائية: تمارين كتابية حينًا، ولعب حر حينًا. بل يكمن الحل في اكتشاف الإجراءات التي تشجع التنظيم والإبداع كليهما.

ويعبر جون ديوي عن هذه المسألة بقوله: «إن إشكالية الأسلوب في تشكيل عادات من التفكير التأملي هي إشكالية

إقامة شروط وظروف تثير الفضول وتوجهه: وإشكالية إقامة روابط بين أمور خبرها التلاميذ والتي سوف تثير في مناسبات لاحقة فيضًا من الاقتراحات وتخلق قضايا وأهدافًا تخدم الترابط المنطقي في تتابع الأفكار».

ومن خلال هذا البحث يطالعنا المؤلف على إمكانية إعادة بناء العملية التربوية، وفي هذا المجال يفترض وجود نموذجين متناقضين تناقضًا حادًا من الممارسة التربوية - النموذج القياسي للممارسة العادية، والنموذج التأملي للمارسة النقدية. وقبل الخوض في هذين النموذجين لا بد من التعرف أو التعريف بهما فالنموذج القياسي للممارسة العادية هو: النشاط المنهجي المألوف والمعتاد والتقليدي غير التأملي وهذا النوع يحرص عليه بعض المعلمين الذين يهمهم في تنمية الأمر تعزيز الممارسة الأكاديمية العادية وعلى هذا الأساس يضع الكاتب عدة افتراضات تكون سائدة في النموذج القياسي وهي:

١ - تكمن التربية في كونها نقل المعرفة من الذين يعلمون إلى الذين لا يعلمون.

٢ - المعرفة هي معرفة العالم، ومعرفتنا عن العالم واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

٣ - المعرفة موزعة بين الأنظمة غير المتداخلة والشاملة، في الوقت نفسه، للعالم الذي يراد معرفته.

٤ - يلعب المعلم دورًا حازمًا في العملية التربوية، لأنه إذا كان المعلمون يعرفون عندها فقط يستطيع الطلبة أن يتعلموا ما يعرفون.

٥ - يكتسب الطلبة المعرفة عن طريق امتصاص المعلومات، أي المعطيات المتعلقة بالمواصفات، أما النموذج التأملي للممارسة النقدية فهو يعني بالدرجة الأولى الاستقلال الذاتي للمتعلم، بمعنى أن أساس الهدف الأولي للنموذج التأملي، يكون صحيحًا بقدر ما يكون المفكرون المستقلون هم أولئك الذين يفكرون بأنفسهم، الذين لا يرددون كالببغاوات ما يقوله الآخرون أو يفكرون به، بل يُجرون محاكماتهم العقلية الخاصة بهم للدليل المطروح، من هنا يوضح المؤلف الافتراضات الخاصة بالنموذج التأملي السائد في التربية.

١ - التربية هي نتاج الإسهام في مجتمع موجه من قبل معلم، والذي من بين أهدافه تحقيق الفهم والمحاكمة العقلية السليمة.

٢ - يُحرِّض التلاميذ على التفكير في

العالم عندما يتبين لهم أن معرفتنا عنه غامضة وملتبسة وملغزة.

٣ - يفترض في الأنظمة التي يجري فيها التقصي ألا تكون متداخلة ولا شاملة، وبالتالي تكون علاقاتها بموضوعها إشكالية تمامًا.

٤ - موقف المعلم هو اللاعصمة عن الخطأ وليس موقف الحزم السلطوي.

٥ - يتوقع من الطلبة أن يكونوا مفكرين ومتأملين، وأن يغدوا أكثر عقلانية وحكمة.

٦ - ليس تركيز العملية التربوية على اكتساب المعرفة، بل على إدراك العلاقات ضمن الموضوع المطروح على بساط البحث والتدقيق.

من هنا نلاحظ الاختلاف الواضح بين النموذج التأملي والنموذج القياسي. فالأول يعدّ الثقافة والتعليم عملية قائمة على التقصي والبحث، بينما النموذج القياسي لا يفترض ذلك. بالإضافة إلى الاختلاف في الأهداف والشروط التي ينبغي أن تتم بموجبها العملية التربوية.

❖ - ٢ - تعلم حرفة التفكير

وفي هذا الجزء من الكتاب يطالعنا المؤلف على بحث غايةً في الأهمية وهو آلية تعلم حرفة التفكير. ويبدأ البحث بسؤال: إذا ما كانت التربية كلها، ببساطة، هي توجيه التفكير في فرع من فروع المعرفة، فلماذا لا نعلّم التفكير ذاته؟.

هذا التساؤل أحدث تطورات جديدة وهامة في عملية تعليم التفكير، وأخذ المربون المشبعون بنظام تعليم مرتكز بكآبة على التعليم الاستظهاري، بغض النظر عن غلافه التجميلي، قد شرعوا يناقشون بأن تشجيع الأطفال على التفكير بدلاً من جعلهم يتعلمون ما تعلمه معلموهم من قبلهم، يعد أمرًا جيدًا.

والآن دعونا نتعرف على أربعة أنواع كبرى من المهارات المعرفية.

١ - مهارات التقصي: مر معنا في البحث السابق أن التفكير التأملي يعتمد على التقصي، وفي هذا البحث سنتعرف أكثر على معنى التقصي وهو ممارسة التقويم الذاتي، ومهارات التقصي كغيرها من أنواع المهارات المعرفية الأخرى مستمرة عبر مستويات العمر والفروق الحاصلة من الطفولة حتى الكهولة هي فروق في الدرجة أكثر مما هي فروق في النوع.

فالأطفال يتعلمون مبدئيًا من خلال مهارات التقصي كيف يربطون خبراتهم الحالية بما يكون قد حدث في حياتهم وبما يمكنهم توقع حدوثه. إنهم يتعلمون الشرح والتنبؤ، وتحديد الأسباب والنتائج،

والوسائل والغايات... وتنمية الكفاءات التي لا حصر لها والتي تؤدي إلى اقتران الممارسة بعملية التقصي.

٢ - مهارات المحاكمة المنطقية: يقول المؤلف: تتيح لنا المحاكمة المنطقية اكتشاف أمور إضافية تشكل الحالة. إننا نكتشف، في مناقشة مصاغة صياغة سليمة بحيث نبدأ بمقدمات منطقية صحيحة، نتيجة صحيحة كذلك تنجم عن تلك المقدمات. معرفتنا قائمة على خبرتنا للعالم: وبفضل المحاكمة المنطقية نوسع تلك المعرفة وندافع عنها.

٣ - مهارات تنظيم المعلومات وتشكيل المفاهيم: إن الأنماط الأساسية الثلاثة من تجميع المعلومات هي الجملة والمفهوم والخطة. هناك، على أية حال، عمليات تنظيمية ليست مجرد أجزاء أو عناصر من كل أكبر، بل هي طرق عالمية لصياغة ما نعرف والتعبير عنه وعن تشكيل المفاهيم يقول روم هاريه: المفاهيم هي مطايا الفكر، وهي كيانات ينقل بوساطتها الفكر. ويتضمن تحليل المفاهيم توضيح ما هو غامض وإزالته.

٤ - مهارات الترجمة: إننا نفكر عادة في الترجمة بوصفها نهجًا يقال بموجبه في لغة معينة ما يقال في لغة أخرى دون أية خسارة في المعنى. والمقصود باللغة هو اللغة الطبيعية كالإسبانية والصينية، بيد أن الترجمة ليست محصورة في نقل المعنى من لغة طبيعية إلى لغة طبيعية أخرى. إذ يمكن أن تحدث في صيغ وأشكال أخرى من التعبير، كمحاولة المؤلف الموسيقي تحويل المعاني الأدبية إلى صيغة توسيعية عن طريق تأليف سيمفونية ومما لا شك فيه أن جميع أنواع الترجمة تتضمن عنصرًا من عناصر التفسير، وتساعدنا على التحرك مكوكيًا بين اللغات.

❖ - ٣ - وفرة الأداء المعرفي

وفي هذا البحث يعرفنا المؤلف على التفكير الأعلى رتبة وهو التفكير الذي يجمع فيما بين مكونيه: التفكير الإبداعي والتفكير النقدي، وعند التحدث عن التفكير عالي الرتبة فهذا يعني بيان كيفية تقويم التفكير وليس فقط بيان كيفية تصنيفه وفي هذا المجال يتحدث المؤلف عن المقاربة التي لاقت بوجه عام قبولاً، وهي مقاربة بلوم Bloom: الذي وضع هرمًا من تسلسل المهارات والذي يأتي في قمته التحليل، والتركيب والتقويم، هذا التسلسل إذا ما قوبل التحليل بالتفكير النقدي، والتركيب بالتفكير الإبداعي، والتقويم بالمحاكمة العقلية، فإنه يمكن تسمية هذه

العناصر الثلاثة بمكونات التفكير عالي الرتبة.

وإذا كنا قد تعرفنا على التفكير الإبداعي والتفكير النقدي، فإن المؤلف يعرفنا على المحاكمات العقلية على أنها محاكمات العلاقات. فإذا ما كان هناك شيء معزول تمامًا، لا علاقة له بأي شيء آخر، ولا سياق، ولا شخصية داخلية، فإننا لا نستطيع أن نجري أية محاكمة بشأنه فالعلاقات تزود المحاكمات العقلية بوجوهها واتجاهاتها إضافة إلى معانيها، ويضيف المؤلف: إننا نقوِّم الأشياء بفضل مقارنة بعضها مع بعض أو بالمعايير المثالية، وكل مقارنة تتضمن معرفة حصيفة بالمتشابهات والفروق، وتعد كل معرفة كهذه محاكمة عقلية وتقويمًا.

وما دام الحديث عن العلاقات فلا بد من تمييز ثلاث مستويات من العلاقات يجب على أي منهاج أن يتضمنها: علاقات رمزية مثل: العلاقات اللغوية، والمنطقية والرياضية، وعلاقات مرجعية مثل: العلاقات القائمة بين الدلالات الرمزية والأنظمة الرمزية، وعلاقات وجودية مثل: الروابط القائمة بين الأشياء في العالم.

أما الفشل في تعريف الأطفال بهذه الأنواع الثلاثة من العلاقات، فيعني تسليمهم إلى جمود الحياة الذهنية التي ربما يتمكنوا من تجاوزها والتي سوف تعيقهم إعاقة رهيبة عندما يحاولون التحرك باتجاه التربية الأعلى.

من هنا نستطيع أن نفهم التربية على أنها غرس معرفة حيث تعني بالمعرفة، حسب رأي المؤلف، كل ما يحتفظ به الطفل من بعض المضامين التي تعلمها، وهكذا نصل إلى نتيجة مهمة جدًا وضعها اي. دي. هيرش E.D. Hirsh، وهي أن امتلاك المرء للمعرفة لا تعني أنه مثقف. فلا بد للثقافة أن تقدم معنى وإلا فإنها فشل مطبق.

أما عن طرق تدريس المحاكمة العقلية فيلخصها المؤلف في عشرة بنود وهي:

١ - تقليص التحامل: ينبغي تدريب التلاميذ على تجنب إصدار أحكام غير ناضجة والتعرف على الظروف التي تستدعي تعليق المحاكمة العقلية مؤقتًا.

٢ - التصنيف: ربما تستخدم هنا تمارين تنتقل من حالات واضحة إلى حالات غامضة، ومن أجل ذلك يحتاج التلاميذ إلى تدريب مستمر في فرز المجموعات، وفي التصنيف، وفي فرز الفئات.

٣ - التقويم: يجب أن يُعرَّف الطلبة أولاً بالتدريبات التقويمية في صناعات وحرف

متنوعة لجعلهم يألفون أسس تصنيفها بمراتب كأنشطة عملية.

٤ - التعرف على المعايير: يجب أن يجري تدريب واسع في ميدان الأسباب بحيث يفهم الطلبة الدور الذي يلعبونه في تعليل كل ما يُصنع أو يقال أو ينجز. وعندئذ يمكن تحديد المعايير بوصفها اعتبارات حاكمة أو حاسمة في أية محاولة لتعليل التصنيف أو التقويم.

٥ - الحساسية تجاه السياق: وهنا لا بد من منح الطلبة فرصًا واسعة للتمييز بين السياقات المتشابهة تشابهًا كبيرًا ولكنها تتضمن اختلافات هامة.

٦ - المحاكمة المنطقية القياسية: يتضمن هذا الإجراء نقيض التحمس تجاه السياق، أنه يستدعي التدريب على التعرف على المعالم المتشابهة تمامًا في قرائن تبدو بوضوح أنها مختلفة. كما يستدعي تدريبًا على المحاكمة المنطقية العلائقية القائمة على التماثل.

٧ - تقويم الذات: ينبغي أن يتدرب الأفراد والمجموعات الساعون إلى تعزيز المحاكمة العقلية لديهم على توجيه أسئلة إلى أنفسهم وإلى الآخرين، والبحث عن دحض الأدلة والشواهد. كما ينبغي أن يعترفوا بالقيمة المحتملة للانشقاق في المجتمع بوصفه أساسًا ممكنًا لتقويم الأخطاء تمامًا كقيمة التزييف بوصفه أسلوبًا للتعرف على الحقائق الباطلة.

٨ - الحساسية تجاه النتائج: ينبغي أن يتدرب جميع الطلبة، على توقع النتائج المحتملة لما يقترحون فعله، وينبغي مساعدتهم في تعلم تقدير المدى الذي يتألف منه معنى ما سيفعلونه من نتائج تلك الفعال.

٩ - ضبط الوسائل والغايات: التدريب على ضبط الوسائل والغايات يتضمن رؤية كل منها مرنة بوصفها وسيلة محتملة، وغاية محتملة، بدلاً من رؤيتها ثابتة.

١٠ - ضبط الأجزاء والكليات: إذا كان ضبط الوسائل والغايات يؤكد قيمة التساوق فإن ضبط الأجزاء والكليات يؤكد قيمة التلاحم.

❖ - ٤ - المعرفة، والعقلانية، والإبداعية

تدور أفكار هذا البحث حول مفهوم التفكير الأعلى رتبة، ونقف بداية مع التعريف الذي وضعته لورين ب. ريزنك، في الكتاب الذي أعدته لمجلس البحوث القومي حيث وضعت المعالم التي تشعر بأنها مميزة لمثل هذا التفكير، ولخصتها على النحو التالي:

«يتضمن التفكير الأعلى رتبة مجموعة من الأنشطة الذهنية المفصلة التي تتطلب محاكمة عقلية وتحليلاً لأوضاع معقدة وفقًا لمعايير متعددة، بصورة دقيقة لا يكاد يلحظ الفرق بينها. يعد التفكير الأعلى رتبة عملاً مجهدًا ويعتمد على التنظيم الذاتي. إذ إن طريق العمل أو الإجابات الصحيحة ليست محددة تمامًا. فمهمة المفكر أن ينشئ المعنى ويركب الهيكل على المواقف بدلاً من توقعه وجودها واضحة تمامًا».

يولّي المؤلف هذا التعريف أهمية كبيرة ويتوقف عند كل فقرة بشكل مطول، بيد أنني لن أتوقف عند التعليق وأترك المهمة إلى القارئ الكريم عندما يعود إلى الكتاب الأصلي. والآن سنتطرق إلى بعض المفاهيم الهامة والخاصة بهذا البحث على النحو التالي:

العمليات المعرفية: وهي علاقات قابلة للكشف قائمة بين الأنظمة الرمزية، وسوف تتضمن المقدمات نتيجة، وهكذا فإن التضمين المنطقي يعد عملية معرفية.

الحركات والأداءات المعرفية: هي أفعال نفسية تُنفَّذ بموجبها عمليات معرفية معينة ويكون لهذه الأعمال أحيانًا أسماء محددة.

المهارات المعرفية: تمثل القدرة على جعل الحركات المعرفية والأداءات المعرفية جيدة فالمهارة هي القدرة على تنظيم الحركات والإجراءات لتحقيق نتيجة يُسعى إليها.

نتوقف أخيرًا في الجزء الأول من الكتاب مع التفكير الأعلى رتبة في المدارس حيث يطرح المؤلف إشكالية هامة من خلال افتراض يقول فيه: لنفترض الآن أنني مسؤول عن تقويم العروض التربوية في مدرسة معينة لكي أقرر فيما إذا كانت تجري فيها تربية من أجل التفكير الأعلى رتبة كما تدعي المدرسة. ويضيف المؤلف، بالتأكيد لن أولي اهتمامًا كبيرًا إلى الوظائف البيتية الرتيبة... بل سأدقق بنوعية الطالب وهو يعمل، وفي كتابات الإنشاء الشعرية والنثرية، وسوف أولي اهتمامًا خاصًا إلى تأملات الطلبة في قضايا مفتوحة النهاية، وعندئذ إذا كان عليَّ أن أحتفظ في ذاكرتي بالمعايير التي راجعتها، فإنني أميل إلى طرح مثل هذه الأسئلة. ونذكر من الأسئلة التالي:

١- هل تعقيد التفكير في هذا المثال متناسب مع تعقيد المسألة المطروحة للبحث؟.

٢- هل يكشف هذا التفكير عن محاكمة منطقية حيث تكون المحاكمة المنطقية ملائمة؟

٣- هل يصل هذا التفكير إلى قرارات وأحكام سليمة؟.

إلى آخر هذه الأسئلة التي ستلقى إجابة في الفصول اللاحقة.

الجزء الثاني. البحث عن معايير التفكير الصفي

٥- دخول حركة التفكير النقدي

لا بد أولاً من التعرف على منشأ هذا المصطلح، وهنا يقدم المؤلف لمحة بانورامية للأصول الحديثة للتفكير النقدي ابتداءً من الكتاب الذي عنون بالتفكير النقدي لماكس بلاك والذي نشر عام ١٩٥٢م، والذي يمثل جهد عالم منطق جعل المنطق أقرب إلى متناول الطلبة، مروراً بعالم النفس الشهير جون ديوي الذي تصدى للمسائل التربوية بخليط بارع من المقاربات التربوية كعالم نفس وفيلسوف، وقدم مقاربته النفسية بصورة مباشرة في كتابه «كيف نفكر» الذي نشر أول مرة عام ١٩٠٣. يتبع ديوي من خلاله التاريخ الطبيعي للتقصي العلمي حتى يصل إلى أصوله الماضية في حل المشاكل اليومية. بالإضافة إلى إسهامات ديوي المتميزة في حركة التفكير النقدي والذي يتحدث عنها الكتاب مطولاً في هذا الفصل من الكتاب.

والآن لنتعرف من خلال هذا الكتاب القيّم على ظهور المنطق اللاصوري وعلاقته بالمنطق أو التفكير النقدي. فقد تعاظم زخم حركة التفكير النقدي تعاظماً كبيراً في أواخر القرن العشرين مع تشكل ما عُرف بالمنطق اللاصوري. إذ كانت مجموعة من المناطقة المنشقين ينادون بمنطق مُؤلَّف أكثر مع اللغة الطبيعية ويمكن مواءمته بصورة أفضل من مواءمة المنطق الكلاسي أو المنطق الرمزي ليساعد الطلبة على إجراء محاكمات منطقية بفاعلية أكبر.

وقد دعم المناطقة اللاصوريين التفكير النقدي من اتجاهين مختلفين، كذلك الفلاسفة ينزعون إلى تأكيد المكون السببي في التفكير، في حين أن غير الفلاسفة (وخصوصاً العلماء) ينزعون إلى تأكيد مكون حل الإشكالات.

هناك رابطة أخرى يمكن تتبعها على الرغم من أنها أكثر غموضاً: وهي الرابطة بين التفكير النقدي والفلسفة التطبيقية. يقول المؤلف: ربما يبدو أن الفلسفة من أجل الأطفال يمكن أن تكون نسخة من التفكير النقدي وضعت تحت عنوان الفلسفة التطبيقية، وكان ذلك خير مكان لها: إذ أنها مثال واضح على الفلسفة المطبقة في التربية بهدف إنتاج طلاب يتمتعون بكفاءة محسنة في المحاكمة

المنطقية والمحاكمة العقلية. هنالك، على أية حال، بعض الفروق الهامة، ليس أقلها أن صنفاً من الفلسفة التطبيقية تمثل تدخلاً من قبل الفلاسفة بقصد توضيح إشكالات تواجه من هم ليسوا فلاسفة، أو حلها، في حين أن الفلسفة من أجل الأطفال تعد تدخلاً يهدف إلى جعل الطلبة يتفلسفون من تلقاء أنفسهم.

❖- ٦- تعريف وظيفي للتفكير النقدي

يقول المؤلف: إذا ما أردنا أن نرعى التفكير النقدي ونعززه في المدارس والكليات، فإننا نحتاج إلى مفهوم واضح عن ماهية هذا التفكير وعما يمكن أن يكون إننا بحاجة إلى معرفة معالمه المحددة، ونتائجه المميزة، الشروط الهامة التي تجعله ممكناً، ولنبدأ بالنتائج. وإذا كانت النتائج المحددة تميل لتكون محصورة في الحلول والقرارات. فإن الكاتب روبرت سيتر نبيرغ يعرف التفكير النقدي على أساس أنه: عمليات واستراتيجيات وتمثيلات ذهنية يستخدمها الناس في حل الإشكالات واتخاذ القرارات وتعلم مفاهيم جديدة. ومن المفاهيم الأخرى للتفكير النقدي هو أنه: «تفكير تأملي منطقي مركز على تحديد ما يجب الاعتقاد به وما ينبغي فعله».

وقد اقترح فيما سبق أن الاهتمام الحالي بالتفكير النقدي إن هو إلا من بقايا الاهتمام القديم بالحكمة، وهذه مناسبة للتعرف على مفهوم الحكمة التي ترادف مفاهيم كثيرة منها: محاكمة عقلية ذكية، ومحاكمة عقلية رائعة، ومحاكمة عقلية معالجة بالخبرة، أما مفهوم الحكمة العقلية فهو تشكيل آراء أو تقديرات، أو نتائج.

وإذا عدنا إلى موضوع التقصي الذي مازلنا نتبعه وهو عبارة عن خط يبين أن المحاكمة العقلية سليلة حديثة لمفهوم الحكمة القديمة، وهي بذات الوقت السمة الرئيسة للتفكير النقدي. ويعود المؤلف إلى عملية الربط بين المصطلحات فيقول: إننا نشك بوجود علاقة بين مصطلحي نقدي ومعايير لأنهما متشابهان ولكل منهما سلف مشترك، كما أننا ندرك وجود علاقة بين المعايير والمحاكمة العقلية، لأن المعيار يُعرف غالبًا بأنه: قاعدة أو مبدأ يُستثمر لإجراء محاكمات عقلية. وبالمحصلة هناك نوع من العلاقة بين التفكير النقدي والمعايير والمحاكمة العقلية. وتوجد في حقيقة أن التفكير النقدي هو تفكير ماهر، والمهارات نفسها لا يمكن أن تُعرَّف بدون معايير يمكن بفضلها تقييم الأداءات الماهرة، وهكذا فإن التفكير النقدي يمكن أن يستخدم المعايير

ويمكن أن يُقوَّم بالاحتكام إلى المعايير، معًا. والنتيجة تقول: بأن الاعتماد على معايير سليمة يعد طريقة من طرق إرساء تفكيرنا على أساس صلب. ويقدم الكتاب قائمة موجزة بأنواع الأشياء التي نحتكم إليها والتي تمثل بالتالي أنواعاً محددة من المعايير: مثل المقاييس والقوانين، المدركات الحسية، المواثيق، المبادئ، المثاليات، الاختبارات.... كل هذه تعدّ أدوات يمكن استخدامها في إجراء المحاكمة العقلية، ومن خلالها تعدّ عملية التقصي دينامية ونقدية.

من هنا يمكن القول بأن تفكير الطلبة تحسينه يعتمد اعتمادًا كبيرًا على مقدرة الطلبة في التعرف على الأسباب الجيدة لأفكارهم التي يعبرون عنها والاستشهاد بها.

وبما أن المدارس والكليات هي مكان التقصي، لذلك يجب أن تكون الإجراءات المستخدمة هناك قابلة للدفاع عنها، تمامًا كما يزود المتقدمون إلى وظائف بالمؤهلات التي تتيح لهم العمل أو الترفيع. وعندما يبين المعلمون المعايير التي يستخدمونها صراحة فإنهم بذلك يشجعون الطلبة على أن يفعلوا مثلهم. وبقيام المعلمين بتقديم نماذج من المسؤولية الفكرية، فإنهم يدعون الطلبة لتحمل مسؤولية تفكيرهم، وبمعنى أوسع، تحمل مسؤولية تربيتهم وثقافتهم.

وفي هذا الفصل يقودنا المؤلف إلى سؤال على غاية من الأهمية وهو: ما صلة التفكير النقدي، بتعزيز التربية في المدارس الابتدائية والثانوية والكليات؟ وبالتالي لماذا الكثير من المربين مقتنعون بأن التفكير النقدي هو المفتاح إلى الإصلاح التربوي؟

يكمن جزء كبير من الجواب في حقيقة أننا نريد طلابًا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من مجرد تفكير، ولا يقل عن ذلك أهمية أن يمارسوا محاكمة عقلية جيدة.

إن دمج التفكير النقدي في المنهاج يحمل معه وعدًا بتعزيز أكاديمي لدى الطالب وما أن يتم الاعتراف بذلك حتى يغدو من الضروري التوصل إلى أفضل طريقة لإنجاز مثل هذا الدمج. ويضيف المؤلف: من الخير، في الوقت الحالي، أن نضع في أذهاننا أن الطلبة الذين لم يُعلَّموا استخدام المعايير بطريقة حساسة للسياق وذاتية التقويم لا يكونون قد عُلّموا التفكير بصورة نقدية.

❖- ٧- المعايير كعوامل مسيطرة في التفكير النقدي

يقول المؤلف: المحاكمة العقلية تقوّم العلاقات أو تبدي رأيًا فيها، ولكنها

تسترشد بالمعايير إذ تعد المعايير أجزاء من المجريات -جزء من الجهاز المنهجي للتقصي؛ والعلاقات جزء من الموضوع الذي أدخل في المحاكمة العقلية وأصبح جزءًا منها. فإذا ما أكدت أن الهند أكبر جغرافيًا من الباكستان، فإن معياري في ذلك هو «المساحة» ولكن العلاقة التي يعبر عنها الحكم هي «أكبر من».

ولدى تعليم الطلبة منطق المحاكمة العقلية، على المرء أن يعمل على تعريفهم باستخدام المعايير وأن يتأكد من أنهم يدركون وظيفة العلاقات في ذلك الاستخدام. ولهذا تبدأ الممارسة المعرفية في السنوات الأولى من المدارس الابتدائية بإجراء مقارنات، لأن ذلك يتضمن التمييز بين المتشابهات والمختلفات من الأمور، وإيجاد الروابط والتمايزات فيما بينها. وفي النهاية يبدأ الطلبة يفهمون لماذا لن يكون هناك تمايزات كهذه بدون فروق روابط إلا إذا كان بينها رابطية معينة. وهذا يقودهم إلى إدراك أنه لا توجد أحكام بدون علاقات.

والحقيقة أن هذا الفصل غني جدًا بالتفصيلات الهامة والأمثلة التوضيحية التي تتطلب العودة إلى الكتاب والإطلاع عليها مباشرة، أما المفهوم الملفت في هذا الفصل والذي يستدعي التوقف عنده فهو مفهوم أو مصطلح التفكير المركب وهو عبارة عن الجمع بين المعرفة التقريرية والمعرفة الإجرائية. والمعرفة التقريرية تتألف من حقائق، أما المعرفة الإجرائية أو الفعّالة فهي القدرة على استخدام صلة المعرفة التقريرية في الأوضاع الجديدة وتطبيقها وتحويلها أو التعرف عليها. والتمييز بين المعرفة التقريرية والمعرفة الإجرائية مفيد جدًا لجسر الفجوة القائمة بين التفكير الأعلى رتبة والتفكير المركب على أن سمة التفكير المركب هي الجمع بين التفكير الواقعي والتفكير الإجرائي. وهذا بالضبط رأي أرونز فيما يتعلق بالجمع بين المعرفة التقريرية والتفكير الإجرائي.

❖-٨- المعايير بوصفها مفاصل الممارسة

بعد أن طالعنا الكتاب على أهمية المعايير في التربية والحياة العملية من خلال الفصل السابع، ها هو المؤلف يترجم إمكانية تحويل هذه المعايير إلى ممارسة عملية بالاعتماد على قواعد يحتكم الناس إليها عندما يدّعون أن هناك طرقًا معينة ينبغي للأشياء أن تتم بموجبها.

إن أعراف مجتمع ما تعد معيارية في

انها تحدد كيف يتم الزواج، والدفن ومعاملات التملك وتعليم الصغار. ويمكن إذ لزم الأمر أن تصاغ وترمز كقوانين أو مبادئ الممارسة المنهجية، كما أن الأنشطة البشرية يجري تنسيقها بموجب هذه المنهجية أو تلك.

أما عن توجيه الممارسة بالفرضيات والنتائج، فلا بد من الاطلاع على المقاربة التي اعتمدت على إجراء «حل الإشكالات» لجون ديوي ورسم الخطوط العامة لتعليم الطفل كيف يفكر. نذكر مثلاً من هذه الخطوات:

١- شجع طفلك على البحث عن علامات مشاعر مختلفة والتعبير عنها، مثلاً «أشعر بالانزعاج».

٢- ساعد طفلك على صياغة المشكلة بكلام: «أشعر بالانزعاج لأن تود يكايدني».

٣- ساعد طفلك على تحديد هدف، مثل: «أريد تود أن يكف عن مضايقتي». إلى آخر هذه الخطوات.

والملاحظ أن ما شملته كل خطوة من هذه الخطوات:

١- تعبير عن شعور بوجود مشكلة

٢- التعرف على سبب هذا الشعور (صياغة المشكلة).

٣- اختيار حالة نهائية مرغوبة أو هدف مرغوب (صياغة الغاية).

٤- التعرف على الوسيلة (ابتكار الافتراضات).

٥- توقع النتائج سلفًا.

٦- الاختيار من بين البدائل.

٧- ابتكار خطة عمليات.

٨- تقويم النتائج.

يبدو لكثير من الناس أن تفكيرًا كهذا يحدث طبيعيًا. لكنه في الواقع أصعب مما يبدو بكثير، فكل إجراء من هذه الإجراءات الثمانية يتطلب مهارة كبيرة، وجمع هذه الخطوات بطريقة مناسبة يتطلب مهارة أكثر.

وفيما يتعلق بالأنظمة الحسابية المعرفية من هذا النمط سواء كانت لأغراض علاجية أو تربوية فإننا نفعل خيرًا بدمجها في جهود واسعة المقاييس لتعزيز التأمل ورفع سوية الوعي وشحذ المهارات المعرفية. وبدون الممارسة الدائمة في التفكير النقدي والإبداعي والمركب يكون النظام الحسابي أقل قيمة مما يعد به مع هذه الأنماط من التفكير.

إن السؤال الذي يطرح كثيرًا من قبل

المعلمين الذين يتوقع أن يعلموا من أجل التفكير النقدي هو «كيف أعرف متى أُعلم من أجل التفكير النقدي ومتى لا أُعلم؟».

يقول المؤلف: «يوحي هذا السؤال بحد ذاته بالحاجة إلى المعايير. التعريف الذي طرحته يعد جسراً فوق أربع ركائز: التقويم الذاتي، والحساسية للسياق، والمعايير، والمحاكمة العقلية. إن ما يريد المعلم معرفته هو أية سلوكات صفية مقترنة بكل فئة من هذه الفئات. ويقوم المؤلف بتفصيل هذه الركائز الأربعة بشكل دقيق ومنهجي.

❖- ٩- تقوية المحاكمة العقلية

يُعتقد عادة أن الخبرة في المحاكمات العقلية هي نتيجة للمبدأ أو الممارسة. إذ إن المحاكمات العقلية ذات المبادئ تسترشد بالمقاييس والمعايير والأسباب. لذلك يُركّز تعليم الطلبة إجراء محاكمات عقلية ذات مبادئ على تعليمهم المبادئ التي ينبغي أن تنظم محاكماتهم العقلية بموجبها. أما المحاكمات العقلية للممارسة، فهي نتاج الخبرة؛ ويتوقع من الطلبة أن يصلوا إلى الخبرة عن طريق الإفادة من تجربتهم وهم يجرون محاكماتهم العقلية تدريجيّاً بصورة أفضل وأفضل. يقدم الكتاب من خلال هذا الفصل تحديداً دقيقاً ومفصلاً للمحاكمات العقلية التصاعدية ومضامينها وها نحن من خلال هذه الدراسة نقدم لمحة مختصرة.

❖ المحاكمات العقلية الشاملة

آ- محاكمات عقلية تقوم على التطابق: بمعنى كلما زادت التشابهات، اقتربت من التطابق، فالتطابق هو الشرط المقيد لتزايد التشابه.

ب- محاكمات عقلية تقوم على الفروق: هذا النمط من أنماط المحاكمات القليلة التي لها اسمها الخاص («الفروق»).

جـ- محاكمات عقلية تقوم على التشابه: هذه محاكمات التشابه البسيط والتماثل البدائي.

❖ المحاكمات العقلية الوسيطة:

آ- محاكمات تقوم على التركيب: إنها ببساطة أقوال بأن شيئًا ما هو جزء أو ليس جزءاً من شيء آخر. ولدى جمعها مع استنتاج سقيم فإن محاكمات الجزء -والكل هذه تفسح المجال لنشوء ما يُسمى بـ مغالطة التركيب.

ب- محاكمات تقوم على الاستنتاج: يُعتمد على الاستنتاج عندما يصل الأمر إلى توسيع نطاق المعرفة.

جـ- محاكمات تقوم على الصلة: إن

أحكام الصلة تتضمن بوضوح عدد الروابط بين الكيانات المطروحة للبحث وأهمية تلك الروابط.

د- محاكمة عقلية تقوم على الأسباب: تتراوح هذه من بيانات بسيطة لعلاقات السبب والنتيجة.

و- محاكمات عقلية تقوم على العضوية: إنها أحكام تصنيفية، ويعبر عنها ببيانات تشير إلى أن فئة ما من الأشياء تنتمي إلى فئة أخرى.

إلى آخر هذه المحاكمات التي يوضحها المؤلف بأمثلة تبسط المعنى المقصود.

وفي مكان آخر من الفصل يقول المؤلف: للمحاكمة العقلية في حياتنا العملية أهمية كبيرة أما في المهن فهي أمر حيوي، ولهذا السبب تركز التربية المهنية غالباً على شحذ المحاكمة العقلية المهنية... ويضيف المؤلف قائلاً: هناك في الوقت الحالي، اعتراف واسع النطاق بأن شيئًا ما مفقود، بيد أن جهودًا للتحسين تنقلب غالبًا إلى مجرد تجميل. ليس هناك خطأ في محاولات إعادة تنظيم الخطط الدرسية بحيث تجعل الدروس أكثر تشجيعًا للتأمل النقدي وتعزيزًا للمحاكمة العقلية ضمن فروع المعرفة وفيما بينها. ولكن جهود «الغرس» هذه محكوم عليها بالعشوائية، والاتفاقية، واللاجدوى طالما أن الطلبة لا يتاح لهم فحص المقاييس والمعايير والمفاهيم والقيم اللازمة لتقويم ما يكفرون فيه وما يتحدثون عنه فحصًا مباشرًا وبأنفسهم. إن مجرد تشجيع خلافات الرأي، والمناقشة المفتوحة، والجدال لا يشكل رافعة للتفكير الأعلى رتبة. يحدث هذا فقط إذا ما مُنح الطلبة إمكانية الحصول على أدوات التقصي وأساليب المحاكمة المنطقية ومبادئها، والتدريب على تحليل المفهومات، والخبرة في القراءة والكتابة النقديتين إلى آخر هذه الشروط التربوية التي تؤسس البنية التحتية التي ينبغي أن يشاد عليها صرح المحاكمة العقلية الجديدة.

❖- ١٠- تفرعات في تطبيق التفكير النقدي

في هذا الفصل من الكتاب يعالج المؤلف بعض العقبات التي تعيق سبيل إدخال التفكير إلى المنهاج المدرسي، مع التأكيد على التفكير النقدي. ويبدأ بالعقبات المفهوماتية التي تعترض سبيل تعزيز التفكير.

آ- خلافات بشأن طبيعة التفكير: وفيما

يلي بعض الخلافات التي تبرز عندما تشرع في التفكير فيما ينبغي فعله لتحويل بؤرة التربية من التعليم إلى التفكير.

١- مفهوم التفكير بوصفه حلاً للإشكالات، مبدئيًا.

مقابل

مفهوم التفكير، بوصفه باحثًا عن الإشكالات، مبدئيًا..

٢- رؤية هدف التفكير النقدي على أنه الحصول على معتقدات أفضل تأسيسًا.

مقابل

تأكيد عملية التقصي النقدي بحيث تبدو المعتقدات أنها حالات غايات نفسية لقيم معرفية غير معينة.

٣- فهم التفكير النقدي والتفكير الإبداعي على أنهما وجها عملة واحدة.

مقابل

فهمهما على أنهما غير مترابطين، منفصلين أو حتى متعارضين.

٤- صياغة المشكلة بحيث تجعل الطلبة يفكرون مقابل التسليم بأن الطلبة يفكرون ولكنهم بحاجة إلى أن يتعلموا كيف يفكرون بصورة أفضل.

٥- ترتيب عمليات التفكير المتنوعة هرميًا.

مقابل

تجنب الترتيب الإجمالي والإصرار على أن تكون التصنيفات وصفية بحتة.

ب- خلافات بشأن المقاربة النفسية الملائمة.

١- محاولة فهم النمو المعرفي لدى الأطفال عن طريق دراسة ما الذي لا يستطيع فعله الأطفال بدون تدخل، مقابل محاولة فهم مثل هذا النمو عن طريق دراسة ما الذي يستطيع الأطفال فعله بدون تدخل.

٢- التأكيد على جميع أنماط الذكاء البشرية بهدف تشذيب كل الأنماط، مقابل التأكيد على أنماط معينة فقط.

جـ- خلافات حول دور الفلسفة

١- التأكيد على المنطق الصوري أو المنطق اللاصوري أو البلاغة، مقابل محاولة الحث على التفكير النقدي في غرفة الصف دون اللجوء إلى أي مما ذكر.

٢- إدراك أن للفلسفة علاقة بالتفكير الجيد. مقابل إدراك أنه ليس للفلسفة أية علاقة خاصة بالتفكير الجيد.

٣- الاقتراب من التفكير وصفيًا، مقابل الاقتراب منه معياريًا.

٤- التأكيد بأن النموذج الجيد الوحيد للتفكير الجيد هو النموذج العلمي. مقابل التأكيد بأن الفلسفة هي الدرع المناسب

للتعليم في ميدان التفكير، تماماً كما يعد الأدب الفرع المعرفي الواقي المناسب للتعليم في ميدان الكتابة.

د - خلافات حول المقاربات التربوية المفضلة

١- الادعاء بأن التفكير كله منهج معرفي نوعي. مقابل الادعاء بأن هناك مهارات تفكير شاملة تشمل فروع المعرفة.

٢- محاولة جعل فروع المعرفة المنفصلة أكثر تأملية بفضل إضافة تمارين في التفكير النقدي إلى كل فصل من فصول مناهجها، مقابل دمج جميع التمارين المعرفية في مقرر مستقل في التفكير النقدي.

٣- محاولة تعليم التفكير النقدي عن طريق تعليم ما يتعلق بالتفكير النقدي، مقابل محاولة تعليمه بفضل تعزيز الممارسة بدلاً من النظرية.

٤- المقاربات التي تركز اكتساب المهارات المعرفية على المعلم بافتراض أنها سوف تنطبع على الطلبة نتيجة الاحتكاك، مقابل المقاربات التي تستخدم المعلم كسبيل إلى الطلبة ولكنها بالإضافة إلى ذلك تزود الطلبة بنماذج منهاجية من التفكير لإكمال نمذجة المعلم.

٥- المقاربات التي تفيد من طرق التعليم التعليمية مثل إلقاء المحاضرات، مقابل مقاربات تسعى إلى تحويل الصف إلى مجتمع تقصٍّ معرفي تعاوني مشترك.

وطبعاً يتبع كل خيار تعليق يؤكد على أهمية الخيار المقابل للمحاولات الموجودة أصلاً.

❖ - ١١- افتراضات خاطئة تتعلق بالتعليم من أجل التفكير

يختم المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بهذا الفصل الذي هو عبارة عن اعتقادات خاطئة يدرجها المؤلف مع تعليقات وأمثلة توضيحية تبين أهمية التعليم من أجل التفكير فهو يقول: لايعد التفكير النقدي مرضاً، بل هو نمو تربوي سليم. بيد أن له جوانب مريكة. وكما هو الحال مع شكل جديد من أشكال المرض، فإن ما يُحتاج إليه هو تعريف عملي للتفكير النقدي يستطيع إرشاد المعلمين على تشجيع الطلبة كي يفكروا بطريقة نقدية، بيد أن التعريف وحده ليس كافياً. إذ لا بد من فحص دقيق للافتراضات التي ربما نطرحها بشأن التعليم والتفكير والمهارات والمضمون والمقاييس... فلننعم النظر في بعض الافتراضات واضعين في أذهاننا أن كلاً

منها ربما لا يكون سقيمًا بذاته، بل ربما تغدو كلها غير مجدية عندما تؤخذ مجتمعة.

الاعتقاد الخاطئ الأول: التعليم من أجل التفكير يعادل التعليم من أجل التفكير النقدي.

الاعتقاد الخاطئ الثاني: يسفر التعليم النقدي بالضرورة عن تفكير نقدي.

الاعتقاد الخاطئ الثالث: تعليم أمور حول التفكير النقدي مكافئ للتعليم من أجل التفكير النقدي.

الاعتقاد الخاطئ الرابع: يتضمن التعليم من أجل التفكير النقدي تدريبًا على مهارات التفكير.

الاعتقاد الخاطئ الخامس: التعليم من أجل التفكير المنطقي يعادل التعليم من أجل التفكير النقدي.

الاعتقاد الخاطئ السادس: التعليم من أجل التعليم، يعد فعّالاً تمامًا كالتعليم من أجل التفكير النقدي.

طبعًا هذه لمحة مختصرة عن هذا البحث القيم الغني في أصله بالأمثلة التوضيحية التي لا يتسع المجال لذكرها في هذه الدراسة السريعة.

❖ الجزء الثالث.. التفكير، صياغة المعنى

❖- ١٢- مفهوم التفكير الإبداعي

يعرف المؤلف التفكير الإبداعي قائلاً: بأنه تفكير موصل إلى المحاكمة العقلية، وموجه بالسياق، ومتجاوز ذاته، وحساس للمعايير.

ويعرض مقارنة بين التفكير النقدي والتفكير الإبداعي من خلال الجدول التالي:

التفكير النقدي	التفكير الإبداعي
- المعيار الأكبر: الحقيقة (نوع من المعنى)	- المعيار الأكبر: المعنى
- يهدف إلى المحاكمة العقلية	يهدف إلى المحاكمة العقلية
محكوم بمعايير مفردة	حساس للمعايير المغايرة
- ذاتي التقويم	متجاوز للذات
- حساس للسياق	محكوم بالسياق (هناك علاقة طبيعية أو وظيفية بين الأجزاء والكل)

يحاول المؤلف من خلال هذا الجدول ترجمة تعريفه للتفكير الإبداعي بوصفه

تفكيراً موصلاً للمحاكمة العقلية وموجهاً أو محكوماً بالسياق ومتجاوزاً ذاته وحساساً للمعايير ويفصل كل هذا بأسلوب دفاعي لأنه يدرك بأن تعريفه سيواجه بكثير من الانتقادات.

ويعود بنا المؤلف إلى آراء ديوي الذي اعتمدها في جميع فصول كتابه تقريبًا، فعندما نقول: إن التفكير الإبداعي شكل من أشكال التقصي، وأن التقصي ينغمس دائمًا، أو يستتر في موقف، فإن ديوي يقول: إن كل موقف فريد بمعنى أن له سمته الخاصة به، سمة لا يمكن حصرها بكلمات رغم اختيارنا لأفضل الصفات أو الظروف التي نعرفها لتقريب هذه السمة، يمكننا القول إن هذا الموقف «محزن» أو ذاك الموقف «مبهج» بيد أن هاتين الصفتين تعدان عبارتين عامتين في حين أن الموقفين خاصين وقرويين بصورة عنيدة، فإن كان هذا الموقف مبهجًا، فهو مبهج بطريقته الخاصة جدًا والتي لا تتطابق أبدًا مع أية بهجة أخرى.

إذًا هناك قيم تكشف بعلاقات فردية، وهناك قيم تكشف بصورة كلية للعلاقات في الموقف الإبداعي. وفيما بين هذين النوعين من القيم المجهرية هناك قيم ذات حجم متوسط وتتمتع في ذلك بقدرة خاصة على ضبط اتجاه المحاكمة العقلية، وتكون هذه القيم القوية عادة نتاج أزواج ثنائية من المفاهيم المتنافرة أو المعززة.

ويختم المؤلف هذا الفصل بقوله: لا أدعي أن التفكير الإبداعي هو كل الإبداعية، بل هو يمثل جانبًا منها، رغم أنني، مرة أخرى، لست متأكدًا من ماهية التفكير والإبداعية أو متى ينصرفان وتبدأ أشياء أخرى. يتضمن الحافز الإبداعي بوضوح امتدادات مستمرة للوصول إلى منابع تلك التجربة، على اعتبار أن التفكير هو نوع معالجة التجربة، وامتدادات مستمرة للوصول إلى اكتمالها وإنجازها. ولكن ينبغي ألا نخلط بينهما وبين ثراء التجربة البشرية ورونقها أو بينها وبين اللغز الذي نسميه الطبيعة التي يكون فيها للتجربة البشرية خلفيتها ومستقرها.

❖- ١٣- المعلمون والمضمون

إن التأهيل المهني للمعلم ربما يتضمن قاعدة واسعة من المعرفة ولكن ينبغي أن تعد هذه المعرفة احتياطًا وليس مضمونًا يتصدق به المعلمون على الطلبة. ينبغي أن يتطلب التأهيل الحرفي القدرة على تنسيق ثلاثة شروط وضعها المؤلف وهي: ١- تعليم كفؤ، ٢- منهاج واف بالغرض، ٣- تكوين مجتمع التقصي، وسيتم التركيز على

التعليم الكفؤ والمنهاج الوافي بالغرض، لأن الجزء الأخير من الكتاب سيفرد الحديث عن مجتمع التقصي.

على أساس هذه الشروط، لم يعد ينظر إلى المعلمين بوصفهم مجرد مدرسين بل هم بحاجة إلى مهارات منظماتية تستطيع استخراج مهارات الآخرين وإظهارها. فلا يجوز لمن يُعدُّون معلمي المستقبل أن يتغاضوا عن هذه المتطلبات.

أما فيما يتعلق بالنص فلا بد للنص الذي يطلق عملية التفكير أن يكون هو بحد ذاته نموذجًا لعملية التفكير، ويضيف المؤلف قائلاً: تصور بأن النمذجة، التي يتفقون على أنها هامة، مقيدة بنمذجة المعلم للطلبة أو بنمذجة المدرب للمعلم، إن فكرة كون النص نموذجًا أو صورة كانت لدى العديد من المربين فكرة خارجة عن الموضوع وشاذة. فإذا كنا نريد الأطفال، أو الطلبة من أي عمر، أن يشكلوا مجتمع تقصٍّ، لا بد أن نطلعهم على مجتمع تقص وندعهم يفحصون كيف يعمل، لأن ذلك سيساعدهم على تشكيل مجتمع تقص لهم. سأسمي هذا النموذج مجتمع التقصي الخيالي، الكلام للمؤلف، في مقابل مجتمع التقصي الواقعي الذي يظهر في غرفة الصف.

- والآن سنتعرف على أنواع النمذجة التي تحدث عنها المؤلف آنفًا:

١- طلبة آخرون كنماذج: في مجتمع تقصي، سوف يستخدم الأطفال سلوك أطفال آخرين كنموذج لسلوكهم.

٢- النص كنموذج: يمكن للنص أن يصور طلبة منخرطين في تفكير أعلى رتبة، كما يمكن أن يوضح الحركات المنطقية أو المفهومية التي تقوم بها شخصيات النص الخيالية الأمر الذي يسفر عن أن يتخذ الطلبة الحقيقيون الأحياء سلوك هذه الشخصيات الخيالية نموذجًا لسلوكهم.

٣- المعلم كنموذج: المعلم يعد نموذجًا لشخص يتجاوز الإجابات الخاطئة والصحيحة بدلاً من أن يرفضها بمعنى أن يهتم بعملية التقصي أكثر من اهتمامه بالجواب الذي ربما يكون صحيحًا أو خطأ في وقت معين.

وقبل الانتقال إلى فصل آخر يجب تعريف المنهاج بوصفه جزءًا من المؤسسة المدرسية الأوسع والتي ينبغي أن تكون أيضًا مؤسسة عقلانية إذا ما كان لا بد من ملامسة الذين يتحركون فيها بالعقل بصورة مستمرة.

وعلى هذا الأساس فإن تزويد المعلمين

بكتب تعليمات يعني تزويدهم بأكثر أشكال التسقيل قيمة. إن هذا النوع من التسقيل ينبغي الحفاظ عليه حتى عندما يعتقد المعلمون أنهم مستعدون للاستغناء عنه. ذلك لأن الكتاب ربما يجسد مهارات أو إجراءات تقع خارج مجال معظم معلمي الصفوف.

❖- الجزء الرابع والأخير. طبيعة مجتمع التقصي واستخداماته

❖- ١٤- التفكير في المجتمع

في الفصول السابقة أرشدنا المؤلف إلى معالم مجتمع التقصي وهو في هذا الفصل يقوم بتلخيصها من خلال هذه البنود:

أولاً: مجتمع التقصي عملية تهدف إلى إنتاج، نوع من التسوية أو الحكم، مهما كان محابيًا أو غير قطعي.

ثانيًا: لهذه العملية حاسة اتجاه؛ إذ تتحرك حيث يقودها النقاش.

ثالثًا: إن هذه العملية ليست مجرد حديث أو نقاش، بل هي عملية حوارية.

رابعًا: هناك مسألة استخدام مجتمع التقصي لتفعيل تعريفي التفكير النقدي والتفكير الإبداعي وتطبيقها.

يقدم المؤلف في هذا الفصل توضيح كامل لهذه النقاط الأربعة من خلال شرح تفصيلي وكم وافر من الأمثلة التي تغني فهم القارئ وتزيد من شغف اطلاعه على هذا الفصل من الكتاب، بقي أن نقول: بأن مجتمع التقصي، بمفهوم معين، يعدّ معلمًا اجتماعيًّا أو جماعيًّا، فهو بالتالي مثال على قيمة التجربة المشتركة، ولكنه يمثل، من جهة أخرى تعظيم كفاءة عملية التعليم، إذ إن الطلبة الذين يعتقدون أن التعليم يتم من قبل الفرد ذاته، يكتشفون أنهم يستطيعون، كذلك، استخدام تجربة الآخرين والإفادة منها.

❖- ١٥- الأهمية السياسية لمجتمع التقصي

تعد مسألة التفكير النقدي حالة في الصميم، والسؤال عن قيمتها هو إثارة هذا النوع من الأجوبة: يحسّن التفكير النقدي الحصافة، والديمقراطية تتطلب مواطنين يتمتعون بالحصافة، وهكذا فإن التفكير النقدي وسيلة ضرورية إذا كان هدفنا مجتمعًا ديمقراطيًّا. أما تعريف المجتمع الديمقراطي فهو شكل التنظيم الاجتماعي الأفضل تعزيزًا لمساواة الحياة لكل أعضائه.

إن البنية الاجتماعية لمجتمع التقصي تجعله جسرًا ضروريًّا بين السمة المؤسساتية للأسرة، وسمة التقصي للديمقراطية والتي ينبغي أن تميّز في

المجتمع على نطاق واسع. ويمكن لمجتمع الصف أن يلعب دورًا وسيطًا بين الأسرة والمجتمع عمومًا، أو بين الخلفية الثقافية أو العرقية الخاصة لكل فرد والمجتمع عمومًا. كذلك يمكن أن يتوسط بين الضغوط من أجل حل إشكالات اجتماعية بإجماع ديمقراطي، أو بتقصٍّ علمي، أو بقوة اجتماعية أو اقتصادية عجماء، فهو يستطيع بتأملاته أن يصنف القضايا إلى مجموعات، مميزًا تلك التي يمكن إقرارها على الفور من تلك القضايا الخلافية العميقة، وبهذه الطريقة يمكن للمجتمع الصفي أن يقوم بدور منطقة عازلة قيمة، يمنع الاندفاع المحموم لإصدار حكم في قضايا تتطلب دراسة مطولة في حين يطالب بتصرف سريع في حالات يكون فيها الحكم المحدد ملائمًا والتصرف السريع إلزاميًا.

وقبل الانتهاء من دراسة هذا الفصل الأخير من الكتاب، لا بد من التعرف على أهم النقاط التي تُخضع المنهاج إلى إعادة تقويم، طبعًا بحسب رأي المؤلف.

١- إزالة التخمة من بعض فروع المعرفة القائمة على حساب فروع معرفة أخرى.

٢- تقليص التشظي المستوطن في المنهاج.

٣- إدخال فروع المعرفة، كالفلسفة والعلوم الإنسانية الأخرى والفنون الغائبة حاليًا والقادرة مع ذلك على الكثير مما يلزم لإحياء المنهاج وجعله ذا صلة بالحياة ثانية. وفي خاتمة الكتاب يقول المؤلف: في كل فرع من فروع المعرفة لا بد من تشذيب التفكير المعقد الأعلى رتبة. وهذا يعني أن كل مقرر في فرع معرفي لا بد أن يكرس في النهاية وقتًا في منهجية ذلك الفرع: افتراضاته، معاييره، إجراءاته، وأساليبه في المحاكمة المنطقية والمحاكمة العقلية. وأخيرًا، إن كان ذلك الفرع أكاديميًا فإنه يتصف بالنقد الذاتي بصورة كاملة، وما لم يمارس فرع المعرفة نقدًا ذاتيًا فإنه لن يكون هو ذلك الفرع المعرفي الذي ينبئ عن ذاته. فالنقد الذاتي يعد مظهرًا من مظاهر كل فرع معرفي ينبغي أن يعرضه ذلك الفرع على الطلبة.

ومن خلال فصول الكتاب وأجزائه الأربعة، يلاحظ القارئ دفاعًا واضحًا عن الفلسفة وأهمية وجودها في المنهاج الدراسي وهذا الدفاع يأتي حسب قول المؤلف: من أن الفلسفة تشجع التفكير في فروع المعرفة لأنها تتحمل عبء تعليم الجوانب الشاملة من التفكير التي تناسب أي فرع معرفي ولأنها نموذج لما يقصد أي

فرع معرفي أن يفكر فيه وأن يكون نقديًا لمنهجيته الخاصة به. ومن البدهيات التي تتبناها الفلسفة هي أن أي مقرر لا يجري فحصه لا يكون جديرًا بأن يعطى للطلبة.

أخيرًا يمكننا القول: بأن هذه الدراسة لا تغني البتة عن العودة إلى الكتاب لما فيه من غنى بالمعلومات والأمثلة، هناك مأخذ وحيد وهو أن الكتاب فيه تكرار لبعض المواضيع لكن هذا المأخذ جاء لصالح القارئ والتكرار لم يؤثر على الهيكل العام للكتاب بل قدم إضافة ووفرة في المعلومات التي نفتقد إليها في معظم مدارسنا وجامعاتنا، لأن ما يتم فيها، أقصد تعليمنا المحلي، مازال تعليمًا ببغاويًا ولا علاقة له، على الأغلب، بالحياة العملية. ومازالت مسؤولية التعليم ملقاة على عاتق المدرس مع أن المفروض أن يكون التلميذ هو محور العملية التعليمية، وتأتي أهمية الكتاب بأنه يقدم اللبنة الأساسية لإمكانية تعليم تربية الفكر والتفكير في المدارس والجامعات والانتقال من مرحلة التعليم إلى مرحلة التعلم.